

تَهْدِيَةُ النَّفْسِ
وَتَجَرِيدُ النَّفْسِ
مِمَّا أُحْتَبَ مِنْ الْأَبَاطِيلِ وَرَدَى الْأَفَاوِيلِ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ

عُضُوهُنَّ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا
بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالْمُدَرِّسُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

③ عبد القادر شيبية الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبية الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء
الأقاويل./ عبد القادر شيبية الحمد- ط 2..- الرياض، 1432هـ
٦ مج.

ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٦-٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٢)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي ٦/٢٢٧ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٦-٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٢)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ
الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٣٩٩ بيروت تليفاكس: ٠٠٩٦٦١/٦٤٢٨٣٢

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ تليفاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى : ﴿كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ صَدَقَ اللَّهُ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿

بعد أن أكد الله عز وجل أن الدين الحق هو دين الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وأن من مات على غير الإسلام لن يدفع العذاب عنه شيء ولو كان له مثل ملء الأرض ذهباً وافتدى به من عذاب الله ما تُقْبَلُ منه وأن الذي ينتفع بما ينفق هو المسلم المستقيم على الحنيفة ملة إبراهيم، وعَرَفَ المسلمين فضل نفقتهم مما يحبون، وقد أثار اليهود لعنهم الله عز وجل شبهاً حيث قالوا للنبي ﷺ: إذا كنت على ملة إبراهيم فلماذا تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها وقد كانت محرمة على إبراهيم؟ وأرادوا بإثارة هذه الشبهة الداحضة الخاطئة أيضاً إنكار النسخ في الشرائع وأن ما حُرِّمَ على الناس كان مُحَرَّمًا عليهم من لدن آدم عليه السلام، كما أرادوا إثارة الشبهة حول صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وأنكروا أن يكون إبراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بمكة، وكانت هذه الشبهة التي أثاروها سبباً في خزيهم، وتعريف الأمم بجهالتهم وافتراءتهم على الله وعلى رسوله، إذ صاروا كالشاة التي بحثت عن حتفها بظلفها، حيث أعلن عز وجل للعالمين صدق رسوله ﷺ وأنه علّمه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه، وعَرَفَ المسلمين بأنهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأقام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة المخزية لليهود، إذ قرر عز وجل أن سائر الأطعمة ومنها لحوم الإبل وألبانها التي أباحها الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين كانت مباحة لإبراهيم عليه السلام ولذريته من أبناء إسماعيل

وإسحاق ويعقوب ، وتحداهم أن يأتوا من التوراة التي بأيديهم بدليل واحد
 بأن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام ، وأفهمهم أن
 تحريمها إنما صدر من إسرائيل عليه السلام حيث حرّمها على نفسه لسبب
 من الأسباب التي دعت به إلى ذلك ، وقد يكون حرّمها على نفسه ازدلافا إلى الله
 عز وجل وهو يحبّها ، كما حرّم رسول الله ﷺ العسل على نفسه وهو يحبه ،
 وتتضح بهذا المناسبة بين قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
 تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وبين قوله عز وجل : ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
 إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ غير أنه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا
 حلف الإنسان ألا يأكل طعاما معينا صار هذا الطعام محرّما عليه طول عمره
 ولا كفارة له ، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث
 شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ
 تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد فرض الله
 لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن
 تيمية رحمه الله : وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يَصِرْ
 حراما ، بل له أن يفعله ويكفّر عن يمينه ، وما لم يكن واجبا فعلة إذا حلف
 عليه لم يَصِرْ واجبا عليه ، بل له أن يكفّر يمينه ولا يفعله ، ولو غلّظ في اليمين
 بأي شيء غلّظها ، فأيمان الخالفين لا تغتير شرائع الدين ، وليس لأحد أن يحرم
 بيمينه ما أحله الله ، ولا يوجب بيمينه ما لم يوجبه الله ، هذا هو شرع محمد
 ﷺ ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرّم الرجل شيئا حرّم
 عليه ، وإذا حلف ليفعل شيئا وجب عليه ، ولم يكن في شرعهم كفارة ، قال
 تعالى : ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ فإسرائيل حرّم على نفسه شيئا فحرّم عليه ، وقال الله
 تعالى لنبينا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ

غفور رحيم* قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم* وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون* لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، واحفظوا أيمانكم، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ولهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه، أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضِغْثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضِغْثٍ اهـ والتقيد بقوله عز وجل: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ لأنه بعد إنزال التوراة على موسى عليه السلام حرّم الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَوْ الْخَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾. وبهذا يتضح جهل أهل الكتاب بكتابهم، وينبج الحق المصدق لرسول الله ﷺ وما علمه الله عز وجل من خواص شريعة أهل الكتاب وأسرارهم، وصارت شبههم سببا في إعلاء راية الإسلام وبيان فضله كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ أُنَاحُهَا لِسَانُ حَسُودٍ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرَفَ الْعُودِ
وبهذا يتضح أن النسخ الذي ينكر اليهود قبحهم الله جوارَه قد وقع في

شرائع أنبيائهم ، فهم لا يستطيعون إنكار أن آدم عليه السلام قد شرع الله له أن يزوج بناته من بنيه ثم حرّم الله ذلك بعد ذلك ، وأن التّسري على الزوجة كان مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام حيث تسرى هاجر على سارة رضي الله عنهما ثم حرّم في بعض شرائع بني إسرائيل ، وأن الجمع بين الأختين قد أباح ليعقوب عليه السلام ثم جاء تحريمه بعد ذلك في التوراة التي بأيديهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام فهاتوا التوراة واقرؤوها من أولها إلى آخرها إن شئتم وأظهروا لنا نصّا واحدا منها يصدّقكم في دعواكم أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام ، وهذا برهان من أبرز البراهين وأجلاها وأسطعها على أن اليهود كذبة فجرة لا يتورعون عن الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله وأن النبي الأمي محمدا ﷺ قد أعلمه الله وأطلعه على خفايا أسرار التوراة التي بيد اليهود والنصارى ، وأن علماء وأخبار أهل الكتاب الذين كذبوا رسول الله ﷺ وأثاروا الشبه للصد عن سبيل الله كانوا كمثّل الحمار يحمل أسفارا ، ولم ينقل أحد قط أن اليهود حاولوا أن يحيثوا بالتوراة وإنّما اندحروا خاسئين ، وهذا التحدي بقوله تعالى : ﴿ فاتوا بالتوراة فاتلوها ﴾ غير التحدي الذي تحداهم به رسول الله ﷺ لما تحاكموا إليه في أمر الرجل والمرأة الزانيين من اليهود وسألهم رسول الله ﷺ عن حكم الزناة في التوراة ، وقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال : فاتوا بالتوراة ، فإنهم جاءوا يومها بالتوراة وقرأها رجل منهم لكنه حاول إخفاء نص التوراة في الزناة ، حيث وضع يده على آية الرجم ، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ،

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : كذبتُم إنَّ فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما ، فرأيت الرجل يجني على المرأة يقيها الحجارة . وقد أورد البخاري هذه القصة في مواضع من صحيحه بألفاظ متقاربة ، حيث أورده في المناقب والحدود والتوحيد والتفسير ، وجعله في التفسير في باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولا شك أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لم يكن في قصة اليهوديين الزانيين ، بل كان في قصة دعوى اليهود تحريم لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم عليه السلام ، ولعل البخاري رحمه الله قد أورد هذا الحديث عند تفسيرها لمجرد قوله في الحديث في بعض ألفاظه : فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتُم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، والمعروف عن البخاري رحمه الله أنه قد يورد الحديث في موضع من صحيحه لأدنى مناسبة ، والظاهر أن نزول هذه الآية كان متقدما على قصة هذا الحديث ، فذكر عبد الله بن سلام رضي الله عنه هذا اللفظ مستفيدا من لفظ الآية الكريمة ، وليس قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ دليلا على صحة الاحتجاج بكل ما في التوراة التي بيد اليهود والنصارى لعنهم الله ، بل المراد فضح اليهود وبيان كذبهم على الله وعلى رسله ، والاستشهاد عليهم ببعض النصوص المطابقة لملة إبراهيم التي انحرفوا عنها ، ولم يصحبها تحريفهم الذي وقعوا فيه . وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ هو وعيد شديد لليهود الذين يفترون على الله الكذب ، ويقولون على الله وعلى أنبيائه ما لا علم لهم به ، أو ما يعلمون أنهم مفترون فيه على الله وعلى رسله ، وقوله : ﴿ مَنْ بَعْدَ

ذلك ﴿ أي من بعد ظهور هذه الحجة القاهرة الدالة على صدق رسول الله ﷺ حيث أخبر أحبار اليهود بأنه لا يوجد دليل واحد بأيديهم على أن إبراهيم كان يحرّم لحوم الإبل والبانها، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة، التي بأيديهم ويقرءوا لإثبات ما يدعونه على إبراهيم فاندحروا، وبُهِتوا، ولم يحاول واحد منهم أن يستجيب ويحضّر التوراة، فعلم قطعاً أن هذا العلم الذي علّمه الله للنبي الأمي هو وحي من الله عز وجل الذي يعلم الغيب والشهادة. وقوله عز وجل: ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود المقترين على الله ورسوله: إن خبر الله هو الخبر الصادق، وإنّ قوله هو القول الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسارعوا يامعشر أهل الكتاب ويا من يدّعي كذباً وزوراً أنه على ملة إبراهيم إلى الاستجابة لمحمد ﷺ لتصيروه حقا على ملة إبراهيم وادخلوا في دين الإسلام الذي هو الحق الذي لا مرية فيه وهو المنهج الذي لم يأت نبي ولا رسول بأكمل ولا أبين ولا أوضح ولا أتمّ منه، الصالح لكل زمان ومكان وعصر ومصر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ
حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ أَثَارُوا
شِبْهًا حَوْلَ صَلَاةِ إِبْرَاهِيمَ بِالْعَرَبِ وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ هُوَ الَّذِي بَنَى
الْبَيْتَ الْحَرَامَ بِمَكَّةَ، وَأَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَةَ الَّتِي أَثَارَوْهَا كَانَتْ سَبِيًا فِي خَزِيرِهِمْ
وَتَعْرِيفِ الْأُمَمِ بِجَهَالَتِهِمْ وَأَنَّهُمْ صَارُوا كَالشَّاةِ الَّتِي بَحِثَتْ عَنْ حَتْفِهَا
بِظُلْفِهَا، وَلَعَلَّمَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَ بِمَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَأَنَّ الْيَهُودَ
سَيَجْحَدُونَ صَلَاةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ، أَبْقَى أَثَرَ مَوْطِئِ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَجَرِ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ وَهُوَ بَيْنِي الْكَعْبَةِ لِيَكُونَ
شَاهِدًا يَتَوَارَثُ الْعَرَبُ الْعِلْمَ بِهِ وَيَسَمُّونَهُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ مِنْ
لَدُنْ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَى يَوْمِنَا
هَذَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو طَالِبٍ فِي لَامِيَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل
وكما ردع الله اليهود وأدحض شبهتهم في دعواهم أن إبراهيم كان يحرم لحوم
الإبل والباغيا وتحداهم أن يأتوا بنص واحد من التوراة على ما يزعمون فبهتوا
واندحروا خاسئين، وكذلك أدحض الله عز وجل شبهتهم في دعواهم أنه لا
صلة لإبراهيم بالبیت الحرام حيث أشار إلى أن مقام إبراهيم عند البيت الحرام
آية حسية تواتر العلم بها، فمن أنكرها فإنه لا يستكثر عليه أن ينكر أن
السماء فوقه وأن الأرض تحته وغير ذلك من البدعيات المسلمات. وقوله عز
وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أَيِ إِنْ أَوَّلَ مَسْجِدٍ وَضَعَ فِي الْأَرْضِ

ليكون مثابة لجميع الناس مشتركا بينهم لإقامة الطاعات والعبادات وقبلةً وأمنا، والمراد بالأولية هنا الأسبقية على جميع المساجد في الأرض، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى وضع بعده بأربعين سنة، ففي لفظ للبخاري من طريق الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإنّ الفضل فيه». وفي لفظ للبخاري من طريق الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضِعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون»، ثم قال: «حيثما أدركتك الصلاة فصلّ والأرض لك مسجد». وقد رواه مسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولا؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» وأينما أدركتك الصلاة فصلّ فهو مسجد». وفي لفظ لمسلم: «ثم حيثما أدركتك الصلاة فصلّه فإنه مسجد». وفي لفظ لمسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم ابن يزيد التيمي قال: كنت أقرأ على أبي القرآن في السّدة، فإذا قرأت السجدة سجد، فقلت له: يا أبت أتسجد في الطريق؟ قال: إني سمعت أبا ذر يقول: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عاما»، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصلّ». ولا شك أن تكليف الناس بالصلاة كان مشروعاً في دين جميع

الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ونوح وهود وصالح قبل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وإلى ذلك يشير قوله عز وجل : ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبيينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ . وقوله عز وجل : ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ يشعر أنه قبله هؤلاء الأنبياء والمرسلين والهداة المتقدمين ، ولا معارضة بين قوله عز وجل : ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ وبين بناء إبراهيم للبيت الحرام ، لأن إبراهيم عليه السلام قد بناه على مكانه الذي وضعه الله عز وجل ، حيث أعلمه الله عز وجل بمكانه بعد أن صار كالربوة ، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ كما أن قوله عز وجل : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ يشعر بذلك أيضا ويفيد أن قواعد البيت الحرام كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام ، غير أن بناء إبراهيم للبيت الحرام قد أبقى الله عز وجل معالمة حتى تهدم في عهد قريش فأعادت بناءه قبيل بعثة رسول الله ﷺ وقبض الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ يومها أن تطبق قريش على اختياره ﷺ للحكم في وضع الحجر الأسود مكانه من البيت الحرام وكان رسول الله ﷺ وقتئذ ابن خمس وثلاثين سنة فكان ذلك من بين الإرهاص والمقدمات التي قدمها الله عز وجل لرسوله ﷺ بين يدي بعثته صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين ، كما أنه لا معارضة بين حديث الصحيحين بأن المسجد الأقصى وضع بعد المسجد الحرام بأربعين عاما وبين ما عُلِمَ بأن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى ، لما أشرت قريبا من أن الوضع غير البناء ، فعمل سليمان عليه السلام في بناء المسجد الأقصى كعمل إبراهيم عليه السلام في بناء المسجد الحرام إذ كانا عليهما السلام مجددين قد وضع كل منهما الأساس والقواعد فوق أساس وقواعد سابقة ، وهذا الحديث

المخرَج في الصحيحين بالفاظ عن أبي ذر رضي الله عنه يفسر المراد بقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةٌ﴾ ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وقد ورد ذلك صريحا عن عليٍّ أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال : كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله . اهـ وظاهر الآية الكريمة وكذلك قوله عز وجل : ﴿الَّذِي جَعَلَنَاهُ لِلنَّاسِ سِوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يؤكد ذلك ويؤيده لأن كونه موضوعا للناس يقتضي كونه مشتركا فيه بين جميع الناس ، فأما سائر البيوت فليست بهذه المثابة ، حيث وضع الله البيت الحرام ليكون موضعا لطاعات لا تجوز إلا فيه كالحج والطواف ، فلم يشرع الحج إلى بيت في الأرض سواه ، ولا يجوز لمسلم أن يطوف حول مكان في الأرض إلا حول الكعبة ، كما جعله الله عز وجل قبله لأكثر أنبياء الله ورسله ثم حرّم على كلّ الناس أن يتخذوا قبله سواه . وقوله عز وجل : ﴿لِلَّذِي بَيْكَةٌ﴾ أي للبيت الذي بَيْكَةٌ أي فيها ، وبكة علمٌ على البلد الحرام وقد سماها الله عز وجل بأسماء منها : بكة ومكة والبلد الحرام وأم القرى والبلد الأمين . وقوله : ﴿مباركاً وهدي للعالمين﴾ أما كونه مباركا فلما يسوقه الله عز وجل لأهله من الخيرات والبركات من سائر أنحاء الأرض ، ولما يضاعفه الله عز وجل من المثوبة على الأعمال الصالحة فيه حتى جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه ، وأما كونه هدى للعالمين فلما فيه من الآيات العجيبة الدالة على عظيم قدرة الله حيث يأتيه الناس رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ولما عرفه القاصي والداني مما وضع الله عز وجل فيه من الأمن في جميع الأعصار كما قال عز وجل : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يعلمون ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿أولم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ويُتَخَطَّفُ
الناس من حولهم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة
الشتاء والصيف * فليعبدوا ربّ هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف﴾ فقد كان أهل مكة ينعمون بالأمن والاستقرار حتى في الأوقات
التي كان الخوف والاضطراب يُعَمِّ جميع بلاد العالم من حولها، ويتخطّف
الناس في غيرها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن
دخله كان آمنا﴾ ردّ على اليهود الزاعمين أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام،
وتكذيب لهم بالدليل الحسي المشاهد بالعيون، المعلوم بالتواتر وهو وجود
مقام إبراهيم فيه، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه
السلام عندما ارتفع البناء، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في
قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة ثم قصة بناء البيت الذي أورده
البخاري في صحيحه، وفيه : فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني
حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني
وإسماعيل يناوله الحجارة . الحديث، وقد سقته بتمامه في تفسير قوله عز
وجل : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ وعندما وضع
إبراهيم قدميه على هذا الحجر جعل الله ما تحت قدمي إبراهيم من ذلك
الحجر دون سائر أجزائه كالطين، حتى غاص فيه قدما إبراهيم عليه
السلام، وانطبعت في الحجر صورة أثر القدمين، فلما رفع إبراهيم قدميه عن
الحجر أعاد الله له صلابته الحجرية كما كان أول مرة، ثم أبقي الله تبارك
وتعالى هذا الحجر على سبيل الاستمرار والدوام مشهورا معروفا مصونا، فهذه
آيات شاهدات على كذب اليهود وجحودهم ولذلك يقول تبارك وتعالى :
﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ وما أحسن ما قيل : ليس في العالم بناءٌ
أشرف من الكعبة، فالأمر ببنائه هو الملك الجليل، والمهندس جبريل،

والباني هو الخليل ، والتلميذ هو إسماعيل . وقوله : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ هذا أيضاً من جملة الآيات البينات إذ فيه تحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿رب اجعل لهذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾ وكما قال : ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام يقتل بعضهم بعضاً خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم صاروا آمينين مطمئنين ، وقد يلقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيج ولا يتعرض له بأذى ما دام في الحرم ، فكان هذا من الآيات البينات التي جعلها الله عز وجل فيه ، وقد زاده الإسلام حرمة وتعظيماً . والضمير في قوله : ﴿ومن دخله﴾ للحرم كله . وقوله عز وجل : ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ أي والله على من استطاع من الناس طريقاً يمكنه من الوصول إلى مكة أن يحج هذا البيت ، وقد أجمع المسلمون على أن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجّوا» فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : «لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم» ثم قال : «ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» . وفي قوله : ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وعيد شديد لمن قدر على الحج ولم يحج ، ولمن كذب بآيات الله التي ذكرها في هذا المقام وغيره .

قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ﴿

بعد أن نوه الله عز وجل بذكر البيت الحرام بمكة المكرمة بما يفيد أنه أشرف بيت أقيم لعبادة الله عز وجل وأسبق المساجد في الأرض على الإطلاق ، وذكر ما فيه من الهدى والبركات ، والآيات البيّنات الشاهدات على بناء إبراهيم خليل الرحمن لهذا البيت العتيق بما يردع اليهود الجاحدين لصلة إبراهيم إمام الحنفاء بهذا البيت الحرام ، وذكر عز وجل أنه أوجب حج هذا البيت على من استطاع إليه سبيلا ، ووصم من جحد هذه الآيات ، وأنكر وجوب حج هذا البيت بأنه كافر ، وأنه لن يضرّ إلا نفسه بكفره وجحوده لأن الله جل وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين لأنه غني عن الخلق أجمعين ، أمر نبيه ﷺ بتوجيه الخطاب لأهل الكتاب موبّخا لهم على استمرارهم على الكفر بعد ظهور هذه البراهين منكرًا عليهم أشدّ الإنكار أن يكون لكفرهم بآيات الله سبب من الأسباب حيث يقول عز وجل : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدّهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حقٌّ من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين ، والسادة المرسلين ،

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ، ونوّهوا به ، من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكّي سيّد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشّر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزّيهم على ذلك ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون﴾ اهـ وقوله تعالى : ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لإفادة تشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار على هؤلاء الكفرة الفجرة من أهل الكتاب ، وكان مقتضى السياق أن يقال : وهو شهيد على ما تعملون ، لكن مقتضى الحال يقتضي إظهار لفظ الجلالة حيث قال : ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لتربية المهابة في نفوسهم ، وتهويل الخطب عليهم ، لعلمهم يرتدعون عن غيهم ، وينزجرون عن ضلالهم ، وتكرير قوله عز وجل : ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ لزيادة التشنيع عليهم حيث صاروا أقبح سلوكا من الأميين الوثنيين في ردّ الحق والصدّ عن سبيل الله ، وأصبحوا كما قال الله عز وجل فيهم : ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ . وقوله عز وجل : ﴿لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً﴾ توبيخ لهم على الإضلال بعد توبيخهم على الضلال ، قال أبو السعود العمادي في تفسير قوله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً﴾ : أمر بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضلال ، والتكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريرهم وتوبيخهم ، وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم ، كما أنّ قطع قوله تعالى : ﴿لم تصدّون﴾ عن قوله تعالى : ﴿لم تكفروا﴾ للاستبعاد اللائمة والتقرير ، وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال ، وتشديد التشنيع ، فإنّ ذلك العنوان كما يستدعي الإيذان

بما هو مصدق لما معهم يستدعي ترغيب الناس فيه ، فصدهم عنه في أقصى مراتب القباحة اهـ وصور الصّد عن سبيل الله التي يقترفها أهل الكتاب كثيرة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنواع منها في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل ولا سيما اليهود لعنهم الله حيث عدّ صدهم في سلسلة جرائمهم حيث يقول : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلَّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ﴾ وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما . ﴿ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وتبغونها عوجا وأنتم شهداء ﴾ أي وتريدون أن تكون سبيل الله وشريعته معوجة مائلة زائغة عن الحق وأنتم تقرأون في الكتب التي بين أيديكم أن الله إنما يبعث الرسل والأنبياء لدعوة العباد إلى صراط الله المستقيم ودينه القيم الذي لا زيغ فيه ولا ميل ولا اعوجاج ، كما جاء في الوصايا العشر التي تطابقت على الدعوة لها جميع الشرائع : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتَّبِعُوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ والعِوَج بكسر العين وبفتحها هو الميل والانحراف ، والمقصود هنا هو ما يحاوله هؤلاء من إثارة الفتنة بين المسلمين لتشتيت شملهم ، وتمزيق وحدتهم ، وتفريق كلمتهم ، قال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال : حدثني الثقة عن زيد بن أسلم قال : مرّ شأس بن قيس — وكان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم — على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفقتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود وكان

معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، وذَكِّرْهُمْ يوم بُعَاث وما كان قبله ،
 وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، وكان يوم بعث يوما
 اقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل ،
 فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواب رجلا من الحيين
 على الركب : أوس بن قَيْظي أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار
 ابن صخر أحد بني سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه :
 إن شئتم والله رددناها الآن جَذَعَةً ، وغضب الفريقان ، وقالوا : قد فعلنا ،
 السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - فخرجوا إليها ،
 وتحاوز الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى
 بعض ، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله
 ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه ، حتى جاءهم
 فقال : «يا معشر المسلمين ، الله الله ، أَدْعُوِي الجاهلية وأنا بين أظهركم ،
 بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ،
 واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟»
 فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من
 أيديهم ، وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم
 انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله
 شأس بن قيس وما صنع ، فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع : ﴿ قل يا
 أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل
 الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً ﴿ الآية ، وأنزل الله عز
 وجل في أوس بن قَيْظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين
 صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية : ﴿ يا أيها
 الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم

كافرين ﴿ إلى قوله : ﴿ أولئك لهم عذابٌ عظيم ﴾ اهـ وهذا الأثر قد رواه أيضا أبو الشيخ في تفسيره من طريق ابن إسحاق قال : حدثني الثقة ، عن زيد بن أسلم قال : مر شأس بن قيس وكان يهوديًا عظيم الكفر على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون فغاضه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة . وساقه بنحو سياق ابن جرير ، وهذا الأثر مرسل وفيه راوٍ مبهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله وحرصهم على إضلال المسلمين حذر الذين آمنوا من إطاعة هؤلاء المجرمين الذين لا يسلكون إلا الطرق المعوجة الملتوية ، ويبن لهم أن إطاعة أي فريق من أهل الكتاب المعاندين للحق يؤدي بمن يطيعهم إلى الردة عن الإسلام والكفر بعد الإيثار ، لأن الغل والحسد الذي يملأ قلوب هؤلاء على المؤمنين يحملهم على نصب الفخاخ والشباك الشيطانية للمؤمنين ليردوهم عن دين الإسلام ، كما قال عز وجل : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ فلا يليق بعاقل أن يتابع من كل همّة أن يصرفه عن الصراط المستقيم ويسعى في جعله من أصحاب الجحيم . وقوله عز وجل : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ تنبيه للمسلمين إلى عدم الالتفات إلى ما يثيره اليهود أو النصارى من الشبه ، وأن الواجب على المؤمنين أن يرجعوا إلى رسول الله ﷺ وأن يستمسكوا بتعاليم الإسلام فإن ذلك يعصمهم من شبه أعدائهم ، لأن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ هي الدواء الشافي من كل شبهة ، والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ومن استنار بكتاب الله ، ورجع إلى رسول الله ﷺ في حياته ﷺ وإلى سنته بعد مماته فقد استضاء بنورين لن يضل من اهتدى بهما . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن

يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم ﴿١﴾ أي ومن يَستمسك بكتاب الله ويلتجئ إلى الله عز وجل ليدفع عن قلبه نزغات شياطين الجن والإنس فإنَّ الله عز وجل يهدي قلبه وينير بصيرته ، ويسلك به صراطه المستقيم ، لأنَّ الاعتصام بالله والالتجاء إليه ، والاستجارة به ، وطلب الهداية منه والاعتماد عليه هو العمدة في الهداية ، والعصمة من كل غواية والعُدَّة في مباحة الشبه ، فهو نور السموات والأرض ﴿٢﴾ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴿٣﴾ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ﴿

بعد أن بين الله تبارك وتعالى ضلال الكفار في أنفسهم وسعيهم في ضلال غيرهم فهم ضالون مُضِلُّون، وحذر المؤمنين من الوقوع في فخاخهم بين هنا أن أهل الإيمان هداة مهتدون يأخذون بمجامع الطاعات ومعاهد الخيرات التي يأمرهم الله عز وجل بها ويحملون أنفسهم عليها كما يأمرهم الله عز وجل، ويسعون في نشرها بين الناس حيث يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي خافوا الله وراقبوه باتباع أوامره واجتناب معاصيه وعبدوه كأنكم ترونه فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم، لأنه عز وجل أهل لأن يتقى ويخاف منه، وقوله عز وجل: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي حق تقواه، والإضافة بين حق وتقاته من إضافة الصفة إلى موصوفها إذ الأصل: اتقوا الله التقاة الحق أي الشابة فلا يراكم حيث نهاكم، ولا تخالفوا عن أمره، وهذا نظير قوله تبارك وتعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ وليس هذا من باب التكليف بما لا يطاق بل المراد: اتقوا الله كما يحق أن يتقى بقدر استطاعتكم كما قال عز وجل: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾ وقد بين رسول الله ﷺ حق الله على عباده بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. فقد روى البخاري ومسلم من حديث معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل، فقال: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق

الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقّ العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشّر به الناس؟ قال: «لا تبشّروهم فيتكلّوا». وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي واستمسكوا بشريعة الإسلام وعَضُوا عليها بالنواجذ، والزموها، حتى يأتیکم الموت وأنتم على الإسلام، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أنه لا يخطر على بال عاقل أنّ قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ نهى عن الموت، لأن الموت والحياة بيد الله وحده، فقد قهر الله تبارك وتعالى العباد على الموت فليس لأحد من خلق الله كائناً من كان أن يتحكّم فيه، وإنما المقصود بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمسك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم له، فإنّ المرء يموت غالباً على ما يلتزم به ويحرص عليه كما أنه يُبعث على ما مات عليه، فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعة الإسلام فلا تطيعوه ولا تنقضوا هذه الشريعة في وقت من الأوقات، فقد تأتیکم مناياكم في حال نقضكم للملّة فتموتون على غير الإسلام، وقد سقت هناك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم، فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فترلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من يتنضّل، ومنا من هو في جشّره، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، ونجىء فتنة فيرقّق بعضها

بعضاً، وتنجي الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتنجي الفتنة فيقول المؤمن : هذه ، هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» . الحديث ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ أي وتمسكوا بالسبب الذي جعله الله لكم لتفوزوا برضوانه وبعز الدنيا وسعادة الآخرة وهو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واحرصوا أن تكونوا يداً واحدة مجتمعين ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، قال ابن جرير في تفسيره : وأصل العَصْم المنع ، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ومنه قول الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بني تميم إذا ما أعظمُ الحديثان ناباً
ولذلك قيل للحبل : عصامٌ ، وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته : عصام ، ومنه قول الأعشى :

إلى المرء قيس أطيل السرى وأخذ من كل حيٍّ عَصْم
يعني بالعَصْم الأسباب ، أسباب الذمة والأمان ، يقال منه : اعتصمت بحبل من فلان ، واعتصمتُ حبلاً منه اهـ ولا شك أن العروة الوثقى التي يجب على العاقل أن يستمسك بها حتى يموت هي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما قال عز وجل : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم﴾ وقد نهى الله تبارك وتعالى المسلمين عن التفرق والاختلاف والتنازع في مواضع من كتابه الكريم ووسم التفرق والاختلاف والتنازع بأنه من صفات الكفار ، وأنه من أعظم أسباب الفشل وذهاب الريح ، حيث يقول عز وجل : ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ، إن الله مع الصابرين* ولا تكونوا

كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ﴿١﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ كما حذر رسول الله ﷺ من تفرق المسلمين ، وحض على اجتماع كلمتهم وائتلافهم ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن

يخزنه». وقوله عز وجل : ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وتذكروا ما تفضل الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام الذي ربط بين قلوبكم برباط الحب والإيثار بعد أن كنتم في الجاهلية أعداء يقتل بعضكم بعضا عصبية في طاعة الشيطان والهوى وحيث كنتم تتذابحون ويأكل شديدكم ضعيفكم وآثام حروبكم مأثورة مشهورة كانت تأكل منكم الحرث والنسل، وتتلغ البلاد والعباد، وكنتم على طرف حفرة من جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يتفضل الله عليكم بالإسلام ولم يكن بينكم وبين النار إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم - وشفا الحفرة : حرفها وطرفها - فاستمسكوا بالإسلام الذي خلّصكم الله عز وجل به من الهاوية . وقوله عز وجل : ﴿كذلك يبين الله لكم آيته لعلكم تهتدون﴾ أي مثل البيان المذكور يبين الله لكم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أسباب سعادتكم ويحذركم من أسباب شقوتكم لكي تهتدوا فتجتنبوا طريق الشر وتسلخوا سبيل الرشاد . ولا شك أن ما حصل للأوس والخزرج من الألفة بالإسلام كان آية من آيات الله وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول : ﴿وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عبّاد ابن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلّما قال شيئا قالوا : الله ورسوله آمن، قال : «ما يمنعكم أن تحيوا رسول الله ﷺ» قال : كلّما قال شيئا قالوا : الله ورسوله آمن، قال :

«لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكُم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروف وينهونَ عن المنكرِ ، وأولئك هم المفلحون﴾ * ولا تكونوا كالَّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ ، وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ . ﴿

قال الفخر الرازي رحمه الله : اعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين (أحدهما) أنه عابهم على الكفر، فقال : ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال : ﴿يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله﴾ فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً بالتقوى والإيمان، فقال : ﴿اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴿ثم أمرهم بالسّعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة ، فقال : ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير﴾ وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل اهـ وقوله عز وجل : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي ولتوجد منكم جماعةٌ قائمةٌ رائدةٌ داعيةٌ إلى الخير وآمرةٌ بالمعروف وناهيةٌ عن المنكر . (من) في قوله عز وجل : ﴿ولتكن منكم﴾ يحتمل أن تكون تبعيضية ، وذلك لأن هذه المهمة الشريفة الجليلة لا يقدر على القيام بها إلا أهل العلم والمعرفة والنفوس العالية ، وليس كلّ الناس قادرين على ذلك بدليل قوله تبارك وتعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافةً ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ويحتمل أن تكون (من) لبيان الجنس أي كونوا أمةً داعيةً إلى الخير وآمرةً بالمعروف وناهيةً عن المنكر، وعلى كل حال فإنّ توجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها متحمّمة على الجميع إلا أنه إذا قام بها البعض سقطت عن الباقيين ، ولو أخلّ بها الكل

أثموا جميعا كسائر فروض الكفاية ، ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ يشعر بحتمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد المكلفين من الأمة بحسب معارفهم وقدراتهم على تغيير المنكر والأمر بالمعروف وإدراكهم لجدوى ما يقدمون عليه ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . هذا ولا بد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون علما بما يأمر به أو ينهى عنه ومرتبته من الدين ، حتى لا يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف ، أو يغلظ في مقام اللين أو ينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التهادي والإصرار ، أو ينكر على رجل رفيع القدر أمام قومه مما يعتبر فضيحة لا نصيحة ، والمراد بالخير في قوله عز وجل : ﴿ يدعون إلى الخير ﴾ هو الإسلام وشرائعه التي شرعها الله عز وجل لعباده ، وجميع ما يجلب للناس المنافع ، ويدفع عنهم الأذى والضرر في معاشهم ومعادهم ، وسائر أبواب الخير التي تُدخل على الناس المسرة ، وتحميهم من المضرة ، كإفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام ، وإقامة المساجد والمدارس والمستشفيات ونشر العلوم النافعة ، كما قال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ وقد رسم الإسلام للدعاة إلى الخير الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر أحسن المناهج وأجمل الوسائل حيث يقول عز وجل : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقال عز وجل : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ وقد وضع القرآن الكريم في هاتين الآيتين الكريمتين للدعاة إلى الله قاعدة تحتها ثلاثة أبواب ، فالقاعدة

أن يكون الداعي إلى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على بصيرة، وهي أن يعرف الداعي الطريق الذي يدعو به إلى الله عز وجل، والبصيرة تقتضي أن يكون الداعي على هدى ونور وبينية ووضوح ومعرفة بقواعد الإسلام وشرائع الدين وأن يعرف أن ما ينكره هو منكر حذرت منه شريعة الإسلام، وأن ما يأمر به هو معروف حضت عليه أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ. وتقتضي البصيرة في الداعية أيضا أن يعرف درجات المنكر ويعرف صفات السيئات وكبائر الذنوب حتى يكون أسلوبه في تغيير كل منكر بحسب درجة هذا المنكر، فليس النهي عن كشف الرجل فخذه يعادل النهي عن كشف الرجل إحدى سوائيه، وليس النهي عن شيء مكروه كراهة تنزيه كالنهي عن الشيء المكروه كراهة تحريم أو المحرم، أما الأبواب الثلاثة التي تقع تحت هذه القاعدة التي رسمها الله عز وجل في كتابه الكريم للدعاة، فالباب الأول أن تكون الدعوة بالحكمة والباب الثاني أن تكون بالموعظة الحسنة والباب الثالث أن يكون الجدل في موطن الجدل بالتي هي أحسن، وهذه القاعدة وأبوابها الثلاثة هي التي سلكها جميع الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله عز وجل وهي تقتضي أن يكون الداعي كالطبيب الحاذق الماهر، الذي يعطي المريض الدواء بقدر حاجته، وفي الوقت المناسب له، وقد أشاد الله تبارك وتعالى بدعاة الخير الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعل ذلك من أبرز سمات الإيمان حيث يقول عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وقال عز وجل: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ

عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين». وقوله عز وجل هنا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي وهؤلاء الداعون إلى الخير والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم الفائزون الناجحون الناجون في الدنيا والآخرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ينجيهم الله عز وجل إذا أنزل بأسه بأهل المنكر الذين نصحهم هؤلاء فلم ينتصحو وزجروهم فلم ينزجروا، حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمَ نَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون». وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جرأة على الله، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني: وهؤلاء الذين تفرقوا واختلَفوا من أهل الكتاب من بعدما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾ يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يحذر أشد التحذير من التفرق والاختلاف وأنه سبب هلاك الأمم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوما، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم

باختلافهم في الكتاب». وقد سقت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤلهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤلهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». كما روى البخاري من طريق النّزال بن سبرة عن عبد الله أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلافا فآخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فقال: «كلاهما محسن، فاقرا» أكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم». وفي لفظ للبخاري من طريق النّزال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلا قرأ آية وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافا فجئت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلاهما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه ومعاذًا إلى اليمن فقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا». كما روى مسلم من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» الحديث، وفي هذه الوصايا الإلهية والتحذيرات النبوية ما ينبّه المسلمين إلى أن سعادتهم في وحدتهم، وأن

الشرّ كلّ الشرّ في تنازعهم واختلافهم ، وأن من سعى إلى تفريق المسلمين
يدخل مع اليهود والنصارى في الوعيد الذي ذُيّلت به هذه الآية الكريمة في
قوله عز وجلّ : ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ * .

بعد أن حذّر الله المؤمنين من مشابهة اليهود والنصارى في تفرقهم واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات ونهاهم عن الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء المغضوب عليهم والضالون أكد هذا التحذير بالترهيب من عاقبة التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، والترغيب في التمسك بأهداب دين الإسلام بإشعارهم بأن المتفرقين المختلفين تسودّ وجوههم يوم القيامة وأن المستمسكين بالإسلام المتبعدين عن التفرق والاختلاف تبيّض وجوههم يوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة في توحد الملة وتعدد الشرائع: فصل: قال الله تعالى لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعاً ولا نتفرّق، ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر أنه تبيّض وجوه وتسودّ وجوه، قال ابن عباس: تبيّض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة. وذكر أنه يقال لهم: ﴿أكفرتُم بعد إيمانكم؟﴾ وهذا عائد إلى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فأمر

بملازمة الإسلام، ويبيّن أنّ المسوّدّة وجوههم أهل التفرّق والاختلاف، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم، وقد تأوّلها الصحابة في الخوارج، وهذا نظير قوله للرسول: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ وقد قال في البقرة: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية، وقال أيضا: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء﴾ وقال تعالى: ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبْرا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكوننّ من المشركين﴾. ﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ الآية. ونظيرها في الجاثية اهـ. وقوله عز وجل: ﴿يوم تبيّض وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم تشرق وجوه أهل الإيمان المتبعدين عن التفرّق والاختلاف وتَسوّد وتكلّح وجوه أهل الكفر والتفرّق والاختلاف. كما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة* ووجوه يومئذ باسرة* تظن أن يُفعلَ بها فاقرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ مسفرة* ضاحكة مستبشرة* ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقها قتره* أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوّدّة، أليس في جهنّم مثوى للمتكبرين﴾. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم كأشدّ كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين، يُرى

مَخَّ سَوْقَهُنَّ مِنْ وَرَاءِ الْعِظَمِ وَاللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ ، يَسْتَبَحُونَ اللَّهَ بِكَرَّةٍ وَعَشِيًّا ، لَا يَسْقَمُونَ ، وَلَا يَبُولُونَ ، وَلَا يَتَغَوِّطُونَ ، وَلَا يَتَفَلُّونَ ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ ، أَنْتَيْتَهُمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَأَمْشَاطَهُمُ الذَّهَبَ ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَنُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، سَتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ . كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ صَهِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : تَرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تَبَيِّضْ وَجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيُرفَعُ الْحِجَابُ ، فَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ » ثُمَّ تَلَا : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ . وَجَعَلَ بَيَاضُ الْوُجُوهِ أَمَارَةً سَعَادَةٍ أَصْحَابِهَا ، وَسَوَادُ الْوُجُوهِ أَمَارَةٌ شَقَاوَةٍ أَهْلِهَا إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، أَمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ أَلْوَانَ النَّاسِ آيَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ جَعَلَ اخْتِلَافَ أَلْوَانِهِمْ آيَةً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْعُلَمَاءُ عَلَى أَلَوْهِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعَالِيَةِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْوَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ فَلَا فَضْلَ لَأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ وَلَا لَأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ أَوْ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ آيًا إِيضًا حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ أَبِي هَلَالٍ عَنْ بَكْرِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ : « انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ » . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِيمَانِهِمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ

هم فيها خالدون ﴿١﴾ . اعلم أن من الأساليب البلاغية اللف والنشر وهو على قسمين : لف ونشر مرتب ، ولف ونشر مشوش ، فاللف والنشر المرتب أن يذكر شيئين على سبيل الإجمال ثم يذكر بعدهما وصفين يعود الأول منهما إلى الأول ، ويعود الثاني إلى الثاني ، وهو كثير جدا في كتاب الله كقوله تعالى : ﴿٢﴾ وفاكهة وأبا ﴿٣﴾ متاعا لكم ولأنعامكم ﴿٤﴾ فقد ذكر الفاكهة والأب وهو المرعى ثم قال : ﴿٥﴾ متاعا لكم ﴿٦﴾ وهو يعود على الفاكهة . ثم قال : ﴿٧﴾ ولأنعامكم ﴿٨﴾ وهو يعود على الأب . وكذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿٩﴾ فمنهم شقي وسعيد ﴿١٠﴾ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ﴿١١﴾ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ﴿١٢﴾ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴿١٣﴾ ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿١٤﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴿١٥﴾ فقوله : ﴿١٦﴾ لتسكنوا فيه ﴿١٧﴾ راجع إلى الليل وقوله : ﴿١٨﴾ ولتبتغوا من فضله ﴿١٩﴾ راجع للنهار . أما إذا رجع الوصف الأول للثاني ورجع الوصف الثاني للأول كالذي في هذا المقام فإنه يسمى اللف والنشر المشوش ، فقد قال : ﴿٢٠﴾ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴿٢١﴾ ثم فصل ما يتصل بالثاني فقال : ﴿٢٢﴾ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴿٢٣﴾ ثم فصل ما يتصل بالأول فقال : ﴿٢٤﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴿٢٥﴾ فقد ذكر الشيئين ثم فصلهما بوصفين يعود الأول من الوصفين على الثاني ويعود الثاني على الأول ، والأصل هو اللف والنشر المرتب ، فإذا جاء به على سبيل اللف والنشر المشوش فإنه يكون لنكتة بلاغية تلفت انتباه البلغاء إلى لون من ألوان إعجاز القرآن ، ففي هذا المقام تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليهما إجمالا ، وقدم في الإجمال ذكر حال السعداء لتعجيل مسرتهم ، ثم قدم في

التفصيل ذكر حال الأشقياء لتعجيل مساءتهم ولما أنَّ المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل ، والإفضاء إلى ختم الكلام ببيان حسن حال المؤمنين كما بُدِئَ بذلك عند الإجمال ، ففي الآية حسن ابتداء وحسن اختتام وهي صور بلاغية يعرفها علماء البديع ، وقوله عز وجل : ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي يقال لهم : أكفرتُم بعد إيمانكم ، والمراد بالكفر بعد الإيمان في هذا المقام هو ما أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ وهو يشمل كذلك من ارتد عن دين الإسلام بعد الدخول فيه ، ليكون تحذيرا للمسلمين من محاولات أهل الكتاب تضليل أهل الإيمان ، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أنه جل ثناؤه عنى بذلك جميع الكفار وأن الإيمان الذي يُؤَبَّخُونَ على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذي أقروا به يوم قيل لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ثم قال رحمه الله : وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين : أحدهما سودا وجوهه والآخر بيضا وجوهه ، فمعلومٌ - إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان - أن جميع الكفار داخلون في فريق من سُود وجهه ، وأن جميع المؤمنين داخلون في فريق من بِيض وجهه ، فلا وجه إذا لقول قائل : عنى بقوله : ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ بعض الكفار دون بعض ، وقد عمَّ الله جل ثناؤه الخبر عنهم جميعهم ، وإذا دخل جميعهم في ذلك ثم لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعدُ إلا حالة واحدة كان معلوما أنها المرادة بذلك ، فتأويل الآية إذا : أولئك لهم عذابٌ عظيم في يوم تبيض وجوه قوم وتسود وجوه آخرين ، فأما الذين اسودَّت وجوههم فيقال : أجحدتم توحيد الله وعهده وميثاقه الذي واثقتموه عليه ، بأن لا تشركوا به شيئا وتخلصوا له العبادة ، بعد إيمانكم - أي بعد تصديقكم به - ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ يقول :

بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ ممن ثبت على عهد الله وميثاقه ، فلم يبدل دينه ، ولم ينقلب على عقبيه بعد الإقرار بالتوحيد ، والشهادة لربه بالألوهة ، وأنه لا إله غيره ﴿ففي رحمة الله﴾ يقول : فهم في رحمة الله يعني : في جنته ، ونعيمها ، وما أعدّ الله لأهلها فيها ﴿هم فيها خالدون﴾ أي باقون فيها أبداً بغير نهاية ولا غاية اهـ وقوله عز وجل : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي هذه حجج الله وبياناته الموضحة لأحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة ، نقضها عليك يا محمد لا يعتريها وهم ولا خطأ ، فمن عاقبه بتسويد وجهه وتخليده في جهنم ، ومن أكرمه بتبييض وجهه وإدخاله في جنات النعيم ، فبغير ظلم منه لأن من عذّبه فبعده ومن أكرمه فبفضله ، ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ بل من كفر بالله هو الظالم لنفسه وقد قطع الله حجّته حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام البراهين على أنه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقوله عز وجل : ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وجميع الخلائق ملك لله وعبيد له وهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة وهو على صراط مستقيم .

قال تعالى : ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ * لن يضرّوكم إلّا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذّلة أين ما ثقفوا إلّا بحبل من الله وحبل من النَّاسِ وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أُمّةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناءَ اللَّيْلِ وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴾ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين ﴿

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا دعاةً إلى الخير وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر وبشرهم بالفلاح ، وحذّره من سلوك طريق الضالين المضلين من أهل الكتاب المتفرقين المختلفين ، ذكر هنا بشارة عظيمة للمؤمنين حيث أخبرهم بأنه جعلهم خير أمة ظهرت على الأرض ، وأنه فضّلهم على سائر الأمم وأن أهم سيّاهم هي أنهم يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، حيث قال عز وجل هنا : ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ومجيء هذه البشارة في هذا المقام بعد قوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يفيد أن المسلمين سارعوا إلى الاستجابة لأمر الله عز وجل فكانوا أمة يدعون إلى الخير ويأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وقد حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات حيث جعل الله عز وجل نبيّها أشرف خلق الله ، وسيد ولد آدم ،

وإمام المرسلين، وأعطاه الخوض المورود، والمقام المحمود وهو أول من تفتح له الجنة، وبعثه بأكمل شريعة وأتم دين، وبعثه إلى الناس كافةً، ونسخ بشره جميع الشرائع، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان وقُطِر وعصر إلى يوم القيامة، وبارك له ولأمته، ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها وصان الكتاب الذي أنزله عليه من التحريف والتبديل، وجعل لأمته مواسم خير يضاعف لهم فيها الحسنات، وجعل لهم ليلة هي خير من ألف شهر، وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين، وجعلهم أنفع بني آدم لبني آدم وقال عز وجل فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ولم يعرف في التاريخ أمةً جلبت الخير للناس كأمة محمد ﷺ ولذلك قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام». كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ﷺ ومعه الرُّهَيْطُ والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحدٌ، إذ رُفِع لي سوادٌ عظيمٌ فظننت أنهم أمتي، ف قيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، ف قيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، ف قيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهَضَ فدخل منزله، فخاصَّ الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وقال بعضهم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، ولم يُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما الذين تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا

يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عُكَّاشَةُ بْنُ مَحْصَنِ فَقَالَ: اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ هَذَا تَنْذِيذٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَى الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَأْنِيثٌ لِمَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْهُمْ لَوْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ لَحَصَلَتْ لَهُمُ الْخَيْرِيَّةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ بَلْ يَجْعَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ أَجْرَيْنِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَذَى حَقَّ اللَّهُ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ أَمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ». وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيُّ قَلِيلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يِقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَاصِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْكُفْرَةَ الْفَجْرَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَعْدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَأْيِيدِهِمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ وَبِخَاصَّةٍ عَلَى إِخْوَانِ الْقُرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، فَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُمْ وَأَرْغَمَ أَنْوْفَهُمْ، وَمَعْنَى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أَيُّ لَنْ يَتِمَّكَنَ الْيَهُودُ مِنَ الْغَلْبَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلْحَاقِ الضَّرْرِ بِكُمْ إِلَّا شَيْئًا سِيرًا يَتَنَبَّهُ بِهِ الْغَافِلُ فَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الْيَهُودُ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى دِينِكُمْ فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يِقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارَ﴾ أَيُّ وَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فِي مَيِّدَانِ الْحَرْبِ

فَرُّوا مِنْكُمْ مِنْهُمْ مِنْهُمْ ، فَتَوَلَّيَ الْأَدْبَارَ كَنَافَةً عَنِ الْإِنْهَامِ ، لِأَنَّ الْمَنْهَرِمَ يُحَوِّلُ ظَهْرَهُ إِلَى جِهَةٍ مُقَابِلَةٍ هَرَبًا مِنْهُ إِلَى جِهَةٍ يَنْجُو فِيهَا بِنَفْسِهِ ، وَطَالِبُهُ فِي أَثَرِهِ ، فَيَكُونُ دُبُرُهُ فِي وَجْهِ طَالِبِهِ ، وَالْيَهُودُ هُمْ أَجْبَنُ خَلْقِ اللَّهِ قَاطِبَةً كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ وَفِي إِخْوَانِهِمُ الْمُنَافِقِينَ : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تُحَسِّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَنْصُورِينَ عَلَيْكُمْ مَطْلَقًا ، سِوَاءٍ قَاتَلُوكُمْ أَوْ لَمْ يَقَاتِلُوكُمْ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَعْطِفْهُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ وَلَوْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ لَحُذِفَتِ النُّونُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿لَا يَنْصَرُونَ﴾ كَمَا حُذِفَتْ مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمُ﴾ فَإِنَّ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَا يَكُونُوا﴾ مَعْطُوفٌ بِـ(ثُمَّ) عَلَى قَوْلِهِ : ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ الْمَجْزُومُ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ ، وَأَصْلُهُ : (يَكُونُونَ) فَحُذِفَتِ النُّونُ لِلْجَزْمِ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَعْجَزَةٌ ظَاهِرَةٌ حَيْثُ تَحَقَّقَتِ الْوَعْدُودُ الَّتِي أَفَادَتَهَا ، وَأَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : هَكَذَا وَقَعَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْبَرَ أَذْهَمَ اللَّهُ وَأَرْغَمَ أَنْوْفَهُمْ وَكَذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَرِيطَةَ ، كُلَّهُمْ أَذْهَمَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ ، كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ ، وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ ، أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ ، وَلَا تَزَالُ عَصَابَةُ الْإِسْلَامِ قَائِمَةٌ بِالشَّامِ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ كَذَلِكَ وَيَحْكُمُ بِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَشَرَعَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ ، وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَهْدَ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ضَرْبِ الذَّلَّةِ

والمسكنة عليهم ومعنى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ومعنى : ﴿أَيْنَ مَا تُقْفُوا﴾ أي حيثما وُجِدُوا فإن الذِّلَّةُ تلاحقهم وتصيبهم ، وقوله عز وجل : ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من يُسلِّط اليهود عليهم لتقصير هؤلاء المنتسبين للإسلام في حق الله وتفريطهم في جنبه وعدم إقامتهم شريعة الله ، فإن اليهود الرعايد الجبناء لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم ، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلَّط عليه من لا يعرفه ، كما أنهم قد يُمدِّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبًّا في اليهودية ، وإنما لحرب الإسلام ، ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ قد تقدَّم بيان معاني مفرداته وجمله عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس كل أهل الكتاب على حدِّ سواء ، بل منهم من شرح الله صدره للإسلام كعبد الله بن سَلَام رضي الله عنه وقد كان حبرهم وابن حبرهم ، فلما رأى رسول الله ﷺ أن وجهه ليس بوجه كذاب فسارع إلى الدخول في الإسلام ، فهو من أهل الكتاب باعتبار ما كان ثم صار من أهل الإسلام وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وكذلك ثعلبة بن سَعْيَةَ وأسيْدُ بن سَعْيَةَ وأسد بن عُيَيْدٍ ومن أسلم معهم من اليهود ، وهؤلاء ممن آمن من أهل الكتاب قد صاروا بعد الإسلام أئمة مسلمين ، من خيرة أصحاب رسول الله

ﷺ، وقد قال الله عز وجل في بعض مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ
والتنديد بالمشركين من العرب: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ وهم المؤمنون المشار إليهم قريبًا في قوله عز وجل: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقد أثنى الله عز وجل عليهم ووصف اجتهادهم في
طاعة الله وتلاوة القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ
قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من
الصالحين* وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَرُوهُ، والله عليم بالمتقين* ومعنى
قوله عز وجل: ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي لن يضيع أجرهم عند الله بل سيجزيهم
به أحسن الجزاء، وكان مقتضى السياق أن يقال: والله عليم بهم، لكنَّ
الحال يقتضي وضع الظاهر وهو قوله: ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ موضع الضمير لتسجيل
صفة التقوى لهم، وبشارتهم بها.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدُّنيا كمثِّل رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . ﴿

بعد أن أثنى الله عز وجل على الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب الذين استجابوا لله ولرسوله وسارعوا إلى الدخول في دين الإسلام ، حذّر عموم الكفار من سوء عاقبتهم إذا استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم حذّر المؤمنين من موالاتهم وحبّتهم ، وبيّن للمؤمنين أنّ الكفار يتربصون الدوائر بهم ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ * قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : وهذا وعيد من الله عز وجل للأمة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون ، وأنهم قد باءوا بغضب منه ، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد ﷺ من عند الله ، يقول تعالى ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ ، وكذبوا به ، وبما جاءهم به من عند الله ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ يعني : لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا ، وأولاده الذين ربّاهم

فيها، شيئاً من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجلها لهم فيها، وإنما خصّ أولاده وأمواله لأنّ أولاد الرجل أقرب أنسابه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمره فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسابه وأموالهم أبعد من أن تغني عنه من الله شيئاً، ثم أخبر جل ثناؤه أنّهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وإنما جعلهم أصحابها لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه وقرينه الذي لا يزائله، ثم وكّد ذلك بإخباره عنهم أنّهم ﴿فيها خالدون﴾ أنّ صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها، إذ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النَّارَ التي أضلّوها، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع، نعوذ بالله منها ومما قرب منها من قول أو عمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ بعد أن بشر المؤمنين بأن كل ما يفعلونه من الخير لن يضيع عند الله عز وجل الذي أعدّ لهم به أحسن المثوبة وأعظم الأجر في جنات النعيم حيث يقول: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يَكْفُرُوهُ﴾ بين هنا أن الكفار لو أنفقوا أموالهم في أبواب الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وبناء الرباطات والإنفاق على الأراامل والمساكين والأيتام فإنّ الله عز وجل لا يتقبلها منهم، ولا يشيهم عليها بل يجعلها كالهباء المنشور لأنّ الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتقين، وكما قال عز وجل: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وقال عز وجل:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ وذلك أن الكفر كالنار المحرقة التي تأكل الأخضر واليابس وقد شبه الله عز وجل ضياع نفقات الكفار سُدىً وعدم انتفاعهم بما يبذلونه في أبواب الخير بمن زرع زرعاً وأنفق عليه الأموال، وتعب في استنباته وشاركه أصحابه في بذل الجهد فيه فلما دنا وقت الحصاد سلّط الله عز وجل ريحاً شديدة البرد مصحوبة بنار كالإعصار المصحب بالنار فأحرقت هذا الزرع في لحظات مع ما اشتملت عليه من صوت مزعج مخيف، فذهب ما يأمله وبقي له حزنه ورعبه، وإذا كان هذا فيما أنفقوه من الأموال في وجوه الخيرات فما بالك بما أنفقوه في إيذاء رسول الله ﷺ وفي الصد عن سبيل الله وفي تقتيل المسلمين أو تخريب ديارهم فإن الأمر في ذلك أعظم والخطب أطم. والصّر هو البرد الشديد تحمله الريح، وقد يصحب بنار محرقة، وصوت مزعج، كما قال عز وجل: ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾. وقوله عز وجل: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بيان للسبب الذي أحبط أعمالهم، وضيّع نفقاتهم وهو ظلمهم لأنفسهم حيث كفروا بالله عز وجل وعصوه وتعدّوا حدوده فوضعوا الكفر موضع الشكر، ولذلك قال عز وجل: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم، من إحباطه ثواب أعمالهم، وإبطاله أجورها ظلماً منه لهم — يعني: وضْعاً منه لما فعل بهم من ذلك في غير موضعه، وعند غير أهله، بل وضع فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ما هم أهله، لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون، ولأمره متبعون، ولرسله مصدّقون، بل كان ذلك منهم وهم به مشركون، ولأمره مخالفون، ولرسله مكذّبون، بعد تقدّم منه إليهم أنه لا يقبل عملاً من عاملٍ إلا مع إخلاص التوحيد له، والإقرار بنبوة أنبيائه،

وتصديق ما جاء وهم به ، وتوكيده الحجج بذلك عليهم ، فلم يكن — بفعله ما فعل بمن كفر به ، وخالف أمره في ذلك بعد الإعذار إليه ، من إحباط وفِر عمله — له ظالما ، بل الكافر هو الظالم لنفسه ، لإكسابها من معصية الله وخلاف أمره ، ما أوردها به نار جهنم ، وأصلاها به سكير سقرا وقوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ ﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله لا تجعلوا لأنفسكم أصدقاء وأخلاء وأصفياء ومستشارين من الكفار ، تطلعونهم على أسراركم ، لأنهم منطوون على غشكم وخيانتكم لا يقصرون في إلحاق الشر بكم وهم يبذلون كلّ ما يطيقون في إضعافكم وإضراركم وإفساد ذات بينكم ويتمنّون القضاء عليكم وعلى دينكم ، وإلحاق العنت والمشقة بكم وبطانة الرجل هم خاصّة أهله الذين يطلعون على أسرارهم ويعرفون مدخله ومخرجه لشدة قريتهم منه ، ومنه بطانة الثوب وهي ما يلي البطن منه بخلاف الظّهارة ، والبطانة السريرة أيضا ، ومعنى : ﴿ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أي من غير ملّتكم ، ومعنى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي لا يُقَصِّرُونَ في خبالكم ، والخبال الفساد ، كما قال عز وجل في المنافقين : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ وأصل الخبال ما يلحق الجسم من مرض وفطور فيورثه فسادا واضطرابا وخروجًا عن حد الاعتدال ، ومعنى : ﴿ وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ ﴾ أي تمنوا عنتكم أي إلحاق أشد الضرر والمشقة بكم ، وقوله عز وجل : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَحْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي قد لاح لكم أيها المسلمون على صفحات وجوههم وما تسمعونه من فلتات ألسنتهم ومن حرصهم على بقائهم على دينهم ، على أن ما تحفيه صدورهم من العداوة لكم أكبر مما بدا من أفواههم ، فلا تتخذوا منهم بطانة ولا توالوهم . والعداوة على الدين هي العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعادين إلى دين الآخر

كما قال الشاعر:

كلّ العداوة قد تُرَجَى إزالتها إلا عداوة من عاداك في الدين
وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله» قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبوأيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس، عن أبي حيان التيمي عن أبي الزنباع عن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً؟ فقال: قد اتخذت إذاً بطانةً من دون المؤمنين اهـ ولا شك أن اتخاذ كاتب أو مستشار للمسلمين من الكفار أخطر ممن يجعل الذئب راعياً للغنم. وقوله عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي قد أوضحنا لكم أيها المؤمنون منهج سعادتكم، وسلامتكم من كيد أعدائكم وما انطوت عليه قلوبهم من بغضكم وبغض دينكم، فلا تتخذوا منهم بطانة، ولا تطلعوهم على أسراركم، ومخططات أمن دولتكم، وتحركات جيوشكم، وتوجهاتكم، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو للحض على استعمال العقل في تأمل هذه الآيات، وتدبر تلك البيّنات، لأن من يتخذ بطانة من عدوه يكون كمن يُلقم الأفعى يده، ولا يفعل ذلك عاقل. وقوله عز وجل: ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ هذا تحذير آخر وتنفير من أن يتخذ المسلم بطانةً من الكافرين بسبب قرابة من رضاع أو مصاهرة أو غير ذلك، لأنه لا يليق بالمؤمن أن يكون الكافر أشد صلابة في دينه الباطل من المؤمن في حقه، فكيف يرضى المؤمن أن يحب كافراً لأجل

قراءة أو نحوها في الوقت الذي يبغضه فيه هذا الكافر تعصبا لدينه الباطل ،
وهل يليق بمؤمن يصدق كل الكتب السماوية أن يوالي من يكفر بالقرآن
العظيم؟ وهل يليق بمؤمن أن يخالل من إذا جلس مع المؤمنين ادّعى أنه
مؤمن فإذا انصرف من عند المؤمنين تمنى أن يمزق أجساد المسلمين وأخذ
يعض بأسنانه أطراف أصابعه من شدة الغيظ والحنق على الإسلام وأهله؟
وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغِيظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي أخبر
يا محمد هؤلاء الحاقدين على الإسلام وأهله بأن الله معزّ دينه فليزدد غيظكم
حتى تهلكوا لأنكم لن تروا ما يسركم ، وعند الله عز وجل علم خفايا
صدوركم وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
مَحِيطٌ ﴾ بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين كأنه قيل لهم : كيف تتخذون
بطانة ممن إذا نزل بكم خيرٌ امتلأت قلوبهم غمًا وهماً وغيظًا ، وإن أصابكم
بلاء طاروا فرحا ، وإن تصبروا وتطيعوا أوامر الله وتجتنبوا نواهيه يحفظكم من
شرهم ، إن الله لا يخفى عليه شيء من كيدهم ومكرهم ، ويمكرون ويمكر
الله والله خير الماكرين .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ * بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . ﴿

بعد أن بيّن الله عز وجل للمؤمنين أنهم إن يصبروا ويتقوا يدفع الله عز وجل عنهم كيد أعدائهم وينصر المسلمين على الكفرة ، أشار عز وجل هنا إلى معركتين شهيرتين عند العرب والعجم ، وهما معركة أحد ومعركة بدر ، حيث خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ يوم أحد ولم يصبروا فانهزموا ، وأنهم لما ثبتوا وصبروا واتقوا في يوم بدر مع أنهم كانوا قليلين في عددهم وعددهم انتصروا . وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أشار الله عز وجل بهاتين الآيتين إلى معركة أحد ، وقد كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية ، وكانت قريش تريد الثأر لقتلها يوم بدر ، وأجمعت على حرب رسول الله ﷺ ، فجمعت جموعها ، وخرجت بحدها وحديدها وأحاييشها ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وأخرجوا معهم نساءهم ، ومغنياتهم ، حتى لا يفروا ، وخرج أبو سفيان على رأس المشركين ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة

لتؤلب على المسلمين، وتحصّ على حربهم لتثار لمقتل أبيها وأخيها وعمّها يوم بدر، فأقبلوا حتى نزلوا بَعَيْنَيْن، وهو جبل ببطن السَّبِيخة من قنّاة، على شفير الوادي مقابل المدينة، قرب جبل أحد، يفصل الوادي بينه وبين جبل أحد، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، واستقرّ رأيهم على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدوّ الله رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول رجع بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلَمي والد جابر رضي الله عنهما أن يحملهم على متابعة رسول الله ﷺ وقال لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، فقال عبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لا تبغناكم، وقد كادت طائفتان من المؤمنين أن تتأثرا بكلام عدوّ الله عبد الله بن أبيّ وتفشلا وهما من بني حارثة وبني سَلِمة لكن الله تعالى عصم هاتين الطائفتين، وثبتهما على الحق، وبنو سلمة غربي سلع مباشرة وبنو حارثة شمال شرقي سلع وبينهم الخندق كما روى البخاري في صحيحه الحديث رقم (١٨٢٢) نا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني أخي سليمان عن عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (حرم ما بين لابتي المدينة علي لساني) قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة وقال: (أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم) ثم التفت فقال: (بل أنتم فيه). وقد استمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشَّعب من أحد، في عُذوة الوادي، وجعل ظهره وظهر عسكره إلى أحد، وأخذ ﷺ ببؤي المؤمنين مقاعد للقتال، ويسوي صفوفهم، وأجلس جيشاً من الرّماة فوق جُبَيْل على مقربة من عسكر رسول الله ﷺ بالجنوب الشرقي من أرض المعركة لينضّحوا عن المسلمين بالنَّبل، وكانوا خمسين رامياً، وليحموا ظهر المسلمين إذا أقبلوا على قتال المشركين الذين كانوا إلى الجهة الغربية من مكان المسلمين وأمر على الرّماة عبد الله بن

جُبَيْر أَخَا بَنِي عَمْرٍو ابْنَ عَوْفٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلرَّمَّةِ وَأَمِيرِهِمْ: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تَعِينُونَا» حَتَّى قَالَ لَهُمْ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا نَحْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ» فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَحْصِدُونَ الْمُشْرِكِينَ حَصْدًا، فَهَرَبَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى لَحِقَ بَعْضُهُمْ بِالطَّائِفِ، وَهَرَبَتْ نِسَاؤُهُمْ إِلَى الْجَبَلِ يَشْتَدِدْنَ فِيهِ، وَرَفَعْنَ عَن سَوْقِهِنَّ، حَتَّى بَدَتْ خَلَائِلُهُنَّ، فَلَمَّا رَأَى الرَّمَّةُ ذَلِكَ نَسُوا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ، وَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ، الْغَنِيمَةُ. فَنَهَاهُمْ أَمِيرُهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّزُولِ وَأَمَرَهُمْ بِالثَّبَاتِ فِي مَكَانِهِمْ تَنْفِيزًا لَوْصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَكُنْهُمْ فِي غَمْرَةٍ فَرَحْتَهُمْ بِهَذَا النَّصْرِ ائْتَدَعُوا إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ، فَفُطِنَ لَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَكَانَ عَلَى خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي مِائَةِ فَارَسٍ، فَاسْتَدَارَ بِخَيْلِهِ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَمِيرَ الرَّمَّةِ لَمْ يَبْرَحْ مَكَانَهُ حَتَّى اسْتَشْهَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخَذَتْ فَرَسَانِ الْمُشْرِكِينَ تَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخَذَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُضْعِدُونَ وَلَا يَلُؤُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَابِتٌ يَنَادِيهِمْ فِي أَخْرَاحِهِمْ: «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَةُ اللَّهِ»، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، وَقَدْ صَرَخَ إِبْلِيسُ بِالْمُشْرِكِينَ الْمُنْهَزِمِينَ: أَيُّ عِبَادَةِ اللَّهِ أَخْرَاكُمْ، فَارْجِعَتْ أَوْلَاهُمْ، وَالتَحَمُّوا فِي الْمَعْرَكَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ غَمٌّ شَدِيدٌ، حَتَّى صَارَ يُضْرَبُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ أَحَدٍ هَزِيمَةً بَيِّنَةً، تَعْرِفُ فِيهِمْ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أَيُّ عِبَادَةِ اللَّهِ أَخْرَاكُمْ، فَارْجِعَتْ أَوْلَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ فَنَظَرَ حَذِيفَةُ ابْنُ الْيَمَانِ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: أَبِي، أَبِي، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا انْحَزَرُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي حَذِيفَةَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ خَيْرٌ حَتَّى لَقِيَ اللَّهُ. زَادَ فِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ كَانَ انْهَزَمَ مِنْهُمْ قَوْمٌ حَتَّى

لحقوا بالطائف اهـ، وفي تأكيد رسول الله ﷺ على الرماة أن لا يبرحوا مكانهم
 بعدة تأكيدات إشارة إلى إيقان رسول الله ﷺ بخطورة هذا المنزل الذي بوأه
 الرماة، وفيه معجزة من المعجزات حيث كانت بَلَوَى المسلمين من هذا
 المكان، وأن رسول الله ﷺ لا يقدر على رد المقدور، وأن ما شاء الله كان وما
 لم يشأ لم يكن، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث جابر بن
 عبد الله رضي الله عنه قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ الآية:
 قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما يسرني أنها لم تنزل لقوله
 تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾. وفي قوله عز وجل: ﴿عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إشارة إلى
 قرب أرض المعركة من المدينة التي بها أهل رسول الله ﷺ، وأنه لم يحتج في
 الوصول إلى أرض المعركة إلى مشقة سفر طويل كالذي احتاجوه يوم بدر ومع
 ذلك نصرهم الله في بدر، لأنهم صبروا واتقوا، بخلاف يوم أحد حيث خالف
 أكثر الرماة أمر رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون من قِبَلِهِمْ، ولقد عفا الله
 عنهم. وقوله عز وجل: ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي أن تَجَبُّنَا عن القتال وترجعاً إلى
 المدينة مع عدو الله عبد الله بن أبي حين رجع من الطريق، وقوله عز وجل:
 ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي والله عز وجل مثبتهما ودافع عنهما كيد الشيطان فلم
 ينصرفا، وقتلا أعداء الله مع رسول الله ﷺ وفاز بعضهم بالشهادة، وقوله
 عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ أي ويجب على المؤمنين أن تكون
 ثقتهم بالله وحده واعتمادهم عليه دون غيره، فإن النصر بيده وحده لا إله لا
 غيره ولا معبود بحق سواه، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ
 أَذِلَّةٌ﴾ بيان لتأكيد وجوب الاعتماد عليه وحده، وأن النصر إنما ينال بطاعته
 عز وجل وبطاعة رسوله محمد ﷺ، ومعنى: ﴿أَذِلَّةٌ﴾ أي قليلون في عددهم
 وعددهم وليس المراد من ﴿أَذِلَّةٌ﴾ في هذا المقام ضد الأعزة، لأن المسلمين
 أعزة دائماً كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل المراد

هنا قلة السلاح والمال والعَدَد حيث كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾، ومعنى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي فاجعلوا كل همكم تقوى الله عز وجل لكي تفوزوا بتأييده ونصره ويزيدكم من فضله، وتشكروا نعمه. وبدّر موضع بين مكة والمدينة وبينه وبين المدينة حوالى خمسين ومائة «كيلومتر» وقد صارت الآن قرية كبيرة وكانت في الأصل من مياه غِفَار، وكان بها سوق في الجاهلية. وقوله عز وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ بيان للنصر وذكر لشرطه، ف (إِذْ) في قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لقوله: ﴿نُصْرَكُمْ اللَّهُ بِدَرٍّ﴾ وقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بيان لشرط النصر. وقد أكد الله عز وجل أن الصبر والتقوى هما سبب دفع الشرور عن الإنسان وسبب جلب النصر والرفعة والتأييد له، حيث قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ وقال هنا: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وقد قام رسول الله ﷺ يحرّض المؤمنين على القتال ويعدّهم بنصر الله عز وجل لهم ويبشّرهم بأن الله عز وجل مُمِدّهم بالملائكة، حيث وعده الله عز وجل في البشارة الأولى أنه ممّدّه بألف من الملائكة مُرَدِّفِينَ أي يتبعهم غيرهم، ولما اشتدت استغاثة رسول الله ﷺ بربه بشره بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون من

السماء، ثم زاد في طمأنينته بالنصر بأن المشركين لو سارعوا للقاءكم الآن والهجوم عليكم وصبرتم واتفقتم فإن الله يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين أي معلمين للمؤمنين كيفية القضاء على أعدائهم ومثبتين لهم، كما قال عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطميناً لقلوبكم وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لأهلك أعداءكم بدون قتال منكم أو إمداد من الملائكة، لأنه ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة التامة البالغة في أمره وقدره، وقوله عز وجل: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ اللام في قوله عز وجل: ﴿لَيَقْطَعَ﴾ متعلقة بقوله عز وجل: ﴿نَصْرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي نصركم ببدر ليُهلك أئمة الكفر من قريش كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، فهؤلاء طرف من الذين كفروا قطعهم الله وأهلكهم يوم بدر، وقوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يُلحق بهم الذل والإخزاء واللعن والهزيمة والغيط، وقوله: ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أي فيرجع هذا الطرف الكافر إلى أهله خائباً محروماً لم يتحقق له أمل، وترجعون أيها المسلمون بالعز والنصر والتأييد وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

قال تعالى : ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ * والله ما في السموات وما في الأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله غفورٌ رحيمٌ * يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرِّبا أضعافاً مضاعفةً واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴿

بعد أن ضرب الله عز وجل مثلين : أحدهما ما أصاب المسلمين يوم أحد مع حرص رسول الله ﷺ على نصحتهم ، وإنزالهم مقاعد للقتال ، وتشديده على الرماة بأن لا يبرحوا مكانهم مهما كان ومخالفة أكثر الرماة لأمر رسول الله ﷺ وقد كانت هذه المخالفة لأمر رسول الله ﷺ هي السبب المباشر فيما أصاب المسلمين من قرح ، وثاني المثلين ما حصل للمسلمين في بدر من نصر الله وتأنيده لاعتمادهم على الله وصبرهم وتقواهم ، وأسى الله عز وجل حبيبه ورسوله محمداً ﷺ بأن الأمر كله لله الحكيم العليم ، فقال عز وجل لرسوله محمد ﷺ : ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ أي ليست أمور الكون بيدك ، وإذا كانت ليست بيد حبيبه ومصطفاه محمد ﷺ فإنها من باب أولى ليست بيد غيره من خلق الله ، وإنها هي بيد الله وحده ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، وإن تعجب فعجب لأولئك الذين قد ينتسبون للإسلام والتدين ثم يعتقدون أن بعض مشايخهم ينفعون ويضرون ، ويتصرفون في الكون وهم يقرءون قول الله عز وجل لسيد الأولياء والأنبياء والمرسلين محمد ﷺ : ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ﴾ و(أَو) في قوله عز وجل : ﴿أو يتوب عليهم﴾ هي عاطفة لقوله عز وجل : ﴿يتوب﴾ على قوله عز وجل :

﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ كأنه قيل : ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، وقوله عز وجل : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ جملة اعتراضية لتصبير رسول الله ﷺ وتثبيتته للاستسلام لقضاء الله وقدره ، ولتنبيه المؤمنين إلى ذلك ، ولتقرير توحيد الله عز وجل وأن مردّ الأمور إليه وحده ، لتكون نبراسا يهتدي به المسلمون حتى لا يعتقدوا في رسول الله ﷺ ما اعتقدته النصارى في المسيح حيث جعلوه إلهًا من دون الله . وقوله عز وجل : ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي مستحقون لما ينزل بهم من عقوبة الله ، فإن تاب الله عليهم فمن فضله ، وإن عذبهم فبعده ، لمخالفتهم أمر ربهم وأمر رسوله ﷺ ، وقد قال البخاري في صحيحه : باب ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ حدثنا حبان بن موسى أخبرنا عبد الله أخبرنا مَعْمَر عن الزهري قال : حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول : «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعد ما يقول : «سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى قوله : ﴿فإنهم ظالمون﴾ . رواه إسحاق بن راشد عن الزهري ، حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال : إذا قال : «سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، اللهم أشدّ وطأتك على مُضَرٍّ ، واجعلها سنين كَسِني يوسف» يجر بذلك ، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من العرب ، حتى أنزل الله : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا أبو

عقيل - قال أحمد : وهو عبد الله بن عقيل ، صالح الحديث ثقة - حدثنا عمر ابن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم العن فلانًا وفلانًا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَتَيَّبَ عَلَيْهِمْ كُلَّهُمْ . وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية العلاءي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا محمد بن عجلان ، عن نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة ، قال : فأُنزل الله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى آخر الآية . قال : وهما هم الله للإسلام اهـ وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يوم أحد ، وَشُجَّ في رأسه فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ويقول : كيف يفلح قومُ شَجَّوا نَبِيَّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله « فأُنزل الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ هو تأكيد لما أفاده قول الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ كأنه قيل : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ في السموات وفي الأرض لِمَالِكِ السموات والأرض وَمَلِكِهِمَا يتصرف وحده في ملكه بما تقتضيه حكمته ولا يُسأل عما يفعل وهو أرحم الراحمين ورب العالمين . وقال أبو السعود العمادِي في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآيتين : والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، نصرهم عليهم ليهلكهم ، أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ، والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروي المخصوص بأشد الكفرة كفرًا ، وإلا فمطلق التعذيب الأخروي متحقق في الفريقين الأولين أيضا . ثم قال : ونقل

عن الفراء وابن الأنباري أن (أو) بمعنى (إلا أن)، والمعنى : ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به ، أو يعدّ بهم فتتشفى منهم ، وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر، لأن كلا منهما مبني على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ، ومُنْبئ عن سلبه عمن سواه اهـ وقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ مناسبة النهي عن أكل الربا في هذا المقام المسوق في شأن غزوة أحد للإرشاد إلى أن أساس كل فوز ونجاح ونصر وسعادة هو تقوى الله عز وجل ، وحبس النفس عن المحرمات ، وأن أكل الحلال والاقتصار على الطيبات من الرزق هو ملاك قبول الطاعات واستجابة الدعاء والنصر على الأعداء لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، فمن أكل الحرام - وأخْبِثه الربا - كان حريّا بسخط الله وحرمانه من عون الله وتأييده ، كما أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمدّ يديه إلى السماء : يا ربّ، يا ربّ، فأنى يستجاب لذلك وقد أكد الله عز وجل لفت انتباه المؤمنين إلى أثر الأموال في التقرب إلى الله عز وجل واستجلاب رضوانه والفوز بجنان النعيم حيث صدر صفات المتقين بعد ثلاث آيات من نهيه عن الربا هنا بقوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وليس قوله عز وجل : ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ شرطا في تحريم الربا ، فإنّ الربا محرم ، بل هو من أكبر الكبائر حتى ولو لم يصل إلى الضعف

فضلا عن الأضعاف المضاعفة ، لأن المقصود من إيراد هذا الوصف هو التشنيع على ما كان أهل الجاهلية يفعلونه وتوبيخهم على جشعهم وظلمهم وامتصاص أغنيائهم دماء فقرائهم حيث كان الرجل يُزِي إلى أجل ، فإذا حلّ هذا الأجل قال للمَدِين : زدني في المال حتى أزيدك في الأجل ، فيفعل ، ويتكرر هذا مرات كثيرة حتى يصير الربا أضعاف أضعاف رأس المال ، والقاعدة عند الأصوليين أن القيد إذا كان لبيان الواقع فإنه لا مفهوم له ، وقد مثل له الأصوليون بهذه الآية الكريمة . وقوله عز وجل : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيد على أن تقوى الله عز وجل هي سبب فلاح المتقين وفوزهم ونصرهم وتأييدهم على أعدائهم ، وقوله عز وجل : ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ أي احفظوا أنفسكم من الأسباب التي تولجكم في نار جهنم التي رُصِدَتْ وهُيئت لمن كفر بالله ، وفي هذا تحذير شديد من أكل الربا ، وأنه قد يكون سببا في نزع الإيمان من قلوب أَكَلَة الربا وموتهم على الكفر عيادا بالله ، وفي هذا دليل أيضا على أن النار أعدت في الأصل للكفار ولا يمنع ذلك أن يعذب بها بعض العصاة من المؤمنين لكنهم لا يُخَلَّدون فيها بل يخرجون منها إما بشفاعته رسول الله ﷺ أو بشفاعته بقية النبيين والمرسلين والملائكة والمؤمنين ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل : «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يُخْرِجَ برحمته مَنْ أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يُخْرِجُوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار بأثر السجود ، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد اُمْتُحِشُوا ، فَيُصَبّ عليهم ماء الحياة فَيَنْبُتُونَ تحته كما تَنْبُت الحَبَّة في حَمِيل السَّيْلِ» الحديث - وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسا سألوا رسول الله ﷺ : هل

نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» وساق الحديث إلى أن قال: «يقول الله عز وجل: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمًى، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ فَيُخْرِجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ، أَلَّا تَرَوْهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَضْيَفَرُ وَأَخْيَضَرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضُ» فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قَدَّمُوهُ» الحديث. وقوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هو حُضٌّ وترغيب للعض على النواجذ بأسباب النجاة من النار، والفوز برحمة الرحيم الغفار، بملازمة طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال تعالى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴿

بعد أن رهب الله عز وجل المؤمنين من تعاطي الربا وخوفهم من أسباب سخط الله ، وحذرهم من النار التي أعدها لأعدائه الكفرة الفجرة ، وحضهم على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ التي تجلب لهم الفلاح والفوز والنصر على الأعداء ، رغبهم في المبادرة إلى الأعمال التي تجلب مغفرة الله ورحمته ، وتسكنهم فسيح جنّته ، فقال عز وجل : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ وتقديم الترهيب على الترغيب ، لأن الترهيب تحلية ، والترغيب تحلية ، والتخلية مقدمة على التحلية ، كما هو مقتضى الفطرة والطبع ، والعقل والشرع ، ومعنى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ أي سابقوا وبادروا إلى الفوز بمغفرة الله وجنة النعيم الفسيحة الواسعة ، كما قال عز وجل : ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والعرض يطلق على معنى السعة وعلى ما يقابل الطول ، وهو أقصر الامتدادين ، ومن استعمال العرض بمعنى السعة قوله عز وجل : ﴿وإن أصابه الشر فذود دعاء عريض﴾ على أنه لو كان المقصود من قوله عز وجل : ﴿عرضها السموات

والأرض ﴿ هو ما يقابل الطول فإن المراد السعة أيضا لأنه إذا كان عرضها كالسموات والأرض فما بالك بطولها؟ ومعنى : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أي لو جعلت السموات والأرض طبقا طبقا بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحًا مؤلفًا من أجزاء لا تتجزأ ثم وُصِلَ البعض ببعض حتى صار الكل طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله ، وفيه إشارة إلى سعة مُلْك الله وأنه ليس مقتصرًا على السموات والأرض ، وإذا علم أن الجنة فوق السموات السبع وأن سقفها عرش الرحمن ، وأن كرسي الله عز وجل وسع السموات الأرض لم يكن هناك محلّ للتساؤل بأنه إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ لأن هذا التساؤل إنما يكون ممن يظن أن ملك الله هو السموات والأرض فقط ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها » ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشّر الناس ؟ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة » أراه : فوّه عرش الرحمن ، « ومنه تفجّر أنهار الجنة » قال محمد بن فُلَيْح عن أبيه : وفوّه عرش الرحمن . كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة ابن شعبه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « سأل موسى ﷺ ربّه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أتَرْضَى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ، فيقول : رضيتُ ربّ ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله »

فيقول في الخامسة : رضيْتُ ربّ ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما
 اشتتهت نفسك ولذّت عينك ، فيقول : رضيْتُ ربّ ، قال : ربّ فأعلاهم
 منزلة؟ قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمتُ عليها
 فلم تر عينٌ ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . وفي رواية للبخاري
 ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله
 ﷺ : «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، أو آخر أهل الجنة دخولاً
 الجنة ، رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله عز وجل له : اذهب فادخل
 الجنة ، فيأتيها ، فيُخِيلُ إليه أنها مَلَأَى ، فيرجع فيقول : يا ربّ وجَدْتُها
 مَلَأَى ، فيقول الله عز وجل له : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيُخِيلُ إليه أنها
 مَلَأَى ، فيرجع فيقول : يا ربّ وجَدْتُها مَلَأَى ، فيقول الله عز وجل له : اذهب
 فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ، أو إنّ لك مثل عشرة أمثال
 الدنيا ، فيقول : أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك؟» قال : فلقد رأيت
 رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، فكان يقول : «ذلك أدنى أهل
 الجنة منزلة» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي
 الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنّ للمؤمن في الجنة لحيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة
 طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ، ولا
 يرى بعضهم بعضاً» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد
 الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إنّ في الجنة شجرةً يسير الراكب
 الجَوَادُ المُضْمَرُ السريع مائة سنة ما يقطعها» . وقوله عز وجل : ﴿أُعِدَّتْ
 للمتقين﴾ أي هُيئت وزُيّنت للذين يخافون الله ويقفون عند حدوده ، وقوله
 عز وجل : ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في
 مرضات الله والإحسان إلى خلقه من الأقارب والأباعد في الشدة والرخاء
 والمنشط والمكره والصحة والمرض وعموم الأحوال ولا سيما في سبيل نشر

الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقوله عز وجل: ﴿وَالكَاضِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ اعلم أن الغيظ هو ما يعترى النفس من شدة الغضب وسورته، فإن كان سببه الحقد والحسد فهو كالنار التي تتأجج في الصدر لا يطفئها إلا زوال النعمة عن المحسود، وهذا هو الذي وصف الله به أعداء المسلمين في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وقد يكون سبب الغيظ أذى يلحقك من شخص دون أذى لحقه منك فتغضب لذلك، وهذا هو الذي حَضَّ الله عز وجل على كظمه هنا، وهو من أبرز صفات المتقين، وكظم الغيظ هو حبس النفس عن متابعة هواها في الغضب، وأصل الكظم مَخْرَجُ النَّفْسِ ويطلق على الإمساك والحبس ومنه: كظم البعير كظوما إذا أمسك على ما في جوفه ولم يَجْتَر، والمكظوم: المكروب والممتلى غيظاً وأسفاً، وكظم الغيظ يجمع بين صفتي الصبر والحلم، وقوله عز وجل: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي والتاركين عقوبة من أساء إليهم وهم قادرون على مجازاتهم واستيفاء حقوقهم، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس في مواضع من كتابه الكريم وجعل الإحسان إلى من أساء إلى الإنسان من أعظم ما يزدلف به العبد إلى الله عز وجل حيث يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم ﴿وقال عز وجل في سورة الشورى في وصف المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وقال عز وجل في نفس المقام: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال عز وجل في نفس المقام أيضاً: ﴿وَلَنْ صَبِرَ وَغْفَرَ إِنَّا ذَلِكَ لَمَنْ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

وقال عز وجل : ﴿وليعفوا وليصْفَحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في هذا الباب ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أحدٍ؟ قال : «لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشدَّ ما لقيته منهم يومُ العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كِلَاك ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ﷺ فناداني فقال : إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملكُ الجبال فسَلَّمَ عليّ ثم قال : يا محمد إنّ الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملكُ الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» . وروى ابن ماجه بسند رجاله محتج بهم في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من جُرعةٍ أعظم عند الله من جرعة غيظٍ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله» . كما روى أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ ابن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظا وهو قادرٌ على أن يُنفِذه دعاه الله سبحانه على رءوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء» . وقوله عز وجل : ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييلٌ مقررٌ لمضمون ما قبله ، وتقرير أن الإنفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن المسيء من الناس من الإحسان الذي يحبه الله عز وجل ويثيب أهله أحسن الثواب . وقوله عز وجل : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم

يعلمون ﴿ أي والذين إذا ارتكبوا جريمة من كبائر السيئات وأقبحها كالزنا ونحوه أو ضيّعوا على أنفسهم بعض أسباب سعادتها بترك بعض القربات أو فعل بعض السيئات التي لم تبلغ حدّ الفاحشة من المعاصي تذكروا عظمة الله ومقامهم بين يديه يوم القيامة فطلبوا من الله عز وجل مغفرة ذنوبهم وتابوا إليه ، ولا يغفر الذنوب أحد إلا الله عز وجل ، ولم يقيموا على معصيتهم بل أقبلوا عنها وندموا على فعلها وعزموا ألا يعودوا إليها ، وهم يعلمون أن من تاب تاب الله عليه وأنه لا توبة مع إصرار ولا ذنب مع استغفار ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وهذا من فضل الله على المؤمنين أن قرّنَ التائب من الذنب مهما كان بالمنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل . وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن عبداً أذنب ذنباً فقال : رب أذنبت فاغفره ، فقال ربه : أعلم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرتُ لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً فقال : رب أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال ربه : أعلم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرتُ لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً ، قال : رب أذنبتُ ذنباً آخر فاغفر لي ، فقال : أعلم عبدي أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي فليفعل ما شاء » اهـ وكما قال عز وجل : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليهما حكيماً ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾ وعد من الله عز وجل لهؤلاء السعداء ، جعلنا الله بفضله منهم .

قال تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين ﴾ * هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين * ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين * ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ﴿

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أنّ ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب ترك بعض الرماة مقاعدهم التي بوأهم رسول الله ﷺ إياها للقتال ، وأن المسلمين انتصروا يوم بدر لأنهم صبروا واتقوا والتزموا بوصايا رسول الله ﷺ ثم أرشد الله عز وجل المسلمين إلى أسباب جلب الانتصار على الأعداء بالمحافظة على الطاعة والابتعاد عن المعصية واجتناب الربا وسائر المحرمات والمسارة إلى جنة عرضها السموات والأرض بالإِنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين ومسارة من يقع في معصية إلى الاستغفار والإنابة والتوبة النصوح ، شرع من هنا في إكمال بقية قصة غزوة أحد وذكر أهم أحداثها وما فيها من العبر والعظات والآيات الشاهدات بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ﷺ ، قال البخاري في صحيحه : باب غزوة أحد ، وقول الله تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميعٌ عليمٌ ﴾ وقوله جل ذكره : ﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ * إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين * ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد

كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴿ وقوله : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ وقوله : ﴿ ولا تحسبنّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتا ﴾ الآية . حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عبداً لوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ يوم أحد : « هذا جبريل أخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب » اهـ وقوله عز وجل : ﴿ قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ هذه تعزية ومواساة من الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم ، أي قد مضت مني وقائع نقمة في المكذبين لرسلي المشركين بي كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، قد أملت لهم ثم أخذتهم فكيف كانت عقوبتي لهم ، فلا تظنوا أن نقمتي انقطعت عن عدوي وعدوكم للدولة التي أدلّتهم بها عليكم لأبتليكم بذلك ، فامشوا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل ما عليه كفار قريش ، فانظروا كيف أحلّ الله عقوبته بالمكذبين وجعل العاقبة الحسنی في الدنيا والآخرة للمؤمنين ، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ﴾ الآية ، قول هرقل لأبي سفيان في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : فهل قاتلتموه أو قاتلكم ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كانت حربه وحربكم ؟ قلت : كانت دُولاً وسِجَالاً ، يُدَالُ علينا المَرّة ونُدال عليه الأخرى . وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنّ هرقل قال لأبي سفيان : وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دُولاً ، ويدال عليكم المَرّة وتدالون عليه الأخرى وكذلك الرّسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة . وقوله عز

وجل : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكموه تفسير للناس وإيضاح للأمم لتعريفهم بالابتلاء بالنصر والهزيمة ومرد ذلك ، وهذا التفسير نورٌ وأدبٌ لمن أطاع الله وأطاع رسوله محمداً ﷺ ، وقوله عز وجل : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي ولا تضعفوا ولا تبأسوا على ما أصابكم بأحد من القرع ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الظاهرون عليهم المرفوعون فوقهم في الدنيا والآخرة ، فالعاقبة الحسنة لكم ، وكما قال عز وجل : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وقال البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه : وكان ابن عباس رضي الله عنهما مع أمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه . وقال : الإسلام يعلو ولا يُعلى . وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم صدقتم رسولي ﷺ فيما جاءكم به من عندي فلا تهنوا ولا تحزنوا . والمقصود تهييج المسلمين وحضهم على سرعة الامتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والصبر على ما أصابهم من القرع ، وقوله عز وجل : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي إن يكن قد أصابكم في أحد قتل وجراح فقد أصاب عدوكم في بدر وفي أحد قتل وجراح مثل ما أصابكم ، حيث كان شهداء بدر أربعة عشر شهيدا ، وكان شهداء أحد سبعين شهيدا ، وكان قتلى المشركين يوم بدر سبعين قتيلا وكان قتلهم في أحد نيفا وعشرين قتيلا ، وكان من بين قتلهم يوم أحد صاحب لوائهم ، كما أصيبوا بجراحات كثيرة في أحد ، وعقر عامة خيلهم بالنبل ، وقد أسر من المشركين سبعون يوم بدر ولذلك قال عز وجل : ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي نصرفها بين الناس للبلاء والتمحيص ، وقوله عز وجل : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿الواو في قوله عز وجل : ﴿وليعلم الله﴾ للدلالة على محذوف كأنه قيل : نداؤها بين الناس لحكم جليلة لا تكاد تحصى وليعلم الله الذين آمنوا منكم الخ . وأصل المداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد آخر، وقوله عز وجل : ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هو شبيه بقوله عز وجل : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقوله عز وجل : ﴿لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ وقوله : ﴿إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه﴾ وقوله عز وجل : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ أي وليعلم الله في عالم الوجود والشهادة ما علمه في عالم الغيب قبل الوجود والظهور، ومن الثابت المسلّم المقطوع به أن علم الله متعلّق أزلاً بكل شيء، فمعنى : ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي وليرى المؤمن من المنافق، كما قال عز وجل : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين﴾ وليعلم الذين نافقوا ، وقوله عز وجل : ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم من أكرم من المؤمنين بالشهادة في سبيل الله ، وقوله : ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي والله ييغض المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وفيه تنبيه إلى حبه عز وجل عباده المؤمنين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وليمحّص الله الذين آمنوا﴾ أي وليختبر الذين آمنوا حتى يُخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم ويُعلي منازلهم في جنات النعيم ، وقوله : ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي ويبطل من المنافقين قولهم بألستهم مالم يس في قلوبهم حتى يحذرهم المؤمنون ، ويستأصل كذلك جملة من الكافرين ويهلكهم . وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرّماة ، وأمر عليهم عبد الله ، وقال : «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا،

وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا» فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، حتى بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة. فقال عبد الله: عهد النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف الله وجوههم، فأصيب سبعون قتيلا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تحييه»، قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تحييه» فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعلُ هُبْلُ. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العُزَى ولا عُزَى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والحرب سجالٌ، وتجدون مثلةً، لم أمر بها ولم تسؤني. وفي رواية: قال: جعل رسول الله ﷺ على الرّجالة يوم أحد — وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرّماة — عبد الله بن جبير فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم» فهزمهم الله، فأنا والله رأيت النساء يشتددن، وقد بدت خلاخلهن، وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنا تين الناس فلنصين من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى: ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ — ثلاث مرات — فنهاهم النبي ﷺ أن يحييوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي

قحافة؟ - ثلاث مرات - ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ - ثلاث مرات - ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة، لم أمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اغلُّ هُبْل، اغلُّ هُبْل، فقال النبي ﷺ: «ألا تحبوه؟» - وذكره إلى قوله: «ولا مولى لكم». وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُحْجَوْبٌ عليه بِحَجَفَةٍ، وكان أبو طلحة رجلا راميا، شديد النَّزْعِ، لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجُعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: ويُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي وأمي لا تُشْرَفْ، لا يصيبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإنها لمشمرتان، أرى خَدَمَ سُوقَهِمَا ينقلان القِرْبَ على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها، ثم تحيثان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة، إمّا مرتين وإمّا ثلاثا من الناس.

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ * ولقد كنتم تمنّون الموتَ من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون * وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ﴿

بعد أن بيّن الله عز وجل بعض أسباب مداولة الحرب بين المسلمين والكافرين من تمييز المؤمنين من المنافقين ، وإكرام بعض المؤمنين بالشهادة في سبيل الله ، وحبّ الله للمؤمنين وبغضه للظالمين ، ولتمحيص الذين آمنوا بمغفرة ذنوبهم ورفع درجاتهم ، ومحق الكافرين ، شرع هنا بيّن السبب الأصلي والغاية القصوى من مداولة الحرب بين المؤمنين والكافرين ، وأن طلاب الجنة لا يستكثرون أن يبذلوا في سبيل الوصول إليها كلّ غالٍ ونفيس من أنفسهم وأموالهم ، لأنهم طلاب السلعة الغالية وكما قال أبو فراس :
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يطلب الحسنة لم يُغْلها المهر

والجنة أفضل سلعة على الإطلاق ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على الحصول عليها وبذل النفس وكل شيء من الغالي والنفيس في سبيل ذلك ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي أُفْرِدَ يوم أحدٍ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهَقُوهُ قال : «من يردّهم عنّا وله الجنة؟» - أو «هو رفيقي في الجنة» - فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رَهَقُوهُ أيضا فقال : «من يردّهم عنّا وله الجنة» - أو «هو رفيقي في الجنة» - فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : «ما أنصَفْنَا أصحابنا» كما روى البخاري ومسلم في

صحيحهما واللفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، لئن أشهدني
الله قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع - وفي رواية : لئن أشهدني الله مع النبي
ﷺ ليرينَّ الله ما أجِدْ - فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون ، فقال :
اللهم إني أعترد إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع
هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد
ابن معاذ ، هذه الجنة وربّ النضر ، إني أجِد ريحها من دون أحد ، فقال
سعد : فما استطعت على ما صنع ، قال أنس : فوجدناه به بضعة وثمانين
ضربةً بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل
به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته - وهي الرُبَيْع بنت النضر - بشامة أو
بينانه ، قال أنس : كنّا نرى - أو نظنّ - أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه :
﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه
ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ . أما لفظ مسلم عن أنس رضي الله عنه
قال : عمي الذي سمّيت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً ، فشقّ عليه ،
وقال : أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه ، فإنّ أراي الله مشهداً فيما
بعد مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ،
قال : فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ ،
فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين تمرّ؟ قال : واهّا لريح الجنة ، أجده دون أحد
، قال : فقاتلهم حتى قتل ، قال : فوُجِدَ في جسده بضْعُ وثمانون من بين
ضربة ورمية وطعنة . ثم ذكر نحو ما تقدم ، وقد روى البخاري ومسلم في
صحيحهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رجلٌ
لرسول الله ﷺ يوم أحد : أرايت إن قتلتُ ، أين أنا؟ قال : « في الجنة » ، فألقى
تمراتٍ في يده ، ثم قاتل حتى قتل . كما روى مسلم من حديث أنس بن

مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم — كل إنسان منهم يقول: أنا أنا — فقال: «من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، فقال سيماء بن خرشة أبو دُجانة: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين. كما روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص: نَثَلَ لي النبي ﷺ كنانته يوم أحد فقال: «ارْمِ فداك أبي وأمي» كما روى مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ جمع له أبويه يوم أحد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين فقال له النبي ﷺ: «ارْمِ فداك أبي وأمي» قال: فتزعتُّ له بسهم ليس فيه نصلٌ فأصبت جنبه، فسقط، فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ، حتى نظرت إلى نواجذه. ومعنى قوله في الحديث: جمع له أبويه يوم أحد، أي قال له: فداك أبي وأمي، ومعنى قوله: قد أحرق المسلمين، أي أثنى فيهم وصار كالنار التي تحرق من تصيبه. كما روى البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت على يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثيابٌ بياضٌ يقاتلان عنه كأشدَّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعدُ. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث سهل بن سعد وهو يُسأل عن جُرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جُرح رسول الله ﷺ ومن كان يسكب الماء وبها دُوءِي، قال: كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله وعليَّ يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أنَّ الماء لا يزيد الدَّم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدَّم، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يومئذٍ، وجُرح وجهه، وكُسِرَت البيضة على رأسه. وقال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم هند بنت عتبة

وصواحِبها مُشَمَّرات هوارِب، ما دون أُخْذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كَشَفنا القوم عنه، وَخَلَّوْا ظَهورنا للخيل، فَأَتَيْنَا من خَلْفنا، وَصرخ صارخ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قَتَلَ، فَاثْكَفَانَا وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا القوم بعد أن أَصَبْنَا أَصْحاب اللِّواء، حتَّى ما يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ القوم. وَقَدْ رَوَى البخاري في صحيحه من طريق جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي قال: إِنَّ حمزة قَتَلَ طُعَيْمَةَ بن عديّ بن الحِيارِ بيدر، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مطعم: إِنَّ قَتَلْتَ حمزة بعمِّي فَأَنْتَ حَرٌّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيالِ أَحَدٍ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وادٍ، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال، خرج سِبَاعٌ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أُمٍّ أَنهار مُقْطَعَةَ البُظُورِ، أَتُحَادِّ الله وَرَسُولَهُ ﷺ؟ قال: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ، فَكان كأَمْسِ الذاهِبِ، قال: وَكَمَنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحرْبتي فأضعها في ثُنَّتِهِ حتَّى خرجت من بَيْنِ وَرِكَئِهِ، قال: فَكان ذاك العهد به. الحديث، ومع أَنَّ الجولة كانت للمشرِكين، فقد دفع الله تبارك وتعالى بِالرَّعبِ في قلوبهم، فانصرفوا عن أرض المعركة، وَاُمْتَطَوْا إِبْلهِم راجعين إلى مكة، ففرغ المسلمون لشهادتهم وجرحاهم رضي الله عنهم. وَ(أُمٍّ) في قوله عز وجل: ﴿أُمٍّ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري حيث انتقل من مواساتهم على ما أصيبوا به من القرح وما بيّن لهم من حِكْمِهِ إلى بيان الغاية القصوى من مداولة الحرب بين المشرِكين والمسلمين، وإنكار أن يتمنى الإنسان السلعة الغالية دون بذل ثمن لها، أي أَظْنَنتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الجنة ولم تُبْتَلُوا بالقتال والشدائد ويظهر المجاهدون والصابرون إلى حيز الوجود والظهور والشهود، وهذا كقوله عز وجل: ﴿أُمٍّ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ

خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ولقد أظهر الله عز وجل المجاهدين والصابرين من أصحاب رسول الله ﷺ حتى صاروا مضرب المثل في الشجاعة والصبر، وعطف الصابرين على المجاهدين ليشمل النساء الصابرات حيث لا جهاد عليهن ، ولقد صارت بعض الصحابيات في ذلك مثلاً يحتذى ، فقد قال ابن إسحاق : حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسماعيل بن محمد عن سعد بن أبي وقاص قال : مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا : خيراً يا أمّ فلان ، هو بحمد الله كما تحيين ، قالت : كلّ مصيبة بعدك جلّ . اهـ أي كلّ مصيبة إن سلم لنا رسول الله ﷺ سهلةٌ يسيرة ، فالجلل من الأضداد يطلق على السهل اليسير وعلى العظيم الكبير الكثير . وقوله عز وجل : ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ هذه الآية إشارة إلى ما كان من حرص بعض أصحاب رسول الله ﷺ على الاستشهاد في سبيل الله ممن لم يكونوا قد حضروا معركة بدر وتمنوا لقاء آخر مع المشركين رجاء النصر على أعداء الله أو الموت في سبيل الله فلما صارت معركة أحد ثبت بعضهم وانهزم بعضهم فكانت هذه الآية الكريمة ثناء على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وعتاباً للذين انهزموا ، ومعنى تمنّيه الموت هو رغبتهم أن يموتوا شهداء في سبيل الله ، وليس ذلك من باب تمنّي الموت الذي نهى عنه رسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتمنّ أحداكم الموت من ضرٍّ أصابه » . الحديث . ومعنى : ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي فقد شاهدتم الموت عياناً عندما قُتل الثابتون من

أصحاب رسول الله ﷺ بمرأى منكم ومنظر ، وقوله عز وجل : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين﴾ قد سبق لتربية نفوس المسلمين وتوطين قلوبهم على أن محمدا ﷺ لن يخلد في الدنيا وأن البقاء لله وحده ، الذي يرسل الرسل وينزل الكتب ، فلا يليق بعاقل أن يرتد عن دين محمد إذا مات محمد ، لأن وظيفة محمد ﷺ هي تبليغ رسالة الحي القيوم الذي لا يموت . وأن من ارتد عن دينه إذا مات محمد ﷺ أو قتل ، فإنه لا يضر إلا نفسه ومن استمسك بالإسلام في حياة محمد أو بعد موته على حد سواء فهو شاكر لله وسيجزي الله الشاكرين أحسن الجزاء .

وسيقت هذه الآية هنا في قصة غزوة أحد لما أشيع من أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وليس قوله عز وجل : ﴿أفإن مات أو قتل﴾ شكا في علم الله بمصير محمد ﷺ إلى الموت أو القتل ، إذ المقصود الرد على من أشاع في المعركة أن محمدا قتل ، والواقع أن الله جمع لرسوله ﷺ بين الموت على فراشه والشهادة ، حيث كان من أسباب موته ﷺ أكله من الشاة المسمومة يوم خيبر ، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر ، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم» . هذا وعندما مات رسول الله ﷺ غلب الحزن على الناس حتى كاد بعضهم يجن ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا بكر قال : أما بعد من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله : ﴿الشاكرين﴾ قال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر . الحديث .

قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزى الشاكرين﴾ * وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾

بعد أن بين تبارك وتعالى أن محمداً ﷺ ما هو إلا رسول من رسل الله الكرام عليهم السلام، الذين بعثهم الله عز وجل ليلبغوا رسالات الله، وليس عليهم إلا البلاغ، وقد مضت سنة الله في المرسلين أنهم يُبتلون وتكون لهم العاقبة الحسنة، وأنهم لا خلود لهم على الأرض، وأنه يجب على المؤمنين أن يستمسكوا بدينهم بعد موت النبي عليه السلام كاستمسكهم به في حياة النبي ﷺ لأن الله عز وجل هو المعبود وحده لا شريك له وهو الحي الذي لا يموت، بين عز وجل هنا أنه كتب لكل نفس أجلاً مسمى لا يتقدم ولا يتأخر حيث يقول عز وجل: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً﴾ أي وما كان لروح أن تفارق جسد صاحبها إلا بقضاء الله وقدره الذي جعل لكل نفس أجلاً مسمى، وأن لكل أجل كتابا، وكل نفس ذائقة الموت سواء كان بقتل أو بغير قتل إذا جاء أجلها المكتوب لها من غير تقديم أو تأخير كما قال عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ وقال عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لكل أجل كتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن أجل الله لآت، وهو السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا يُنْقَض من عُمره إلا في كتاب﴾ وكما قال عز وجل:

﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمى عنده ثم أنتم تموتون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وفي ذلك حض على الجهاد في سبيل الله وأنّ الإقدام والشجاعة لا يعجل الموت ، وأن الجبن والفرار لا يؤجل الموت ، ومعنى : ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي كتب الله عز وجل كتاباً أقيمت فيه الآجال فلا تموت نفس إلا إذا جاء أجلها المؤجل لها عند الله عز وجل ولا تتأخر عن أجلها بحال من الأحوال كما قال عز وجل : ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بطن أمه أربعين يوماً ، ثم علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغّةً مثل ذلك ، ثم يُبعث إليه مَلَكٌ ، فيؤمر بأربع : برزقه وأجله وشقيّ أو سعيدٌ ، فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باعٍ أو ذراعٍ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراعٍ أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا ، فيقول : أي ربّ نطفةٌ ، أي ربّ علقةٌ ، أي ربّ مضغّةٌ ، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال : أي ربّ أذكر أم أنثى ، أشقيّ أم سعيد ، فما الرزق ، فما الأجل ، فيُكتب كذلك في بطن أمه» هذا ونصب ﴿كتاباً﴾ في قوله عز وجل : ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ على المصدر من معنى الكلام الذي قبله فهو مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التي قبله فعامله مضمّر تقديره : كتب الله ذلك كتاباً ، نحو ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ و﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ و﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهكذا سائر ما ورد في

القرآن الكريم من نحو ذلك ، وقوله عز وجل : ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط أعطيناه منها ما قدرنا له فيها ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطيناه ما يأمله وفوق ما يأمله لأنه من الشاكرين الذين تأذن الله عز وجل بأن يزيدهم من فضله ، ولذلك قال هنا : ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿من كان يريد حرث الآخرة نرذ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ وكما قال عز وجل : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً . وقوله عز وجل : ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين﴾ هذا تأديب يؤدب الله عز وجل به المؤمنين ، ويربي به النفوس المسلمة على استقبال ما قد يصيبهم من القرح في ميدان الحرب عندما تكون الجولة لأعدائهم عليهم كما حدث في معركة أحد ، والواقع أن المسلمين وعوا هذا الدرس تماماً ، وانصقلت به نفوسهم ، وخالط مشاعرهم ، وصار ملكة لهم حتى ضرب بهم المثل في هذا السبيل ، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة «بانت سعاد» في وصف أصحاب رسول الله ﷺ :

ليسوا مفاريج إن نالت رماحهمو قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
وكذلك وصفهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدته التي يردّ بها على الزُّبرقان بن بدر عندما قدم في وفد بني تميم وألقى قصيدته المشهورة التي مطلعها :

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا منّا الملوكُ وفينا تنصبُ اليّيع

فأجابه حسان رضي الله عنه بقصيدته التي يقول فيها في وصف أصحاب رسول الله ﷺ :

نسمو إذ الحربُ نالتنا مَخالبُها إذا الزعانفُ من أظفارها خشعُوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهمو وإن أصيبوا فلا خورٌ ولا هُلُعٌ
كأنهم في الوغى والموت مُكتَنِعٌ أسدٌ بحلّةٍ في أرساغها فدَعُ
ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ أي وكثيرٌ من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله وقاتل معهم جموعٌ كثيرة من أتباعهم لتأييد دين الله ونصرة رسوله ، فقوله : ﴿كَأَيِّنْ﴾ هي بمعنى «كم» الخبرية التكميرية كما قال عز وجل : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ فـ(كم) فيها هي الخبرية التكميرية ، والربِّيُونَ هم الجمع وقد وصف الله عز وجل الربيين المقاتلين مع الرسول بأنهم كثير وهو يدل على أن المراد بالربِّيَّين العدد أو الجمع الموصوف بأنه كثير، وقوله عز وجل : ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يفيد أن هؤلاء الربِّيَّين الكثير المقاتلين مع رسولهم لنصر دينهم قد ابتُلُّوا كثيراً ، وصارت الجولة لأعدائهم عليهم مرات ، ومع ذلك ثبتوا مع رسولهم ﷺ ولم يفروا ، واحتسبوا ما نالهم من القرح في سبيل الله عند الله عز وجل وصبروا ، وقد مدحهم تبارك وتعالى وأثنى عليهم ووصفهم بقوله عز وجل : ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وهذه الصفات الثلاث هي الذروة في الثبات على الحق ، والرسوخ في الإيمان ، والصبر عند الشدائد ، فقد نفى الله تبارك وتعالى عنهم الوهن عند المصيبة ، والضعف ، والاستكانة ، وهذا هو المثل الأعلى للعزة بالإسلام والثبات عليه ، ومعنى : ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي فما جَبَنُوا ، وما استولى الخوف عليهم ، وما فترت عزيمتهم بسبب ما مَسَّهُم من القرح ، لأنهم يحتسبون ذلك عند الله عز وجل ، وقوله : ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي وما خارت

قواهم ، وقوله عز وجل : ﴿ وما استكانوا ﴾ أي وما تضعضعوا وما خشعوا أمام عدوّهم ، وقد ذكرت قريبا ما أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أن أبا سفيان نادى بعد المعركة يوم أحد : أفي القوم محمد؟ - ثلاث مرات - أفي القوم ابن أبي قحافة؟ - ثلاث مرات - أفي القوم ابن الخطاب؟ - ثلاث مرات - ثم رجع إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا ، وكيف أجابه عمر إذ قال له : كذبت والله يا عدوّ الله إن الذين عددت لأحياء كلّهم ، وقد بقي لك ما يسوؤك ، وهذا لا شك مظهر من مظاهر عزة الإسلام في نفوس المسلمين بعد معركة أحد مع أن الجولة كانت عليهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ دليل على أن أبرز صفات الصابرين هي تحمّل الشدائد في سبيل الله ، وحبس النفس عن الوهن والضعف والاستكانة وأن من كان بهذه المثابة أحبه الله عز وجل ، ومن فاز بمحبة الله فاز بعز الدنيا والآخرة ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بعد أن أثنى الله عز وجل على هؤلاء المجاهدين في سبيل الله بنفي الوهن والضعف والاستكانة عنهم ، أتبع ذلك هنا بذكر محاسنهم القولية معطوفة على ما تقدمها من الجمل المبيّنة لمحاسنهم الفعلية ، أي وما كان دأبهم وديدنهم إلا قولهم مع ثباتهم وصبرهم وحسن فعلهم : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . وهذه الدعوات الأربع تقرّر أن الإنسان السويّ مهما بلغ من التجلّد والصبر والثبات فإنه يتحتم عليه أن يحارب الغرور من نفسه ، وأن يجاهد هواه كما يجاهد عدوّه ، وأن يعتقد في قرارة قلبه أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن يخاف على نفسه من حوْبة المعاصي والتقصير في حق الله ، وأن يطلب من ربه مغفرة ذنوبه وإسرافه في أمره ، لأن الإنسان كلما كان بالله

أعرف كان من الله أخوف ، والمؤمن دائماً وأبدا يخاف على نفسه من سيئاته وأنها كالجلبل يخاف أن يقع عليه ، وأن يسأل الله عز وجل أن يثبت أقدامه عند لقاء العدو ، لأن من أخطر ما يسبب الهزيمة هو زلزلة الأقدام بسبب زلزلة القلوب ، ولذلك كان من دعاء أصحاب رسول الله ﷺ الذي كانوا يرتجزون به ومعهم رسول الله ﷺ :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وأن يعتقد المسلم اعتقادا جازما بأن النصر من عند الله فيضرع إلى الله عز وجل أن ينصره على القوم الكافرين . وقوله عز وجل : ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين﴾ أي فاستجاب الله عز وجل لهم ومنحهم ثواب الدنيا من التمكين في الأرض والنصر على الأعداء والثناء الجميل ، والحياة الطيبة ، كما منحهم حسن ثواب الآخرة حيث يدخلهم جنات النعيم ويصيرون في مقعد صدق عند مليك مقتدر . وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتنبيه على جلالته وعظمته لأنه غير زائل ولا يشوبه تنغيص ، ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لأنه نعيم زائل مع ما يشوبه من التنغيص ، وفي تذييل الآية الكريمة بقوله : ﴿والله يحب المحسنين﴾ بشارة عظيمة للمنكسرين بين يدي الله عز وجل الثابتين على الحق في السراء والضراء بأن الله عز وجل يحبهم وأنهم محسنون ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ بل الله مولاكم وهو خيرُ النَّاصرين * سنلقي في قلوب الَّذِينَ كَفَرُوا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، ومأواهم النَّار وبئس مثوى الظالمين * ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين .

بعد أن حصّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على الاقتداء بأنصار الأنبياء الذين قاتلوا معهم في سبيل الله، فإذا كانت الجولة عليهم ثبتوا على الحق، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وذكر بعض صفاتهم ليتأسى بهم المؤمنون، حذرهم هنا من طاعة الكافرين وبخاصة اليهود والمنافقين الذين استغلّوا فرصة ما أصاب المسلمين من القرح وأخذوا يُزجّفون بين المسلمين، وينشرون الأكاذيب ويتفوّهون بكلمات من الشر لزلزلة قلوب المؤمنين كقولهم في تأييد موقف عدو الله عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين: لو أطاعونا ما قتلوا، وقولهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وقولهم: لو كان محمد رسولا من الله ما جرح وما هُزم جنوده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي يا معشر من آمن بالله ورسوله من أصحاب محمد ﷺ وأتباعهم: إن تنقادوا للذين كفروا وتتبعوا ما يلقونه لكم من الشبه، وتصدّقوا ما يفترونه على الإسلام مما يزعمونه نصحا لكم، يحملوكم على الرّدة بعد الإيمان والكفر بالله وبآياته وبرسوله بعد الإسلام لأنهم ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء، ويتمنون أن ترجعوا عن دينكم، ولو أطعتموهم خسرتم الدنيا

والآخرة، وقوله عز وجل : ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ هو إضراب عما يُفهم من مضمون ما أفادته الآية التي قبله كأنه قيل : إنهم ليسوا أنصارًا لكم ولا أعوانا ولا أولياء ولا ممن يحب الخير لكم حتى تطيعوهم ، بل الله هو وليكم ومُعِينُكم وناصركم على أعدائكم فلا تطلبوا النصر إلا منه فاستنصروه دون غيره واحذروا كل الحذر أن تستنصروا بأعداء الله وأعداء المرسلين وأعدائكم فإنهم ييغونكم الغوائل ، وَيَرْضُدُونَكُمْ بِالْمَكَارِهِ وَيَتَرَبِّصُونَ بِكُمْ الدَّوَائِرَ ، فاعتصموا بحبل الله لأنه تبارك وتعالى خير الناصرين إذ هو القادر الذي لا يعجزه شيء ، العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، الكريم الذي يوجد على أوليائه بإعزازهم وتكريمهم من واسع فضله وجزيل عطائه ، المالك للدنيا والآخرة . وقوله عز وجل : ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ هذا وعدٌ من الله عز وجل للمؤمنين وبيان للون من ألوان نصر الله عز وجل لهم وطريقٍ من طرق خذلان عدوهم ، وهو إلقاء الرعب من المسلمين في قلوب أعدائهم ، وقد فعل الله ذلك في نفس غزوة أحد كما نبهت لذلك أكثر من مرة حيث كانت الجولة للكافرين ومع ذلك انطلقوا على وجوههم بعد المعركة ممتطين إبلهم متجهين إلى مكة ، وقد خصَّ الله نبيه محمدا ﷺ من بين الأنبياء والمرسلين بخصائص منها نصره بالرعب مسيرة شهر ، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فليصل ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبَعَثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» . ولفظ مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، كَانَ

كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحلت لي
 الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجُعِلت لي الأرض طيبةً طهوراً ومسجداً فأيا
 رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة
 شهر، وأُعطيْتُ الشفاعة» ومعنى قوله عز وجل: ﴿سنلقي في قلوب الذين
 كفروا الرعب﴾ أي سأملاً قلوب المشركين خوفاً وفزعاً وهلعاً وجزعاً من
 المسلمين مما يزلزل أقدام المشركين عند ملاقاتهم المسلمين، وقوله عز وجل:
 ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي بسبب شركهم بالله وعبادتهم
 للأصنام، وانقيادهم للشيطان دون دليل أو برهان، وقوله عز وجل:
 ﴿ومأواهم النار وبئس مَثْوًى للظالمين﴾ أي وأجمع لهم مع خزي الدنيا عذاب
 الآخرة حيث يصيرون إلى جهنم خالدين فيها أبداً قد جعلها الله عز وجل
 مأواهم ومثواهم، والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى هو المكان الذي يأوي
 إليه الإنسان، والمثوى هو مكان الإقامة المنبئة عن المكث. نعوذ بالله من
 مأواهم ومثواهم، وقوله عز وجل: ﴿ولقد صدقكم الله وَعْدَهُ إِذْ مُحِّسُونَهُمْ
 بِأَذْنِهِ﴾ هذا تذكير للمسلمين بأنهم يُنصرون على أعدائهم ماداموا صابرين
 متقين مسارعين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، ولذلك عندما التقى
 المسلمون والكافرون في أحد وبدأت المعركة كانت قلوب المسلمين مطمئنةً
 وأقدامهم ثابتةً في أرض المعركة وكانت قلوب المشركين مملوءة رعباً وفزعاً مع
 كثرة عَدَد وعَدَد المشركين وقلة عَدَد وعَدَد المسلمين حتى صار المسلمون
 يُحسُّون المشركين أي يستأصلونهم قتلاً بإذن الله ولا يثبت أمامهم أحدٌ من
 المشركين وفرّوا من أرض المعركة حتى لحق بعضهم بالطائف كما ذكرت في
 تفسير قوله عز وجل: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ ما
 أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنهما
 قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم

عبد الله، وقال : « لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا » فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن حتى بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون : الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله : عهد النبي ﷺ أن لا تبرحوا. الحديث. فالْحَسُّ هو الاستئصال بالقتل كما قال جرير:

تحسَّهم السيف كما تسامى حريقُ النار في الأجم الحصيد
وقال آخر:

حسناهم بالسيف حسًا فأصبحت بقيتَّهم قد شرَّدوا وتبدَّوا
والْحَسُّ بالسيف شبيه بالْحَسِّ والحصد بالمنجل، حيث كان أصحاب
رسول الله ﷺ يحصدون المشركين حصدا كما يحصد الإنسان الزرع والنبات
بالمنجل، ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿يَا ذُنُوبَ﴾ أي بعلمه وحكمه وقضائه
وتسليطه إياكم عليهم، بسبب إيمانكم وصبركم وتقواكم وطاعتكم لله
ولرسوله محمد ﷺ، وقوله عز وجل : ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر
وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر
وعصيانهم هو ما كان من الرماة عندما رأوا المسلمين حصدوا المشركين
وانتصروا عليهم وهربوا من أرض المعركة وسقط لوائهم بعد قتل صاحبه،
وانكشفت أرض المعركة من المشركين وظهرت الغنائم، فأخذ بعض الرماة
يقولون : الغنيمة، الغنيمة، فذكَّروهم أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه
وعنهم وصية رسول الله ﷺ لكنهم في غمرة فرحة النصر فشلوا أي تراخَوْا
وضعف صبرهم، ونازعوا أميرهم، وعصَوْا أمر رسول الله ﷺ حيث أمرهم
بأن لا يبرحوا مكانهم مهما حدث للمسلمين من نصر أو هزيمة إلا إذا أمرهم
رسول الله ﷺ بالنزول من مقاعدهم التي بواهم إياها للقتال، فكان ما
حدث من الرماة سببا فيما أصاب المسلمين من القرح بعد ما أراهم ما يحبون

من نصر الله وتأييده لعباده المتقين، وقد جاء في حديث البخاري الذي سُقْتُ صدره أنفاً عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن حتى بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صَرَفَ اللَّهُ وَجُوهَهُمْ. الحديث. وفي لفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل رسول الله ﷺ على الرجال يوم أُحُدٍ - وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرماة - عبد الله بن جبير، فقال: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا نَحْطِفُ الطَّيْرَ فَلَا تَبْرَحُوا، حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ» فهزمهم الله، فأنا والله رأيت النساء يشتددن وقد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين. الحديث. ولا شك أن شؤم المعصية وآثارها السيئة قد تصيب من ارتكبها وينال غبارها من لم يرتكبها، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى المسلمين في هذه القصة إلى هذه الحقيقة ليعلم من يرتكب معصية أنه قد يضر المجتمع الذي يعيش فيه وإن لم يشاركوه في هذه المعصية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بيان لحال الفريقين المتنازعين من الرماة، فالذين يريدون الدنيا هم الذين تركوا مقاعدهم التي بوأهم إياها رسول الله ﷺ، والذين يريدون الآخرة هم الذين ثبتوا في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء أميرهم الجليل عبد الله بن جبير رضي الله عنهم جميعاً، وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثم ردكم عن قتال المشركين بعد أن أراكم فيهم ما

تحبون من هزيمتكم إياهم وظهوركم عليهم فصرف وجوهكم عنهم لمخالفة بعضكم أمر رسول الله ﷺ ليختبركم ويمتحنكم ولينبهكم على الحرص على طاعة أوامر رسوله ﷺ الذي لا يأمركم إلا بما فيه خير دينكم ودنياكم ، ولقد تفضل الله عليكم فصّح عنكم ولم يدّخر لكم عقوبة مخالفتكم هذه إلى يوم القيامة ، بل جعل ما أصابكم في المعركة كفارةً لهذه المخالفة ، والله تبارك وتعالى صاحب جود وإحسان وتفضّل على المؤمنين ، ومن جميل وجليل فضله عليهم عفوه عن الرماة الذين تركوا مقاعدهم فلم يستأصلهم ، ولم يجعل عقوبتهم بعذاب النار.

قال تعالى : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليمٌ بذات الصدور .

لما ذكر الله تبارك وتعالى أنه صرف المسلمين عن المشركين ليبتليهم بين هنا صفة صرفهم عن المشركين فقال عز وجل : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي صرفكم عنهم حيث انطلقتم على وجوهكم مُبْعِدِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَلْتَفِتْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى مَا وَرَاءَهُ وَلَا يَقِفْ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ، ورسول الله ﷺ ثابت في أرض المعركة يناديكم من ورائكم : إِيَّيْ عِبَادَ اللَّهِ ، إِيَّيْ عِبَادَ اللَّهِ ، وإنما فصل بين قوله : ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وبين قوله : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ بقوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتعجيل البشارة بعفو الله عز وجل عن من فرّ عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، وأن الله عظيم الفضل والجود على المؤمنين ، وفي هذا تنبيهٌ للناس إلى منزلة أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنه لا يليق بمن ينتمي إلى الإسلام ممن يجيئون بعد الصحابة أن يجعلوا أنفسهم حكّاماً على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ، ويتناولون عليهم ، كما يفعل أهل الأهواء الذين يعادون أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ، وقد نبّه إلى ذلك رسول الله ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما كتب كتاباً لأهل مكة ، وبعثه مع

طعينة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم
 يداً، فأطلع الله عز وجل نبيه ﷺ على ذلك فأرسل علياً والزبير والمقداد
 وأدركوا المرأة في روضة خاخ كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله ﷺ وأخذوا
 الكتاب، وأتوا به رسول الله ﷺ فلما قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ:
 دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال له رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرا،
 وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت
 لكم». ولذلك كان مذهب أهل السنة والجماعة الترضي على جميع أصحاب
 رسول الله ﷺ وحبهم جميعاً، والكف عما شجر بينهم أو ذكر عنهم، وحمله
 على أحسن المحامل، فإن ساعة منهم مع رسول الله ﷺ تعادل دهوراً من
 أعمال غيرهم، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى شيء من ذلك حيث يقول فيما رواه
 البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله
 عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تَسُبُّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ
 ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة
 رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا
 أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ
 أحدهم ولا نَصِيفَهُ». هذا والعرب يفرقون بين قولهم: أصعد يُصعد
 إصعاداً، وقولهم: صعد يُصعدُ صُعوداً، فالإصعاد هو الانطلاق والذهاب
 في الأرض المستوية وبطون الأودية والشعاب، أما الصعود فهو الارتقاء
 والارتفاع على الجبال أو السلاлим أو الدّرج ونحو ذلك من المرتفعات. ومن
 استعمال الإصعاد بمعنى مطلق السفر قول أعشى قيس في قصيدته التي قالها
 يمدح بها رسول الله ﷺ قبل أن يحول المشركون بينه وبين الإسلام:

ألا أيُّها السَّائِلِي أَيْسَنَ أَصْعَدْتُ فَإِنَّ لَهَا مِنْ بَطْنٍ يَشْرَبُ مَوْعِدَا
 في إحدى روايات هذا البيت، فقد استعمل أصعد بمعنى أبعد في

الذهاب وأمعن فيه . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنت تبكين على الإصعاد فاليوم سُرَّحتِ وصاح الحادي
وكما قال الآخر:

هواي مع الركب اليماين مُصْعِدٌ جنيب وجثمانى بمكة مُوثَقٌ
وفي قوله عز وجل : ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ لفت انتباه إلى ثبات
رسول الله ﷺ وشجاعته وكمال طمأننته عند مواجهة الكفار في أحلك
الأوقات ، وهو شبيه بموقفه ﷺ كذلك يوم حنين عندما تولى المسلمون
مدبرين قبل أن تنزل السكينة عليهم ، قال ابن كثير في تفسيره : وفي
الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله
عنهما أن رجلا قال له : يا أبا عمار ، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟
فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوما رماةً ، فلما لقيناهم
وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهم فانهزم
الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ - وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته
البيضاء - وهو يقول : «أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» . قلتُ :
وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه في مثل هذا اليوم في حومة
الوغي ، وقد انكشف عنه جيشه ، وهو مع هذا على بغلة ، وليست سريعة
الجري ، ولا تصلح لفرّ ، ولا لكرّ ، ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضا يركضها إلى
وجوههم ، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلواتُ الله وسلامه عليه دائما
إلى يوم الدين ، وما هذا كلّهُ إلا ثقةً بالله وتوكلاً عليه ، وعِلماً منه بأنه
سينصره ، ويُتّم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان اهـ وقد قدمت
قريبا ما رواه البخاري من حديث البراء رضي الله عنه في قصة الرماة : فقال
أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما
تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا :

والله لتأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة ، فلما أتوهم صُرفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين ، فذلك قوله تعالى : ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا . الحديث . وقوله عز وجل : ﴿فأتابكم غمًا بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : يعني بقوله جل ثناؤه : ﴿فأتابكم غمًا بغمٍّ﴾ أي فجازاكم بفراركم عن نبيكم ، وفشلكم عن عدوكم ، ومعصيتكم ربكم ﴿غمًا بغمٍّ﴾ يقول : غمًا على غم . وسمى العقوبة التي عاقبهم بها من تسليط عدوهم عليهم حتى نال منهم ما نال (ثوابا) إذ كان عَوْضًا من عملهم الذي سخطه ولم يرضه منهم ، فدلّ بذلك جلّ ثناؤه أن كلّ عَوْضٍ كان لمعْوَضٍ من شيء من العمل - خيرًا كان أو شرًّا - أو العَوْض الذي بذله رجل لرجل أو يد سلفت له إليه ، فإنه مستحق اسم «ثواب» كان ذلك العوض تكرمة أو عقوبة ، ونظير ذلك قول الشاعر :

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه أذاهم سُودًا أو مُحَذَّرَجَةً سُمرًا
فجعل «العطاء» القيود اهـ وهذا الشاعر هو الفرزدق ، والمراد بالأذاهم جمع أدهم وهو القيد ، والمحذرجة : السياط ، وقد ألحق الله عز وجل بهم غمومًا كثيرة منها غمّهم بما أصابهم من العدو في أنفسهم وأموالهم ، وغمّهم بالهزيمة ، وغمّهم بما أصيب به الرسول ﷺ من الشجة وكسر الرّباعية ، والغم الأكبر بما أرجف به المرجفون من أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ ، وغمّهم بما صاروا يخافونه على أنفسهم من غضب الله بسبب معصية ترك مقاعد القتال التي بوأها رسول الله ﷺ للرّماة . وقد بيّن الله عز وجل أنه عفا عنهم وتفضل عليهم لإيمانهم بالله ورسوله ، وأنه إنما ألحق بهم هذه المصائب لتربية أنفسهم على الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، وبيان عجز الإنسان عن معرفة عاقبة الأمور حيث قد يُمتَحَن بخير تكون عاقبته شرًا وقد يمتحن بشرّ تكون

عاقبته خيراً، كما قال عز وجل : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وإذا أسلم الإنسان وجهه لله عز وجل وأطاع الله وأطاع رسوله ﷺ فإن عاقبته تكون حميدة ما دام مستمسكاً بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، لأن الشريعة لا تأمر الإنسان إلا بما ينفعه في الدنيا والآخرة، وإذا أيقن الإنسان بذلك وعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فإنه لا يحزن على ما فاتته أو أصابه كما قال عز وجل : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور. وقوله عز وجل : ﴿والله خبير بما تعملون﴾ وعد للمستجيبين لله ولرسوله ﷺ ووعد لمن لم يستجب لله ولرسوله ﷺ. وقوله عز وجل : ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفةً منكم﴾ هذه آية من آيات الله عز وجل جعلها الله عز وجل للمؤمنين يوم بدر ويوم أحد حيث سلط النعاس على المؤمنين كما ذكر هنا وكما ذكر عن نعاسهم يوم بدر بقوله تبارك وتعالى : ﴿إذ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : لقد وقع السيف من يد أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً من النعاس. كما روى البخاري من حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال : كنت ممن يَغْشَاهُ النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، وكان من آية الله أن أنزل النعاس على هذه الطائفة المؤمنة تسكيناً لنفوسهم وتطميناً لهم، أما الطائفة الأخرى التي لم ينزل عليها النعاس فقد وصفها الله بصفات الأولى : أنهم أهمتهم أنفسهم فلا يهمهم إلا نجاة أنفسهم من القتل دون أن يهتموا بنجاة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهذا يشعر بنفاقهم وجبنهم وخوفهم. والصفة الثانية : أنهم يسيئون الظن بالله كأهل الجاهلية

وأن الله لن ينصر رسوله كما قال عز وجل : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ والصفة الثالثة : إظهارهم أنهم خرجوا كُرها ولو كان الأمر لهم ما خرجوا مع رسول الله ﷺ، ومقصودهم بث الفتنة وإساءة الظن برسول الله ﷺ، فردّ الله عز وجل شبهتهم وباطلهم ببيان أن أمر الحياة والموت وسائر الأمور بيده وحده، ثم نبه رسوله ﷺ إلى نفاق أصحاب هذه المقالة وفضحهم حيث يقول : ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي ما قُتِلَ منا أحد . ثم بين عز وجل أن من كتب عليه القتل لن يتأخر عن مكان مصرعه فقال : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ كما قال عز وجل : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ فالحذر لا ينجي من القدر، والتدبير لا يدفع التقدير، فمن كتب الله عليه القتل في مكان لا بد من خروجه وبروزه إلى مصرعه، وقوله عز وجل : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي وقد جعل الله عز وجل الجولة الأولى في أحد للمسلمين ثم جعل الجولة الثانية للكافرين لحكم لا يحصيها إلا الله، وليميز الخبيث من الطيب، ويبرز للمؤمنين ما تكنه صدور المنافقين، والله عليم بالسرائر والضمائر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ وَلئن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وَلئن مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿

بعد أن ذكر عز وجل الآية التي تفضل بها على المؤمنين في معركة أحد من إنزال النعاس عليهم تأميناً لهم وتطميناً ، وهي معجزة ظاهرة ، ثم ذكر شيئاً من فلتات ألسنة المنافقين وفضحهم وكشف سترهم وبين أنه أجرى معركة أحد على هذا الوجه الذي تمت به لحكم جليلة ومنها إظهار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب ، ذكر تبارك وتعالى هنا ما تفضل به على المؤمنين الذين زلت أقدامهم فانهزموا عن رسول الله ﷺ في أحد وأعلن للعالمين البشارة بعفوه عنهم وتجاوزه عن زلتهم حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿مِنْكُمْ﴾ إشارة إلى أنهم مؤمنون وليسوا منافقين ، ومعنى: ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي انهزموا عن رسول الله ﷺ يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد ، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان أوقعهم في هذه الزلة غير المتعمدة التي لم تكن كفراً ولا عناداً وهم غير معصومين من مثلها ، مع أنهم ما أطالوا زمن التولي والفرار بل كروا ورجعوا ، وأحدقوا برسول الله ﷺ واستشهد منهم من استشهد ، وكان من

فضل الله عز وجل عليهم تعجيل بشارتهم بعفوه عنهم وتجاوزه عن زلتهم، والمعروف كما تقدم قريبا أن أهم إساءة عرفت عنهم هي تركهم مقاعدتهم. وأكد الله عز وجل أنه عفا عنهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ تذييل لتعليل عفو الله عنهم وتأكيده، ولم يؤثر بحمد الله عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه تكلم بكلمة تشعر بندمه على الخروج مع رسول الله ﷺ إلى أحد، بل كان الواحد منهم يتمنى أن يمزق جسمه قطعة قطعة ولا يشاك رسول الله ﷺ بشوكة، بخلاف من غمزوا بالنفاق وعُرفوا به فإنهم هم الذين فضحتهم فلتات ألسنتهم، كما ذكر الله عز وجل عنهم في الآية السابقة، ولذلك حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من التشبه بهم في أقوالهم الدالة على مرض قلوبهم، ووصفهم بالكفر حيث يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وفي هذا تحذير شديد من أن يقول أحد هذه المقالة، وأن من قال عن إنسان سافر للتجارة أو غيرها فمات أو خرج مجاهدا فقتل: لو لم يسافر ما مات، أو لو لم يجاهد ما قتل، فإن من قال هذه المقالة كفر بالله المحيي المميت، الذي قدّر لكل نفس أجلا تموت عند نهاية أجلها، وحدد لها أرضا لاتفارق الروح بدنها إلا فيها، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ والله در الشاعر حيث يقول:

مشيناها خطى كُتِبَتْ علينا ومن كُتِبَتْ عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

ومعنى: ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي قالوا هذا القول من أجل إخوانهم الذين ماتوا أو قتلوا، وليس المراد أنهم تحدّثوا بقولهم هذا مع إخوانهم الذين ماتوا أو

قتلوا، وهذا أسلوب معروف عند العرب ومنه قوله عز وجل : ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي إذا سافروا فيها وساروا للتجارة أو غيرها، والمقصود أنهم ماتوا في سفرهم هذا، وأصل الضرب في الأرض هو الذهاب فيها من قولهم : ضربت الطير تضرب أي ذهبت تبتغي الرزق، وضرب في الأرض ضَرْبًا وضَرْبَانَا : خرج تاجرا، ومنه قوله عز وجل : ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ ومعنى قوله : ﴿أو كانوا غُزًى﴾ أي أو كانوا غزاة، وإنما عطف قوله : ﴿أو كانوا غُزًى﴾ على قوله : ﴿ضربوا في الأرض﴾ من باب عطف الخاص على العام، إذ الخروج في الغزو ضرب في الأرض وإنما ذُكِرَ بعد دخوله فيما قبله لأنه المقصود بالذات في هذا المقام وما ذكر قبله هو توطئة له، على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب في الأرض كما في قصة غزوة أحد، والغُزًى جمع غَارٍ كَرَكِعَ وراكع، وُصُومٌ وصائم ونُومٌ ونائم وشُهِدَ وشاهد وُغِيِبَ وغياب، وقوله عز وجل : ﴿ليجعل الله ذلك حَسْرَةً في قلوبهم﴾ أي إذا صان المسلمون أنفسهم ولم يتلفظوا بمثل كلام هؤلاء المنافقين الكافرين وأيقنوا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن القعود عن الغزو لن يمنع من الموت إذا جاء الأجل، وحرص المسلمون على الخروج إلى الغزو والجهاد كان ذلك حَسْرَةً في قلوب المنافقين ولاسيما إذا وصل المسلمون بسبب الغزو إلى الغنائم العظيمة والاستيلاء على الأعداء والفوز بالنصر، وقوله عز وجل : ﴿والله يجزي ويميت﴾ أي والحياة والموت بيد الله وحده فإليه يرجع الأمر كله ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بقضائه وقدره، وقوله عز وجل : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ وعد للمؤمنين الذين يمثلون تعاليم الإسلام ويبتعدون عن مشابهة الكفار والمنافقين في أقوالهم وأفعالهم

واعتقاداتهم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وتهديد لمن لم يمثل أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿وَلَنْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَتُّمُ الْغَفْرَةِ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو أو السفر من القتل في سبيل الله أو الموت ليس مما ينبغي أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، ويحرص عليه العقلاء الراشدون، لأن الموت سبيل كل حي، كما قال قطري بن الفجاءة الخارجي:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذي لك لن تطاعني
سبيل الموت غاية كل حي فداعيه لأهل الأرض داعي
فصبرا في مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخ الخنع اليراع

والموت في سبيل الله هو من أغلى أمانى الصالحين، لعلمهم بما أعدّه الله عز وجل لمن يموت في سبيل الله من رفيع الدرجات في جنات النعيم، فقد روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»، وفي رواية -: «لما يرى من فضل الشهادة» قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يخاطب جل ثناؤه عباده

المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا أيها المؤمنون في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب، ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتاً في سبيل الله أو قتلاً في الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو اهـ وقال الفخر الرازي رحمه الله: إن رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوه: أحدها أن من يطلب المال فهو في تعب من ذلك الطلب في الحال، ولعله لا ينتفع به غداً لأنه يموت قبل الغد، وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينتفع به لأن الله لا يخلف وعده، وقد قال: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وثانيها: هب أنه بقي إلى الغد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فكم من إنسان أصبح أميراً وأمسى أسيراً، وخيرات الآخرة لا تزول لقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾ وقوله: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ وثالثها: بتقدير أن يبقى إلى الغد ويبقى المال إلى الغد لكن لعله يحدث حادثٌ يمنعك عن الانتفاع به مثل مرض وألم وغيرهما، ومنافع الآخرة ليست كذلك، وخامسها: هب أن تلك المنافع تحصل في الغد خالصةً عن الشوائب ولكنها لا تدوم ولا تستمر، بل تنقطع وتنفى، وكلما كانت اللذة أقوى وأكمل كان التأسف والتحسر عند فواتها أشدَّ وأعظم، ومنافع الآخرة مصونةٌ عن الانقطاع والزوال، وسادسها: أن منافع الدنيا حسية ومنافع الآخرة عقلية، والحسية خسيسة، والعقلية شريفة، أترى أن انتفاع الحمار بلذته بطنه وفرجه يساوي ابتهاج الملائكة المقربين عند إشراقها بالأنوار الإلهية؟ اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ أي ومهما كانت أسباب

مفارقة أرواحكم أبدانكم سواء كانت بموت أو بقتل ، فإن مصيركم وحشركم وجمعكم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، المعبود بالحق ، العظيم الشأن ، الواسع الرحمة ، الجزيل الإحسان ، الذي يجزي كل عامل بما عمل ، ويزيد الصالحين من فضله وجوده وإحسانه ، ولا حاكم سواه يوم القيامة ، كما قال عز وجل : ﴿لَمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى الموت والقتل في ثلاثة مواضع في هذا المقام من سورة آل عمران تقدّم الموت على القتل في الأول منها وفي الثالث وتقدم القتل على الموت في الثاني وذلك في الأول لمناسبة ما قبله من قوله عز وجل : ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد فقدّم الأهم الأشرف ، وأما في الثالث فقدّم الموت لأنه أغلب وأكثر ، فقد جمعت الآية بين ألوان بلاغية من المعاني والبديع .

قال تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ * إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿ .

بعد أن أخبر عز وجل أنه تفضل فعفا عن المنهزمين عن رسول الله ﷺ من المؤمنين يوم أحد أشار إلى حسن معاملة رسول الله ﷺ لهم ، ورحمته بهم وأنه لم يخاطبهم بالتغليظ والتشديد ولم يقسُ عليهم بسبب انهزامهم عنه ﷺ ولم يوبخ أو يعنف أحداً منهم ، وأثنى على رسوله ﷺ بسبب لين معاملته لهم وأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم ، واستشارتهم في الشئون ذات البال ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ و(ما) في قوله عز وجل : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ لإفادة تعظيم رحمته ﷺ وتفخيمها وتوكيدها كأنه قيل : فسبب رحمة عظيمة طبعك الله عليها ، وجعلها لك سجيّة ومَلَكَةً عاملت المنهزمين عنك باللين والرفق والرحمة والتلطّف ، وقد وصف الله رسوله محمداً ﷺ بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم حيث يقول عز وجل : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وفي تخصيص رحمته ورأفته ﷺ بالمؤمنين إشعار بأن أعداء الله وأعداء المرسلين ليسوا أهلاً لرحمة الله ولا لرحمة رسوله ﷺ ولا لرحمة المؤمنين ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في وصف رسوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ نفى الله عز وجل عن رسوله وحببيه وسيد خلقه وأفضل أنبيائه محمد ﷺ الفظاظة وغلظ

القلب ، والفظاظة هي الجفوة في العشرة قولاً وفعلاً ، وغلظ القلب هو كونه جافياً قاسياً خالياً من الشفقة والرحمة واللين والرقّة والرفق ، والفظاظة تنشأ عن غلظ القلب ، وإنما قدّم ذكر الفظاظة على ذكر غلظ القلب لأن الفظاظة هي المشاهد الظاهر المدرك بالحسّ المنبئ عن قسوة القلب وغلظه ، وقد كان من أبرز صفات رسول الله ﷺ التي عرّفها الله عز وجل للأنبياء السابقين ليصفوه ﷺ لأمرهم حتى يعرفوه إذا بُعث ﷺ أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ هذه الآية التي في القرآن : ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ قال : في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحزناً للأمينين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكّل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخّاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً . ومراد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من قوله : في التوراة ، هو من إطلاق كلمة التوراة على مجموع كتب العهد القديم ، لا أنها التوراة المنزلة على موسى ﷺ ، وهو اصطلاح لبعض المسلمين وبعض أهل الكتاب ، إذ أنّ هذا النص الذي ذكره عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إنما هو موجود في نبوات بعض أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿لا تفضّوا من حولك﴾ أي لتفرّقوا عنك ، ولم يسكنوا إليك وتردّوا في مهاوي الردى ، فمن فضل الله على الناس أن ملأ قلوب رسله إليهم بالرحمة والرفق ، ونبّههم إلى ذلك كما قال لموسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما لفرعون : ﴿فقلوا له قولاً ليتنا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾ وقوله عز وجل : ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾

هذه قواعد السياسة الرشيدة التي تربط بين الراعي والرعية برباط الحب والثقة والطمأنينة ، وفي قوله عز وجل لرسوله وحيبه محمد ﷺ : ﴿فاعف عنهم﴾ أي تجاوز عن مسيئتهم فيما ليس من حقوق الله عز وجل ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا ينتقم لنفسه قط ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ما خيّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه ، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمة الله فينتقم لله . وفي رواية لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى . كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيّ غليظ الحاشية فأدركه أعرابيٌّ فجذبه بردائه جذدة شديدة ، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذته ثم قال : يا محمد مُرّ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه ، فضحك ثم أمر له بعطاء . وفي أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ هنا بقوله تعالى له في المنهزمين عنه يوم أحد : ﴿فاعف عنهم﴾ مع قوله تبارك وتعالى عنهم : ﴿ولقد عفا عنكم﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ مع ما قدّمه في وصف المسارعين إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض حيث يقول عز وجل : ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ في كل ذلك إشارة إلى حبّ الله عز وجل للعفو عن عباده والصفح عنهم ، ولذلك أمر إمام المرسلين محمداً ﷺ بالعفو والصفح في مواضع كثيرة من القرآن العظيم حيث يقول عز وجل : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ويقول : ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ ويقول : ﴿فاصفح عنهم﴾

وقل سلام ﴿ . وقوله عز وجل : ﴿ واستغفر لهم ﴾ هذه هي القاعدة الثانية من
 قواعد السياسة الرشيدة ، أي واسأل الله عز وجل أن يغفر للمسيئين ، كما
 قال عز وجل : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر
 لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيم ﴾ أما القاعدة الثالثة من قواعد السياسة
 الرشيدة فهي قوله عز وجل : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ أي واستخرج آراءهم فيما
 تريد أن تفعله من الأمور ذات البال التي لم ينزل عليك وحى بها ، تطبيقاً
 لقلوبهم وليستن بك ولادة أمور المسلمين من بعدك ، وأصل الاستشارة
 والمشاورة مأخوذة من قولهم : شار العسل وأشاره واشتاره واستشاره إذا
 استخرجه من الخلية أو الوقبة ، والوقبة هي الكوة والنقرة في الصخرة ونحوها
 يتخذها النحل بيتاً ويضع فيها العسل ، وقد أعظم الله عز وجل شأن
 الشورى حيث يأمر هنا أكمل خلقه عقلاً وإدراكاً ووعياً وفهماً ومعرفة وخبرة
 بالأمور أن يستشير أصحابه رضي الله عنهم فيما لم ينزل عليه وحى فيه
 ويستخرج ما عندهم من آراء ، وكان ﷺ إذا استشار أصحابه وأشاروا برأي
 واحد أخذ به ﷺ وإذا اختلفت آراؤهم اختار الأيسر منها على المسلمين ،
 وقد جعل الله عز وجل الشورى من أبرز صفات المسلمين حيث يقول عز
 وجل في سورة أطلق عليها اسم سورة الشورى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ،
 قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾
 ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وأن المشاورة قبل العزم والتبني لقوله تعالى : ﴿ فإذا
 عزم فتوكل على الله ﴾ فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله
 ورسوله . ثم قال البخاري رحمه الله : وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون
 الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضع الكتاب
 أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ ، ورأى أبو بكر قتال من منع
 الزكاة ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني
دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن
من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ ثم تابعه بعدُ عمرُ، فلم يلتفت أبو بكر إلى
مشورته، إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة
والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، قال النبي ﷺ: «من بدل دينه
فاقتلوه» وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شبّاناً، وكان وقّافاً
عند كتاب الله عز وجل اهـ ويتحتم على المستشار أن يمتحّض من استشاره
النصح وأن يخلص في الاستشارة، وأن يكون أميناً، وأن يشير عليه بما فيه
المصلحة، فقد روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسنٌ، عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». وروى ابن
ماجه من حديث أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». .
قال في الزوائد: إسناده حديث أبي مسعود صحيح، رجاله ثقات اهـ ولا شك
أنه ما ندم من استشار، وينبغي أن يستشار في كل أمر أهل الخبرة به بعد
الوثوق من سلامة دينهم وعقولهم وحبّهم للخير ونصحهم كما قال الشاعر:

شاوَر صديقك في الخفيّ المشكل واقبل نصيحة ناصحٍ متفضّل
فالله قد أوصى بذلك نبيّه في قوله: شاوَرهم وتوكّل

وكما قال الشاعر الآخر:

وإن باب أمر عليك التوى فشاوَر لبيباً ولا تعصه
ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، إنّ الله يحبّ
المتوكلين ﴿أَيْ إِذَا صَحَّ عَزَمَكَ عَلَى إِمْضَاء مَا تَرِيدُ، مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكَ مِمَّا
رَأَيْتَ فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَدَيْنَكَ وَأَمْتِكَ فَامْضِ لِمَا تَرِيدُ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ خِلَافٍ مِنْ
خَالَفَكَ وَوَفَاقٍ مِنْ وَافَقَكَ، وَكَنْ فِي عَزَمِكَ مُعْتَمِداً عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَمُتَوَكِّلا
عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ رَاضِياً بِمَا يَقْضِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْمُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِ، وَفِي

هذا دليل ظاهر على أن بذل الأسباب والاستشارة لا ينافي التوكل على الله ،
وقوله عز وجل : ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إن يُعِنْكُمْ الله على عدوكم
فلن يغلبكم أحدٌ مهما كان عَدَدُهُ وَعُدَدُهُ ، وإن يَخْذَلْكُمْ فيكلكم إلى أنفسكم
ويترك نصركم فلن تُنْصَرُوا ولو كان معكم من العدد والعُدَد أضعاف ما عند
عدوكم ، فمن نصره الله فهو المنصور ومن لم ينصره الله فهو المقهور ، ونصر الله
يُنَال بطاعته وتقواه فاعتمدوا على الله وحده وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

قال تعالى : ﴿وما كان لنبي أن يغفل ، ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير . هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون . لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .﴾

بعد أن أكد تبارك وتعالى أن مَنْ يَنْصُرُهُ اللهُ لا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ وأن مَنْ يَحْذُلُهُ اللهُ لا يَنْصُرُهُ أَحَدٌ ، وأشار إلى أن الاعتماد على الله والتوكل عليه هو سبب النصر والفلاح . حذّر هنا أشد التحذير من الغُلُولِ وبينَ سوءِ عاقبته ، وأن الله عز وجل يَفْضَحُ الغالَ يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، ومن الملاحظ أن الله عز وجل حذّر في سياق قصة أحد من تعاطي الربا ومن الغلول ، وهما من أكبر الكبائر ، حتى يجتنب المسلم المجاهد في سبيل الله ما يُحِبِّطُ عمله ، ويُبْطِلُ جهاده لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وقوله عز وجل : ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ هو شبيه بقوله عز وجل : ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله﴾ الآيتين . أي ما يتأتى في العقل أن يَضْطَفِي اللهُ إنسانا يبعثه الله عز وجل نبيا فِعْلٌ ، وقد ذكرت في تفسيرها أن هذا النوع من النفي يُعَبِّرُ عنه بالنفي التام لأن النفي فيه من جهة العقل أي استحيل عقلا أن يَضْذَرَ هذا من نبيٍّ من أنبياء الله المصطفين الأخيار والمقصود من هذا النفي هنا هو تشديد أمر الغُلُولِ وبيان قُبْحِ فِعْلهِ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : الغُلُولُ بضم المعجمة واللام أي الخيانة في المغنم قال ابن قتيبة : سمي بذلك لأن آخذه يَغْلُهُ في متاعه أي يخفيه فيه ، ونقل النووي الإجماع على أنه من الكبائر . هـ ومعنى قوله عز

وجل : ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ أي ومن يأخذ شيئاً من المغنم خفية يَفْضَحْهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حيث يبعثه حاملاً لما غلّ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا النبي ﷺ فَذَكَرَ الْغُلُولَ ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ، قال : لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَغَاءٌ ، عَلَى رَقَبَتِهِ فرس له حَمَحَمَةٌ يقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملكُ لك شيئاً ، قد أبلغتُكَ ، وعلى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، يقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتُكَ ، وعلى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ ، فيقول : يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتُكَ ، أو على رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَحْفِقُ ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتُكَ . وقوله في الحديث : وعلى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ أي فوق عنقه ذهب وفضة أو هو كل مال لا رُوحَ له . كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : كان على ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كَرْكَرَةُ فَمَاتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُوَ فِي النَّارِ ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدُوا عِبَادَةً قَدْ غَلَّهَا . كما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالُوا : فَلَانٌ شَهِيدٌ ، وَفَلَانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا فَلَانٌ شَهِيدٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : كَلَّا ، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ ، فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا ، غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِي وَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدٌ لَهُ ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُدَامٍ يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِي قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَرُمِيَ بِسَهْمٍ ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ ، فَقُلْنَا : هِنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ

محمد بيده، إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهُبُ عَلَيْهِ نَارًا، أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: شَرَاكَ مِنْ نَارٍ أَوْ شَرَاكَانِ مِنْ نَارٍ. كما روى مسلم من طريق مُصْعَب بن سعد قال: دخل عبدالله بن عمر على ابن عامرٍ يَعُودُهُ وهو مريض فقال: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لِي يَا ابْنَ عَمْرٍ؟ قال: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ. وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال أبو السعود العمادى في تفسيره: أَي تُعْطَى وَافِيَا جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ، خيراً أو شراً كثيراً أو يسيراً، وَوَضَعَ الْمَكْسُوبَ مَوْضِعَ جَزَائِهِ تَحْقِيقاً لِلْعَدْلِ، بَيَانُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَمَامِ التَّنَاسُبِ كَمَا وَكَيْفَاً كَأَنَّهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَفِي إِسْنَادِ التَّوْفِيقِ إِلَى كُلِّ كَاسِبٍ، وَتَعْلِيلُهَا بِكُلِّ مَكْسُوبٍ، مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ حَالِ الْغَالِ عِنْدَ إِتْيَانِهِ بِمَا غَلَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِ الْيَوْمِ، وَهَوِّلِ مَطْلَعِهِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ فَظَاعَةِ حَالِ الْغَالِ مَا لَا يَحْفَى، فَإِنَّهُ حَيْثُ وَفَّى كُلُّ كَاسِبٍ جَزَاءَ مَا كَسَبَهُ، وَلَمْ يُنْقَضْ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنْ كَانَ جُزْمُهُ فِي غَايَةِ الْقَلَّةِ وَالْحَقَارَةِ فَلَا أَنْ لَا يُنْقَضَ مِنْ جَزَاءِ الْغَالِ شَيْءٌ وَجُزْمُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَائِمِ أَظْهَرُ وَأَجْلَى «وَهُمْ» أَي كُلُّ النَّاسِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ نَفْسٍ «لَا يُظْلَمُونَ» بِزِيَادَةِ عِقَابٍ أَوْ يَنْقُصُ ثَوَابٍ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أَي أَيْسَتَوِي فِي عَقْلِ أَحَدٍ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَصَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَسَعَى فِي مَرْضَاتِهِ وَتَرَكَ الْغُلُولَ وَسَائِرَ مَا نَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمَعَاصِي، هَلْ يَسْتَوِي هَذَا الصَّالِحُ الْمَطِيعُ هُوَ وَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ، وَيُكَذِّبُ رِسْلَهُ، وَيَعْصِي رَبَّهُ بِالْغُلُولِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْمَعَاصِي؟ لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا فِي عَقْلِ مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلِ، إِذْ أَنَّ الصَّالِحَ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ وَالْفَاجِرَ مَأْوَاهُ وَمَصِيرُهُ إِلَى جَهَنَّمَ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. أَي

وَقَبَّحَ وَذَمَّ مَصِيرُ هَؤُلَاءِ الْفَجَّارِ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ تأكيد لمضمون الآية السابقة ، وأن الصالحين والفجار لا يستوون ، فهم مُخْتَلِفُوا الْمَنَازِلَ ، حيث يصير المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض في درجات ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض ، ويصير الفجار إلى دركات النار التي يَهْوِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرِ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي إنه لا يظلم أحداً لأنه شهيد على ما عملوا ويجزي كلَّ عامل بما عمل وهذا المقام نظير قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ . ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ الآية . وحتى في نظر الشيوعيين الذين يقولون : لا إله والكون مادة فإنه لا يستوي عندهم من يسرق أموال الناس ومن يبذل ماله للناس فيما يروونه من مصالحهم ، مع انتكاس فطرتهم وانقلاب موازين الحق لديهم ، وهل يُسَوِّي أَحَدٌ بَيْنَ كَافِلِ الْيَتِيمِ وَبَيْنَ مَنْ يَأْكُلُ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا؟ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . ﴾ بعد أن وصف الله عز وجل حبيبه محمد ﷺ بكمال الرحمة والشفقة ، ووصف له قواعد السياسة الرشيدة وأمر المؤمنين بالاعتماد على الله

والتوكل عليه ، والالتجاء إليه وحده لا شريك له في طلب النصر على الأعداء
 ووصف جميع أنبياء الله بطهارة النفس ، وفرق بين من اتبع رضوان الله ومن بآء
 بسخط من الله ، مما أطبقت العقول على التفريق بينهما حيث لا يستوي
 الصالحون والفجار في نظر عاقل ، ذكر نعمته الكبرى ومِنِّته العظمى على
 المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ بأنه تَفَضَّلَ عليهم بأعظم رسول
 وأفضل نبيٍّ وأكمل شريعة ، وأبقى دينٍ وأوفى نظام وأشمله وأدقَّ حيث أنعم
 عليهم وأحسن إليهم إذ بعث لهم نبياً من أنفسهم يقرأ عليهم القرآن الكريم
 المشتمل على جميع قواعد العقائد والسلوك والمعاملات وما يتصل بالدنيا وما
 يتصل بالآخرة وقد جعله الله عز وجل تبياناً لكل شيء ومهيماً على كل كتاب
 قبله ، فيه نبأ المتقدمين ، وخبر المتأخرين وحلُّ قضايا الناس أجمعين ، وهو
 الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في
 غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ،
 لا تزيج به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق
 عن كثرة الردِّ ، كلما تكررت زادت حلاوته ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو مأدبة الله
 المعروضة بين عباده لتغذية أجسامهم وأرواحهم ، وشفاء أمراضهم
 وأسقامهم ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حَكَمَ به عدل ،
 ومن استمسك به واتَّبَعَ مَنَهِجَهُ هداه إلى جنات النعيم . ومعنى قوله عز
 وجل : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي ويطهرهم بترغيبهم في الطيبات وترهيبهم من
 المحرمات ، وتحذيرهم من سائر النجاسات ، سواء كانت حسية أو معنوية
 ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي ويبين لهم مجمل
 الكتاب ، وقد يُخَصُّ عُمُومُهُ ، وَيُعَمَّمُ خُصُوصُهُ ، وَيُقَيَّدُ مُطْلَقُهُ ، ويطلق
 مُقَيَّدُهُ ، بوحى من ربه ، حيث أسند الله عز وجل بَعْضَ بيان القرآن لرسوله
 ﷺ حيث يقول : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

يتفكرون. ﴿ والحكمة هي الفقه في الدين واتباع سنة النبي الكريم ، وَوَضَعَ
الأُمُور في مواضعها ، وفي قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مبين . ﴾ إشارة إلى كمال نعمة الله وتما ممتة حيث أخرج الله عز وجل العرب
والعجم من الظلمات إلى النور فقد كانت أُمم الأرض عند بعثته ﷺ في حيرة
وضلالة ، قد نظر الله عز وجل إليهم فمقتهم عَزَبَهُمْ وعجمهم ، إذ كانوا
كُلُّهُمْ يتخبطون في دياجير ظلام الجاهلية ، وكانت بلاد العرب لا تعرف غير
الغارة والسلب والنهب ، ووَاد البنات ، وانتهاك الحرمات ، وكان الرجل
المجوسِيَّ يتزوج بنته ، ويشعل ناراً ثم يسجد لها ويعبدها ، وكان الأوروبيون
لا يَقْلُونَ في جهالتهم عن الأسيويين والإفريقيين ، فلما جاء الإسلام أرشد
الناس إلى قواعد العدل ، وهَدَى إلى الصراط المستقيم . لقد كانت مدينة روما
لا يُعْرَفُ فيها طريق مُعَبَّدٌ ، ولا سراجٌ يضيء حاراتها وشوارعها ، فلما جاء
الإسلام وعرف المسلمون المدنية الحقيقية بلَطَّوا الشوارع ونظَّمُوها . وكتب
عمر رضي الله عنه إلى عماله في الأمصار بتخطيط الشوارع في الحاضرة
والبادية ، وأضيئت الشوارع بالليل ، وانتشر كل هذا بعد ذلك في غرب
أوروبا لما دَخَلُوا في الإسلام ، ثم انتشرت هذه المدنية في سائر أوروبا لأول مرة
في التاريخ . وقد أشار الله عز وجل إلى نعم الله هذه على الناس حيث يقول :
﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما
يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو
الفضل العظيم ﴾ .

قال تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .﴾

بعد أن ذكّر الله عز وجل المؤمنين بنعمته الكبرى ومنته العظمى بإرسال أفضل رسله وأكمل خلقه محمد ﷺ إليهم بأكمل الشرائع، وأن الله أخرجهم به من الظلمات إلى النور وهداهم به من الضلال المبين الذي كان يحيط بهم من كل وجه، نبّه هنا إلى إعزازه لعباده الصالحين المتبعين لرسوله محمد ﷺ وأنّ ما قد يصيبُ المسلمين إنّما هو بسبب من تقصيرهم في طاعة هذا الرسول العظيم والنبي الكريم ﷺ، وأجاب عن شبهة أثارها بعض الناس ممن يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية حيث تساءلوا: من أين جاءتنا هذه المصيبة؟ وكيف نُهزَمُ ورسول الله معنا ونحن مسلمون وهم كافرون؟ والقصد من السؤال هو إثارة الشُّبْهِ بين المسلمين، وقد كان الجواب الذي أجاب الله عز وجل به في هذه الآية الكريمة قاطعاً لشبهتهم مُفْجِئاً لهم، حيث ذكر أن المشركين إن كانوا نالوا من المسلمين مرة فقد نال المسلمون منهم مرتين، وإن كان المشركون أصابوا عدداً من المسلمين فقد أصاب المسلمون منهم مثلي العدد الذي أصيب من المسلمين، فالحرب وإن كانت دولا فإن كفة المسلمين كانت راجحة، حيث انتصر المسلمون في بدر وهزم المشركون، وانتصر المسلمون في أول معركة أُحْدُ فكانت للمسلمين جولتان: جولة في

بدر وجولة في أحد، ولم يحصل المشركون إلا على جولة واحدة، كما أن المسلمين أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة رجل : سبعين قتيلا وسبعين أسيرا، وأصاب المشركون من المسلمين في أحد سبعين شهيدا، فالمسلمون أصابوا منهم مثلى ما أصابوا من المسلمين . ثم بيّن أن ما أصاب المسلمين في أحد ليس بسبب الإسلام بل بسبب مخالفة أمر الإسلام حيث ترك بعض الرماة مقاعدتهم التي بوأهم إياها رسول الله ﷺ وحذرهم أن يتركوها إلا إذا أُرْسِلَ إليهم، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ أصيبوا بالمصيبة التي أصابتهم . وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم﴾ وقوله عز وجل : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إن الله تبارك وتعالى قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم، كما أنه قادر على التخلية إذا خالفتم وعصيتم، وهو سبحانه لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء وأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وبعد أن بين عز وجل أن ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب من عند أنفسهم وأنه عز وجل قادر على كل شيء أشار كذلك إلى بعض وجوه الحكمة في جعل الجولة في آخر المعركة يوم أحد للمشركين حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبغناكم﴾ أي وما حدث لكم يوم تواجه الجمعان : جمع المسلمين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان، وكان التقاء الجمع يوم أحد، ومعنى قوله : ﴿فياذن الله﴾ أي فهو كائن بعلم الله وقضائه وقدره وحكمته البالغة التي من جملتها أن تعرفوا أن نصر الله إنما يُجَلَّبُ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وهذا تأكيد لقوله تعالى في الآية السابقة : ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ومن حكمته كذلك تمييز المؤمنين من المنافقين،

حيث يقول عز وجل : ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من نجاح المؤمنين عند هذا الامتحان والابتلاء ، إذ ظهر منهم كمال الإيمان والاستسلام لله عز وجل ، ولذلك بشرهم الله عز وجل أكثر من مرة بعفوه عنهم كما تقدم ، وقوله عز وجل : ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من ظهور نفاق المنافقين ، فإن المصائب تبرز العدو من الصديق كما قال الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير علمت بها عدوي من صديقي
وإنما قال عز وجل : ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ولم يقل : وليعلم المنافقين كما قال : ﴿وليعلم المؤمنين﴾ لإفادة ثبات المؤمنين على الإيمان واستمرارهم عليه ورسوخهم فيه وأن النفاق قد حدث لبعض ضعاف الإيمان ، فعبر في جانب المؤمنين بصيغة اسم الفاعل الدالة على الاستمرار وعبر في جانب الآخرين بموصول صلتُهُ فِعْلٌ للدلالة على التجدد والحدوث كأنه قيل : وما أصابكم يومئذ فهو كائن بإذن الله ولتمييز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ هو مستأنف لبيان بعض مواقف المنافقين المخزية ممن كان نفاقهم قد عرف قبل معركة أحد ، وهو عبدالله بن أبي ابن سلول لعنه الله ومن معه ، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة عند خروجه ﷺ إلى أحد فلما كانوا في بعض الطريق رجع عبدالله بن أبي بثلت الجيش ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿واذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أن رسول الله ﷺ استشار الناس ، واستقر رأيهم على الخروج إلى أحد ، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل ، والمشركون نحو ثلاثة آلاف ، غير أن عدو الله عبدالله بن أبي ابن سلول رجع

بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبدالله بن عمرو بن حرام السَّلَمِيُّ والدُّ جابر رضي الله عنهما أن يحملهم على متابعة رسول الله ﷺ، وقال لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفَعُوا، فقال عبدالله بن أبي ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكم، وهذه المقالة ولا شك أظهرت لكثير من المؤمنين الذين كانوا يغتروا بعبدالله بن أبي ويحسبونه مسلما حقا أنه رجل سُوءٍ ولذلك كان إظهار عبدالله بن أبي هذه المقالة من أظهر حِكَمِ معركة أحد التي قضاها الله عز وجل وقَدَّرَها، فقد أبرزت هذه المقالة مكنون نفسه، وكما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ
فقد فضحه الله عز وجل، وفي قول عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه لعبد الله بن أبي والذين معه: تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا، إشارة إلى خبرة عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه بفنون الحرب، وأن من لا رغبة له في القتال والالتحام في المعركة مع العدو يمكن أن يستفاد منه بأن يجعل في الخط الخلفي من المعركة ليحمي ظهور المقاتلين، وقول عدو الله عبدالله بن أبي ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكم هو كذب ظاهر من هؤلاء المنافقين؛ لأنهم يعلمون أن أبا سفيان ما جاء بجيشه العرمرم ونزل عند أحد إلا لقتال المسلمين والثأر لقتلى المشركين يوم بدر، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمُئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيْمَانِ﴾ إشارة إلى تذبذب المنافقين وترددهم بين الإيْمَان والكفر. وأنهم قد يقتربون من الكفر حيناً ويقتربون من الإيْمَان حيناً كما قال عز وجل فيهم: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ وكما شبههم الله عز وجل بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لما انهزم المسلمون يوم أحد،

وشج وجه النبي ﷺ، وكسرت رَبَاعِيَّتُهُ، ارتد طائفة، نافقوا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ﴾ فقلوه: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقاً وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نَافَقَ ثم جَدَّدَ نفاقاً ثانياً، وقوله: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يبيِّن أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن يَتَسَاوَيَا، وإما أن يكونوا للإيمان أقرب، وكذلك كان، فإنَّ ابن أبيٍّ لما انخزل عن النبي ﷺ يوم أحدٍ، انخزل معه ثلثُ الناس، قيل كانوا نحو ثلاثمائة، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داعٍ إلى النفاق، فإنَّ ابن أبيٍّ كان مُظْهِراً لطاعة النبي ﷺ والإيمان به، وكان كلُّ يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد، يأمر باتِّباع النبي ﷺ، ولم يكن ما في قلبه يظهرُ إلا لقليل من الناس إن ظهر، وكان مُعْظَمًا في قومه، كانوا قد عزموا على أن يُتَوَجَّهوا، ويجعلوه مثل المَلِكِ عليهم، فلما جاءت النُّبُوَّةُ بَطَلَّ ذلك، فَحَمَلَهُ الحسد على النفاق، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود، فلما جاء النبي ﷺ بِدِينِهِ وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت إليه القلوبُ، لا سيما لما نصره الله يوم بدر، ونَصَرَهُ على يهود بني قينقاع صار معه الدينُ والدنيا، فكان المقتضى للإيمان في عامة الأنصار قائماً، وكان كثير منهم يَعْظُمُ ابن أبيٍّ تعظيماً كثيراً ويُوَالِيهِ، ولم يكن ابن أبيٍّ أظهر مُخَالَفَةً تُوجِبُ

الامتياز، فلما انخزل يوم أحد وقال : يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان - أو كما قال - انخزل معه خلق كثير، منهم من لم ينافق قبل ذلك اهـ وقول ابن تيمية رحمه الله : يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم ، بل إما أن يتساويا ، وإما أن يكونوا للإيمان أقرب ، وكذلك كان . يريد رحمه الله أن هؤلاء المنافقين كانوا قبل هذه الموقعة إما قد تساوى عندهم الإيمان والكفر أو كانوا للإيمان أقرب ، لكنهم عند هذه الواقعة كانوا أقرب إلى الكفر وأبعد عن الإيمان ، وقوله عز وجل : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ﴾ أي يظهرون الإسلام بألسنتهم ويبطنون النفاق والله لا تخفى عليه خافية ، وذكرُ الأفواه للتأكيد كما في قوله : ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا ، قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ﴾ أي يقولون لأجل إخوانهم في النسب أو الدار والجوار لا أنهم إخوانهم في الدين ، الذين استشهدوا يوم أحد : لو أطاعونا وانخزلوا عن محمد كما انخزلنا عنه وقعدنا عن لقاء جيش أبي سفيان ما قتلوا ، فوبخهم الله عز وجل وَرَدَّ بَاطِلُهُمْ بِقَوْلِهِ عز وجل : ﴿ قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي قل لهم يا محمد إن صدقتم في مقاتلكم فادفعوا الموت عن أنفسكم وهو آتٍ لكم لا محالة .

قال تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واثقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين .﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك التي نزلت في قصة غزوة أحد، وبعد أن فضح الله مقالة المنافقين الذين أظهروا الشبهة بالمسلمين فيما أصيبوا به من شهدائهم حيث قالوا : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وردعهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا جاءهم إن كانوا صادقين، بشر هنا المسلمين بأن شهداءهم أحياء عند ربهم يرزقون، حيث يقول عز وجل : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون .﴾ أي ولا تظننَّ يا محمد أو يا كل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب أنَّ من فارقت روحه جسده وقتله أعداء الله لاستمساكه بدين الإسلام هو ميّت كسائر الموتى الآخرين، لأن الله تعالى خصَّهم بمزية لا يناهها إلا من قتل في سبيل الله حيث أحياهم حياة كريمة خاصة بهم وأجرى عليهم أرزاقهم، فهم يحسون، ويلتذون، ويتنعمون، وهم فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ بما منحهم الله من الكرامة والفضل، وبما حباهم به من جزيل الثواب والعطاء والأجر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء﴾

وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . ﴿١﴾ أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْبَهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدَمِ إِطْلَاقِ لَفْظِ
الموتى على الشهداء الذين يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، سَوَاءً كَانُوا قَدْ قَتَلُوا فِي مَعْرَكَةٍ
مَعَ الْكَافِرِينَ كَشُهَدَاءِ بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ ، أَوْ قَتَلُوا فِي غَيْرِ الْمَعْرَكَةِ كَسُمَيَّةَ أُمِّ عَمَّارٍ
ابْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ يُعَذِّبُهَا بِالنَّارِ ، وَيَقُولُ
لَهَا : اذْكُرِي آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ ، وَاذْكُرِي مُحَمَّدًا بِسَوْءٍ ، فَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ فَضَرَبَهَا بِحَرْبَتِهِ فَقَتَلَهَا فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ أَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ أَنَّهَا
حَيَاةٌ دُنْيَوِيَّةٌ بَلْ هِيَ حَيَاةٌ بَرْزَخِيَّةٌ خَاصَّةٌ مَنَحَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلشُّهَدَاءِ ،
وَقَدْ فَسَّرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ مَسْرُوقٍ
قَالَ : سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ الْآيَةَ ، قَالَ : إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ
ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ،
تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً ، فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا : أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ
نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ
يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا . قَالُوا : يَا رَبُّ نَرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ
فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يُوحَى بِأَنَّ حَيَاةَ الشُّهَدَاءِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَمَا دَامَ قَدْ أَخْبَرَ رَبُّ الْعِزَّةِ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ،
وَعَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ صُورِ مِنْ حَيَاتِهِمُ الَّتِي عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا فَمَا
عَلَيْنَا إِلَّا التَّسْلِيمُ ، مَعَ يَقِينِنَا أَنَّهُمْ فَارَقُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ خَرَجَتْ
مِنْ أَجْسَادِهِمْ كَمَا يَذُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الْمُتَقَدِّمُ حَيْثُ قَالُوا : نَرِيدُ أَنْ
تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى لَكِنَّا لَا نُسَمِّيهِمْ

أمواتا، وإنما نسميهم شهداء، وقد استشهد في غزوة أحد سبعون شهيداً، أربعة من المهاجرين وهم حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش وشماس بن عثمان المخزومي رضي الله عنهم واستشهد من الأنصار ستة وستون شهيداً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .﴾ أي إن الشهداء عند ربهم أحياء يرزقون حال كونهم مسرورين بما منحهم الله عز وجل من فضله حيث شرفهم بالشهادة، والفوز بالحياة الأبدية السعيدة، والزلقى من الله عز وجل، والتمتع بالنعيم المخلد المعجل لهم، وهم مسرورون من إخوانهم الذين تركوهم من خلفهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد وطاعة الله ورسوله ﷺ وأنهم إذا استشهدوا في سبيل الله لحقوا بهم ونالوا من كرامة الله وجوده مثل ما نالوا، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، وكما أنهم يستبشرون ويفرحون بالذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلفهم فإنهم يستبشرون ويفرحون أيضاً لأنفسهم بما رزقوا من نعم الله التي أنعم بها عليهم، وفضله الذي منحهم إياه، وقد قال محمد بن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكليهم وحسن مَقِيلِهِم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا ينيكلوا عن الحرب فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فأنزل على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات: ﴿ولا تحسبنَّ . .﴾ قال ابن إسحاق وحدثني الحارث بن الفضيل عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس أنه قال:

قال رسول الله ﷺ: الشهداء على بارق نهر بيباب الجنة. في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا. اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وَأَن اللّٰهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويفرحون أيضا بأن الله يتقبل من جميع المؤمنين أعمالهم الصالحة، ولا يبطل جزاء من صدّق رسوله وعمل بما جاء به من عند الله، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءً وأتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. ﴿هذه الآيات تتحدث عن قصة غزوة حمراء الأسد التي توجه إليها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من غزوة أحد، وقد ذكرت أكثر من مرة في سياق تفسير الآيات السابقة التي تتحدث عن غزوة أحد أن الله عز وجل ألقى الرعب في قلوب المشركين مع أن الجولة الثانية وهي الأخيرة كانت لهم، فانصرفوا عن أرض المعركة وامتطوا إبلهم راجعين إلى مكة وقد ألهم الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخرج في اليوم الثاني من معركة أحد في إثر المشركين مخافة أن يرجعوا، ليريهم أن بأصحابه قوة، وأن معركة أحد لم تخضد شوكة المسلمين، فنذب المسلمين الذين شهدوا معركة أحد - مع ما بهم من القرح - فانتدب منهم سبعون رجلا، فخرج بهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا بحمراء الأسد على الطريق بين مكة والمدينة - وهي على بُعد ثمانية أميال من المدينة المنورة، فعسكروا بها، وكان المشركون قد نزلوا بالروحاء، فلما أفاقوا من رعبهم تلاوموا وقالوا: أصبنا أشراف أصحاب محمدٍ وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟ فأجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد ذكّر أن مَعْبِدَ ابنِ أبي مَعْبِدٍ الخزاعي مَرَّ برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد وكان معبداً يومئذ مشركا إلا أن خزاعة مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ كانوا عِيَّةً نُصَحَ لرسول الله ﷺ

بتهامة ، صَفَقَتْهُمْ معه ﷺ ، لا يُخْفُونَ عنه شيئاً ، فقال معبدٌ لرسول الله ﷺ :
يا محمد ، أَمَا والله لقد عَزَّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ ، وَلَوَدِدْنَا أَنَّ الله عَافَاكَ فِيهِمْ ، ثم
انطلق معبدٌ - ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد - حتى لَقِيَ أَبَا سَفْيَانَ وَمَنْ معه
بِالرَّوْحَاءِ - والرَّوْحَاءِ على الطريق بين مكة والمدينة وهي على ثلاثين أو أربعين
مَيْلًا من المدينة - وقد أخذ أبو سفيان وَمَنْ معه من المشركين أَهْبَتَهُمْ مُجْمِعِينَ
الرجعة لاستئصال المسلمين ، وكان معبدٌ الخزاعيُّ قد تَجَرَّدَ من ثيابه عندما
أقبل على الرَّوْحَاءِ إمعاناً في تخويف المشركين على عادة النذير العُريَّان ، فلما
رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد؟ قال : محمدٌ خرج في أصحابه
يَطْلُبُكُمْ ، في جَمْعٍ لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم مَحْرُقًا ، قد اجتمع معه من
كان تَخَلَّفَ عنه في يومكم ، وندموا على ما صَنَعُوا ، فيهم من الحَنَقِ عليكم
شئٌ لم أر مثله قط ، قال : ويحك ما تقول؟ قال : ما أرى أن ترتحل حتى أرى
نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أَجْمَعْنَا الكَرَّةَ عليهم ، لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ ،
قال : فإني أنهاك عن ذلك ، ولقد حملني ما رأيْتُ على أن قلتُ فيهم أبياتاً من
الشعر ، قال : وما قلت؟ قال : قلت :

كَادَتْ تُهْدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي	إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبْيَاسِ
تَزْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَقَارِيسَ
فَظَلْتُ عَذُوا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةَ	لَمَّا سَمَوْا بِرَثِيسٍ غَيْرِ غُذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمَا	إِذَا تَغَطَّمَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجِي
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ السِّنْلِ ضَاحِيَةَ	لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَغْفُولِ
مِنْ جَيْشِ أَهْمَدَ لَا وَخْشٍ تَنَابِلَةَ	وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذَرْتُ بِالْقِيَلِ

وما أن سمع المشركون من معبدٍ ما قال لهم حتى كادت قلوبهم تنخلع من
الرعب والدُّعر ، فانطلقوا على وجوههم نحو مكة ، وَلَقِيَ أَبُو سَفْيَانَ نَعِيمَ بْنِ

مسعود الأشجعيّ أو ركباً من عبد القيس ، فجعل لمن لقي منهم محمداً ﷺ وأخبره أن أبا سفيان والذين معه قد جمّعوا لملاقاة محمد ﷺ وصحبه وردّه عنهم أن يعطيهم أحمالاً من زبيب بعكاظ ، فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي أو الرهط من عبد القيس إلى رسول الله محمد ﷺ وصحبه وقالوا له وللمسلمين : إنّ الناس قد جمعوا لكم فاحذروا لقياهم وخافوهم ، فإنه لا طاقة لكم بهم ، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون زادهم ذلك القول إيماناً بالله ويقيناً بنصره ، وقالوا حسْبُنَا الله ونعم الوكيل ، ولما تيقنوا أن المشركين هَرَبُوا إلى مكة رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، وأنزل الله عز وجل في قصة حمراء الأسد هذه الآيات . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ . قالت لعروة : يا ابن أخي ، كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر ، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، قال : من يذهب في إثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً ، قال : كان فيهم أبو بكر والزبير . كما روى البخاري من حديث ابن عباس قال : حسْبُنَا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : إنّ الناس قد جمّعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل اهـ والناس في قوله : ﴿قال لهم الناس إنّ الناس﴾ هو عام أريد به الخصوص فالمراد بالناس الذين قالوا : هو نعيم الأشجعي أو الرهط من عبد القيس ، والناس الذين جمعوا هم أبو سفيان ومن معه . ومعنى : حسبنا الله ونعم الوكيل : أي الله يحفظنا من كل شر ونعم المولى لمن وليه وكفّلَهُ مَنْ فَوَّضَ أمره إليه ، وقوله : ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم﴾ أي

رجعوا إلى المدينة بالنعمة والفضل وصرف السوء واتباع الرضا . وفضل الله كبيراً وقوله : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ الْمُشْرِكِينَ فَلَا تَخَافُوا مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، وَامْنَعُوا قُلُوبَكُمْ أَنْ يَتَسَرَّبَ لَهَا الْخَوْفُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ لِأَنَّ هَذَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ .

قال تعالى : ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئاً، يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أننا نملي لهم خيراً لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذاب مهينٌ . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم .﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى قصة غزوة حراء الأسد وما فيها من الدلالة على رسوخ الإيمان في قلوب المهاجرين والأنصار الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح وأن الله عز وجل صانهم من كل شر وأرجعهم إلى المدينة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله ولما كان رسول الله ﷺ قد أحزنه اندفاع المنافقين في الضلال ، وارتداد بعض ضعاف الإيمان إلى الكفر بعد مصاب المسلمين في أحد ، وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على دخول الناس في الإسلام لِيَسْلَمُوا من عذاب يوم القيامة ، وكان هذا الحزن يؤثر على نفس رسول الله ﷺ كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا .﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين .﴾ لذلك نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الحزن إذا رأى اندفاع الكفار في كفرهم ، وبيّن له ﷺ أن كفر الكافر لا يضُرُّ الله شيئاً . وأن الله لو أراد أن يجعل لهم حظاً في الجنة لَوَفَّقَهُم للدخول في الإسلام . وفي هذا تسليّة لرسول الله ﷺ ومواساة له ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي ولا يؤلمك ما تراه من اندفاع بعض الناس في الكفر ،

واتباعهم لشیاطین الجن والإنس ، وكما قال عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول لا
 يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن
 قلوبهم ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئا ﴾ زيادة تثبيت ومواساة
 وتسلية لرسول الله ﷺ ولتقرير حقيقة أن معصية العاصين وكفر الكافرين لا
 يضر الله شيئا وإنما وبال ذلك على مرتكبيه ، كما أن طاعة الطائعين لا تنفع
 الله شيئا ؛ لأن الله غني عن العالمين ولذلك قال هنا : ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم
 حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم . ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من طريق
 سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر
 عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمتُ
 الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي كلکم ضال إلا
 من هديته فاستهدوني أهدکم ، يا عبادي كلکم جائع إلا من أطعمته
 فاستطعموني أطعمکم ، يا عبادي إنکم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا
 فاستغفروني أغفر لکم ، يا عبادي إنکم لَن تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني ولن تبلغوا
 نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يا عبادي لو أَنَّ أَوْلَکُمْ وَأَخِرْکُمْ وَإِنْسَکُمْ وَجِنَّکُمْ كانوا على
 أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْکُمْ ما زاد ذلك في مُلْکِي شيئا ، يا عبادي لو أَنَّ
 أَوْلَکُمْ وَأَخِرْکُمْ وَإِنْسَکُمْ وَجِنَّکُمْ كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نَقَصَ
 ذلك من مُلْکِي شيئا ، يا عبادي لو أَنَّ أَوْلَکُمْ وَأَخِرْکُمْ وَإِنْسَکُمْ وَجِنَّکُمْ قاموا
 في صعيد واحد فسألوني فأعطيت کلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي
 إلا كما ينقص المَخِيطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرُ ، يا عبادي إنما هي أعمالکم أُخْصِيها
 لکم ثم أوفیکم إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فلا
 يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ . قال سعيد : كان أبو إدريس الخولاني إذا حَدَّثَ بهذا
 الحديث جثا على رُكْبَتَيْهِ اهـ والمراد بالإرادة في قوله عز وجل : ﴿ يريد الله ألا

يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴿ هي الإرادة الكونية القَدَرِيَّةُ التي بمعنى المشيئة لا الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة ، والمراد بالخط هنا هو النَّصِيبُ من نعيم الجنة ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو مَزِيدُ مُوَاسَاةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ببيان أن عموم الكفار الذين رَضُوا بالكفر بالله ورسله بَدَلُ الإِيمَانِ بالله ورسله هم أصحاب الصفقة الخاسرة ، فَإِنَّ وَبَالَ كُفْرِهِمْ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَن يَمْنَعُوا عِزَّ الْإِسْلَامِ وَانْتِشَارَهُ وَارْتِفَاعَ رَايَتِهِ فِي الْعَالَمِينَ وَلَن يَتِمَكَّنُوا بِكُفْرِهِمْ مِنْ إطفاء نور الله مَهْمَا جَمَعُوا وَبَدَّلُوا وَفِي هَذَا حَتٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِخْلَاصِ الْيَقِينِ وَالانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَبَدَلُ النَّفْسِ وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، لِيَسْلَمُوا مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ الْمُؤَلَّةِ الْمُوجِعَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِمَنْ اشْتَرَى الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . ﴾ أَي وَلَا يَظُنُّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ نُوَسِّعُ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ وَرَغَدِ عَيْشِهِمْ وَعَدَمِ تَعْجِيلِهِمْ بِعُقُوبَاتِ مَعَاصِيهِمْ هُوَ لِمَصْلَحَتِهِمْ ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ، فَإِنَّ حِكْمَةَ الْحَكِيمِ اقْتَضَتْ أَنَّهُ إِذَا سَخَطَ عَلَى الْعَبْدِ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِ أَمَلَى لَهُ وَأَرْخَى لَهُ فِي عَيْشِهِ لِيَأْخُذَهُ أَخْذٌ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ فِي الْعُقُوبَةِ ، وَأَعْظَمَ فِي الْإِيلَامِ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأَمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ . ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأَمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ . ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَلَيْسَ بَيْنَهُمْ مَنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كافرون . ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . ﴾ وأصل الإملاء هو التوسعة والإرخاء يقال : أملت للبعير في القيد أي أرخيت له ووسعت ، والعاقل إذا تواترت عليه النعم ازداد شكره لله عز وجل مع خوفه أن تكون استدراجاً ، والفاجر إذا تواترت عليه النعم ازداد بغيّاً وكفراً وطغياناً ، والله تبارك وتعالى يعطي الدنيا لمن يحبها ولن لا يحبُّه ، ومن يحبه الله عز وجل إذا أعطاه النعمة شكر الله عليها ، ومن لا يحبه الله إذا أنعم الله عليه بنعمة اعتقد أنها من عِلْمِهِ وقد قال عز وجل في وصف غرور بعض الكفار بالنعمة : ﴿ فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بل هي فتنة ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون . ﴾ وكما قال عز وجل عن قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ الآيات . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله لِيُؤْمِلِيَ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ، قال : ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ﴾ هذه هي خاتمة الآيات التي تحدثت في هذه السورة الكريمة عن غزوة أحد وغزوة حمراء الأسد الملحقه بها ، وقد أشار الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى

الفقه فيما ابتلى به المسلمين في غزوة أحد وفي غزوة حمراء الأسد، وهو أن المجتمع السعيد لا يقوم على أفرادٍ مختلفي العقائد، متناقضي الميول والاتجاهات في الباطن في الوقت الذي يبدو للناس أنهم وحدةٌ متماسكة متحابون متعاطفون؛ لأن اختلاط الخبيث بالطيب يُلحق الضرر بالطيب من حيث لا يدري أن الذي يخالطه خبيث، واختلاط المنافقين بالمؤمنين دون تمييز أخطر على المؤمنين من أن تختلط بهم الأفاعي والحيات والعقارب، ولما كان المنافق يظن كفره ويظهر الإسلام والانقياد لله ورسوله، وقد حجب الله عز وجل الغيب عن الخلق لأنه وحده هو علام الغيوب، ولا يُظهرُ على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يُطلعُه على بعض الغيب، اقتضت حكمةُ الله عز وجل أن يُطلعَ رسوله ﷺ على أشخاص بعض المنافقين فَيَعْرِفَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ أَوْ سِيَاهِهِمْ أَوْ لَحْنِ الْقَوْلِ، ولم يكن من الحكمة أن يعرف ذلك كل فرد من المؤمنين، فلذلك هياً الله تبارك وتعالى من الحوادث والجولات بين المؤمنين والكافرين في أحدٍ وغيرها فانكشف نفاق كثير من المنافقين وعرف المؤمنون الخبيث من الطيب والعدو من الصديق، وعلى المؤمن أن ينقاد لله وأن يستجيب لرسله عليهم الصلاة والسلام ومن يؤمن بالله ورسله ويتق الله عز وجل في جميع شأنه فله عند الله عز وجل أجر عظيم وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ما كان الله ليترك المؤمنين يندسُّ في صفوفهم المنافقون دون تمييز، ولذلك قال: ﴿حَتَّى يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وأشار إلى أنه ليس من الحكمة إطلاع كل فردٍ من المؤمنين على نفاق كل فرد من المنافقين حيث يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي فيطلع الرسول على بعض الغيب، ومن ذلك تعريفه ببعض المنافقين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من صفاتهم في سورة التوبة التي

فضحتهم وبينت مخازيهم ، وقال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّئِهِمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . ﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ حذيفة رضي الله عنه ببعض أسماء المنافقين ، وكان يُسَمَّى صاحب سرِّ رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين .

قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، والله ميراث السموات والأرض، والله بما تعملون خبير. لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين.﴾

بعد أن حرّض الله تبارك وتعالى على بذل النفس في الجهاد في سبيل الله، وأكد ذلك بصورة تجعل مَنْ به رشد يحرص على القتال لإعلاء كلمة الله، شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وأكد ذلك ببيان الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في وجوه الخير التي أوجب الله على الأغنياء بذل جزء معين فيها وعلى رأسها الزكاة التي جعل الله تبارك وتعالى من مصارفها ما يبذل للغزاة، وقوله عز وجل: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾، أي ولا يظنّ الذين يكتنزون أموالهم ويشحون بها فلا يخرجون منها ما فرض الله عليهم فيها أنهم يفعلون خيرا لأنفسهم بل هم يفعلون لأنفسهم شرا ويقدمونها إلى عذاب الله، وأن الله تبارك وتعالى سيجعلها عليهم طوقا في أعناقهم يوم القيامة وفي قوله عز وجل: ﴿بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هو عارية بأيديهم جعلهم الله عز وجل مستخلفين فيه، وقد جاد به عليهم، وقد أكد الله عز وجل وخامة عاقبة البخل بتخطئة أهله المتوهمين خيريته، حيث قال: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ ثم قال: ﴿بل هو شر لهم﴾ للتنصيص على شرّيته المفهومة من نفي

خيريته للمبالغة في تأكيد أنه شرُّ لهم ، ولا خير لهم فيه بحال من الأحوال ، ثم قال عز وجل : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لبيان كيفية شرِّيته بذكر صورة مزعجة مخيفة من صور عقوبة أهله عند الله يوم القيامة ، وقد قال البخاري في صحيحه : باب ﴿ ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرُّ لهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، والله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير . ﴾ سيطوَّقون كقولك : طَوَّقْتُهُ بِطَوَّقٍ ، حدثني عبدالله بن منير سَمِعَ أبا النضر حدثنا عبدالرحمن هو ابن عبدالله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شَجَاعًا أَقْرَعَ ، لَهُ زَبَيْبَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ ، يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ﴾ إلى آخر الآية ، والمراد بالشجاع الأقرع هو الثعبان الذي ابْيَضَّ رأسه من كثرة السم ، وقوله عز وجل : ﴿ والله ميراث السموات والأرض ﴾ المقصود منه بَيَانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْبَخْلَاءِ الَّذِينَ يَشْحُونُ فَلَا يُؤَدُّونَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِهِمْ سَيَتَقَلُّونَ عَنْهَا لَا مُحَالَةَ ، إِذْ لَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَدْ كَانَتْ أَمْوَالُ النَّاسِ عَارِيَةً بِيَدِهِ مِنْ جَعَلَهُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهَا فَإِذَا مَاتُوا رُدَّتْ الْعَارِيَةُ إِلَى صَاحِبِهَا الَّذِي كَانَ قَدْ أَعَارَهُمْ إِيَّاهَا ، وَقَدْ فَاتَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا لأنفسهم خيرا إِذَا بَخَلُوا بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَلَمْ يُؤَدُّوا مَا أَلْزَمَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَدَائِهِ مِنْهَا ، وَمَالَ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ وعيد شديد للذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ولكل من يخالف أمر الله عز وجل ، ووعد للمحسنين من عباد الله حيث أخبر عز وجل أنه ذو خبرة وعلم بجميع ما

يفعلُه عباده، محيط بذلك كله وسيجازي المحسن بإحسانه من فضله،
 ويجازي المسيئين بعدله، ولا يظلم ربك أحدا مع عفوه عمن يشاء من
 عباده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
 وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه صورة من
 صور جهل الإنسان بربه وعدم معرفته بخالقه ورازقه، حيث قال بعض
 هؤلاء الجاهلين: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولا شك أن اليهود يعتبرون أجراً
 خلق الله عز وجل على وصف الله تبارك وتعالى بما لا يليق به، فهم يصفون
 الله عز وجل بالبخل والشح كما قال تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ
 اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ
 يَشَاءُ،﴾ وقد أضاف الله تبارك وتعالى إلى قبيح قولهم هذا قبيح فعلهم حيث
 قال هنا: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وفي هذا السياق الكريم تحذير شديد
 للمسلمين المدَّعُوِّينَ للبذل في سبيل الله من أن تتأثر نفوس بعضهم من
 بعض ما يلقيه اليهود من الشُّبُه وما يفترونه من وصف الله بما لا يليق به عز
 وجل، وفي اقتران ما وَصَفُوا الْغَنِيَّ الْكَرِيمَ بأنه فقير وأنهم أغنياء بأنهم قتلة
 الأنبياء مما يجعل من له مسكة من عقل يحذر منهم أشد الحذر، ولا يتشبه بهم
 في فعل ولا خبر، والسين في قوله عز وجل ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ لتأكيد
 الوعيد، أي لن يفوتنا أبداً تسجيله عليهم وتدوينه في صحائفهم لكونه في
 غاية الجُرم والمقصود أنه سيعذبهم به ويذيقهم عذاب الحريق ولن يغفر لهم
 هذه الخطيئة أبداً، فلا يأملون عفو الله عنهم بحال من الأحوال، كما
 سنكتب عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ولن نعفو عمن قتل نبياً أبداً،
 وتوسَّطَ هذا الوعيد بين جرأتهم في وصف الله بأنه فقير وأنهم أغنياء وبين
 جرأتهم في قتلهم الأنبياء لتعجيل مَسَاءَتِهِمْ وأنه لن يَمَحُوَ هذه الخطايا بحال
 من الأحوال، حيث صاروا أجراً خلق الله على الله وعلى رسله، ولا شك أن

كل ذنب يرتكبه إنسان يكتب عليه في صحيفة عمله ، وهو مكتوب قبل ذلك في اللوح المحفوظ ، غير أن مَنْ يَتَقَضَّلُ الله بعفوه عن ذنبه أو يتوبُ توبةً نصوحاً في الوقت الذي تقبلُ فيه توبته فإنَّ الله عز وجل يمحو سيئته من صحيفته ولا يؤاخذهُ بِرَلَّتِهِ ، أما هذا القول البَشِيعُ على الله عز وجل وكذلك قتل الأنبياء فقد أشار الله عز وجل بقوله : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ إلى أنه لن يمحو هذه السيئة أبداً ولن يغفر لمرتكبها بحال من الأحوال ولذلك قال عز وجل بعدها : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ﴾ أي ونقول للقائلين بأن الله فقير ونحن أغنياء ، القائلين أنبياء الله بغير حق نقول لهم : ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أي عذاب نار محرقة مُلْتَهِيَةً ، فالنار اسم جامعٌ للملتهبة وغير الملتهبة قال ابن جرير : وإنما الحريق صفة لما يراود أنها مُحْرِقَةٌ كما قيل : عذاب أليم يعني : مؤلم . ووجيع يعني موجع اهـ فإن قال قائل : كيف قيل : ﴿ وَقَتَلَهُمُ الْآنِبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ والمعروف أن الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء هم المعاصرون لرسول الله ﷺ ولم يكن من أولئك أحدٌ قتل نبياً من الأنبياء فالجواب : أن المعاصرين منهم القائلين بأن الله فقير راضون بما فعل أوائلهم وأسلافهم من قتل من قتلوا من الأنبياء ، وكانوا على منهاجهم من استحلال ذلك واستجازته ، وقد هُمُّوا بقتل النبي ﷺ أكثر من مرة فهم لم ينسلخوا من أعمال آبائهم البشعة ، ولم يخرجوا عن كونهم إخوان القردة والخنازير وقتلة الأنبياء ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وأما قوله : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ أي قولنا لهم يوم القيامة : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ بما أسلفتم أيديكم ، واكْتَسَبَتْهَا أيام حياتكم في الدنيا ، وبأن الله عدلٌ لا يَجُورُ فَيُعَاقِبُ عبداً له بغير استحقاق منه العقوبة ، ولكنه يجازي كل نفس بما كسبت ، ويوفي كل عاملٍ جزاء ما عَمِلَ ، فجازى الذين قال لهم ﴿ ذَلِكَ ﴾

يوم القيامة من اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ بِمَا جَازَأَهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ ، بِمَا اكْتَسَبُوا مِنَ الْآثَامِ ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَكَذَبُوا عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْذَارِ ، فَلَمْ يَكُنْ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِمَا عَاقَبَهُمْ بِهِ مِنْ إِذَاقَتِهِمْ عَذَابِ الْحَرِيقِ ظَالِمًا وَلَا وَاضِعًا عُقُوبَتَهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا ، وَكَذَلِكَ هُوَ جَلُّ ثَنَاؤِهِ غَيْرُ ظَلَامٍ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَكِنَّهُ الْعَادِلُ بَيْنَهُمِ وَالْمُتَّقِصُّ عَلَى جَمِيعِهِمْ بِمَا أَحَبَّ مِنْ قَوَاضِيهِ وَنِعَمِهِ اهـ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِفَرِيَةِ أُخْرَى مِنْ مَفْتَرِيَّاتِ الْيَهُودِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَصَّاهُمْ أَلَّا يُصَدِّقُوا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ أَوْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا إِذَا قَدَّمَ أَمَامَهُمْ قَرْبَانًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَاءَتْ النَّارُ وَأَكَلَتْ هَذَا الْقَرْبَانَ وَهُمْ يَبْصُرُونَ . وَأَرَادُوا بِهَذِهِ الْفَرِيَةِ الطَّعْنَ فِي نُبُوَّةِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ لَمْ يَجْئِهِمْ بِقَرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، كَمَا أَنَّهُمْ يَعْتَلُّونَ بِهَذِهِ الدَّعْوَى الْكَاذِبَةَ أَمَامَ رِعَايَتِهِمْ حَيْثُ يُؤْهِمُونَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْئِهِمْ بِقَرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، وَالثَّابِتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا جَعَلَ الْغَنَائِمَ مُحَرَّمَةً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا إِذَا جَمَعُوا الْغَنَائِمَ جَاءَتْ نَارٌ فَأَكَلَتْهَا ، تَعَنَّتْ بَعْضُهُمْ فَطَلَبُوا مِنْ بَعْضِ أَنْبِيَائِهِمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَصْدُقُوهُمْ مَعَهَا جَاءُوا بِالْمُعْجَزَاتِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ إِحْدَى هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ أَنَّ يُقَرَّبَ النَّبِيُّ قَرْبَانًا وَتَأْتِي النَّارُ فَتَأْكُلُهُ وَقَدْ أَيْدَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِ بِهَذِهِ الْمُعْجَزَةِ ، وَلَيْسَتْ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَا شَرَطًا فِي تَصْدِيقِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَيْدَى الرَّسُولَ بِأَيِّ مُعْجَزَةٍ كَانَتْ وَجَبَ تَصْدِيقُهُ ، وَمُعْجَزَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ كَانَتْ بِأُمُورٍ لَيْسَ مِنْ بَيْنِهَا نَارٌ تَأْكُلُ الْقَرْبَانَ ، فَزَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا بِأَطْلَهُمْ ، وَأَفْحَمَهُمْ فِي شَبَهَتِهِمْ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿قُلْ قَدْ

جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم
صادقين . ﴿١٤١﴾ أي قد جاءكم الرسل قبل محمد ﷺ بمعجزات كثيرة وبالمعجزة
التي طلبتموها تعنتاً لا استرشاداً . فلم قتل أسلافكم هؤلاء الأنبياء الذين
جاءوهم بما طلبوا ورضيتهم أيها المعاصرون من أبنائهم فعلهم إن كنتم أنتم
تطلبون المعجزة للإرشاد لا للتعنت ، مع أن محمداً ﷺ قد جاءكم بالبينات
الحسية والمعنوية التي يؤمن على مثلها البشر ، وأنتم تعرفون في قرارة نفوسكم
أن محمداً رسول الله كما تعرفون أبناءكم ولكنكم تكتمون الحق وأنتم تعلمون .

قال تعالى : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفُّونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .﴾

بعد أن أبطل تبارك وتعالى شبهة القائلين لرسوله محمد ﷺ إن الله عهدَ إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النارُ، وأفحمهم بما لا يدع مجالاً للشك أنهم متعنتون لا مسترشدون ذكر لرسوله محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا به بعد هذه البينات ، واستمروا على التكذيب كان الحامل لهم هو العناد لا طلب الحق ، لأن شبههم قد أزيلت ، ومُفْتَرِيَاتِهِمْ قد أبطلت فلا تبتسّن بتكذيبهم ، فإن هذا التكذيب لك ليس أمراً مختصاً بك من بين سائر الأنبياء بل شأنُ جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء والطعن فيهم مع أنَّ حالهم في ظهور المعجزات على أيديهم وفي نزول الكتب إليهم كَحَالِكَ ومع هذا فإنهم صبروا على ما نالهم من أولئك الأمم واحتملوا ما تعرَّضُوا له من الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله عز وجل ، فكن مُتَأَسِّيًا بهم ، سالكا مسلكهم ، حيث يقول عز وجل : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فلست أول مكذَّب حيث كُذِّبَ إخوانك المرسلون من قبلك ، ولا شك أن مما يَهْوُنُ على النفس مُصِيبَتُهَا كونها عامةً كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا	ونائحة تُنوحُ ليوم نحس

وما يبكين مثل أخي ولكن أُسْلِيَ النفس عنه بالتأسي
والمراد بالبينات : المعجزات والحُجُج والبراهين الدالة على صدقهم ، والمراد
بالزُّبر : الكتب كما قال امرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَّانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِي
وعلى هذا فالعطف في قوله : ﴿والكتاب المنير﴾ لمزيد فضله وتأكيده شرفه ،
وقد يراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل ، وقد يراد بالزبر :
الزواجر والمواعظ من الزُّبر وهو الزجر يقال : زَبَرْتُ الرجل إذا زجرته عن
الباطل وسمي الكتاب زبوراً لما فيه من الزُّبر والزجر عن مخالفة الحق ، وقد
سُمِّي كتاب داود عليه السلام زبوراً لكثرة ما اشتمل عليه من الزواجر
والمواعظ ، والمراد بالمنير : أي الواضح المضئ الذي ينير الطريق للسالكين إلى
الله عز وجل فيسيرون على منهج الرشده ، وهم على بصيرة وبرهان وصراط
مستقيم ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا الذكر في مقام آخر من كتابه الكريم
في سورة فاطر حيث قال : ﴿وإن يكذبوك فقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
جاءتهم رسالهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا
فكيف كان نكير .﴾ وقوله عز وجل : ﴿كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون
أجوركم يوم القيامة﴾ هو لتأكيد تسلية رسول الله ﷺ والمبالغة في إزالة الحُزْنِ
من نفسه ، وفيه وعيد للمُتَمَادِينَ في ضلالهم ، المعاندين للحق بعد ما تَبَيَّنَ ،
المكذبين لرسول الله ﷺ مع ظهور براهين صدقه ومعجزاته ﷺ ، وكأنه قيل
لهؤلاء المعاندين : لَنْ تُقْلِتُوا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ، فستموتون ، وستلقون من عقاب
الله وعذابه ما تُحْزِنُون به على عنادكم وكفركم واستمراركم على ضلالكم
وغييكم ، ولستم بمُخْلَدِينَ في هذه الدنيا ، بل أنتم راحلون عنها منتقلون إلى
دار الحساب والجزاء في الآخرة حيث تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا
يظلمون . والدنيا ليست دار جزاء وإنما هي دار العمل ، وقوله عز وجل :

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.﴾ بعد أن أوضح تبارك وتعالى أن مَرَدَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُؤَفَّقُ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَشَارَ إِلَى أَنَّ النَّاسَ فِي الْآخِرَةِ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُمْ إِمَّا شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ.﴾ وَلِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ.﴾ أَيُّ فَمَنْ نُحِّيَ عَنِ النَّارِ وَأُبْعِدَ عَنْهَا فَقَدْ نَجَا وَظَفَرَ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَمَا لَذَاتُ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتُهَا وَزِينَتُهَا وَزَخَارِفُهَا إِلَّا مُتَعَةٌ مُّضْمَحِلَّةٌ لَا بَقَاءَ لَهَا وَلَا دَوَامَ فَلَا يَرُكِنُ إِلَيْهَا إِلَّا الْمَغْرُورُونَ الْمَخْدُوعُونَ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَتَزَلْنَا مَنَزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يَصْلِحُ خِبَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِلُ وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَسَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أَمْتَكُمْ هَذِهِ جَعَلَ عَافِيَتَهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيَصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأَمُورٌ تَنْكُرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرْتَقُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ، هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَأْتِيَ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ. الْحَدِيثُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَتَبْلُغُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا

وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. ﴿١٤٥﴾ هذا مقام آخر من مقامات مواساة رسول
 الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وإشارة إلى أن أذى أعداء الإسلام
 للمسلمين لن يتوقف، وأنهم سيبدلون كل ما يُمكنهم من إيذاء المسلمين في
 أنفسهم وفي أموالهم، والغرض من هذا الإعلام هو أن يوطن المسلمون
 أنفسهم على الصبر وعدم الجزع مما قد يصيبهم مستقبلاً، لأن من عادة
 النفس إذا تهيأت للبلاء قبل نزوله، كان وقوعه أخفّ وقعاً عليها ومعنى :
 ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ أي لتُختبرن بشيء من الأذى يصيبكم في
 أموالكم وأنفسكم لرفع درجاتكم أو تكفير سيئاتكم، وسيألكم أذى كثير
 من الكتابيين والمشرّكين. قال البخاري في صحيحه : باب، «ولتسمعَنَّ من
 الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أَذًى كَثِيراً» حدثنا أبو اليان
 أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزهري قال : أخبرنا عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد رضي
 الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، على قطيفة فديّة، وأردف
 أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل
 وقعة بدر، قال : حتى مرّ بمجلس فيه عبدالله بن أبيّ ابن سلول، وذلك قبل
 أن يُسلم عبدالله بن أبيّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشرّكين
 عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رَوَاحَةَ، فلما غشيت المجلس
 عَجَاجَةُ الدَّابَةِ حَمَّرَ عبدالله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال : لا تُغَبِّروا علينا،
 فسَلَّمَ رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم
 القرآن، فقال عبدالله بن أبيّ ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن
 كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص
 عليه، فقال عبدالله بن رَوَاحَةَ : بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإننا
 نُحِبُّ ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشرّكون واليهود حتى كادوا يتشاورون، فلم

يُزَلُّ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّى
دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو
حُبَابٍ؟ يَرِيدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي، قَالَ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ، اعْفُ عَنْهُ، وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ
بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ لَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهُوا
فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعَصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِّكَ بِذَلِكَ،
فَذَلِكَ فَعَلَّ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ
يَعْفُونَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى،
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ
ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أَبِي بَرْزَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْمَشْرِكِينَ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى
الْإِسْلَامِ، فَاسْلَمُوا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ﴾ أَيِ وَإِنْ تَحْبَسُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ الْجَزَعِ فِيمَا تَتَعَرَّضُونَ لَهُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ
وَالْإِخْتِبَارِ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تَتَعَرَّضُونَ لَهُ مِنْ أَذَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْمَشْرِكِينَ وَتَحْتَسِبُوا مَا تَصَابُونَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَإِنَّكُمْ تَكُونُونَ قَدْ
أَخَذْتُمْ بِأَحْسَنِ مَنَهِجِ الرُّشْدِ مِمَّا يَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَعِزَّمَ عَلَيْهِ وَيَلْتَزِمَ بِهِ.
وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ
مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ لِلتَّأَكِيدِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسُلُوكِ هَذَا الْمَنَهِجِ الرَّشِيدِ حَيْثُ
قَالَ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وَقَالَ: ﴿بَلَى، إِنْ
تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ

الملائكة مَسْؤُومِينَ . ﴿ لينال المسلمون بذلك الدرجات العلى ويحصلوا على
الفوز في الدنيا والآخرة وليكونوا من المحسنين كما قال عز وجل : ﴿ إنه من
يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ .﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض أقوال اليهود المنحرفة من زعمهم أن الله فقير وهم أغنياء ، وما افتروه على الله حيث قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار وما ردَّ الله عز وجل به شبهتهم ، وأدحض فريتهم ، وقَبَّحَ فعلهم حيث وصفهم بأنهم قتلَةُ الأنبياء ، وَوَطَّنَ نفوس المسلمين على استقبال ما ينالهم من أذى المشركين واليهود بالصبر وتقوى الله عز وجل ، ذكر عز وجل هنا قبيحةً من قبائحهم وهي نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم وبيعه بثمن زهيد من حطام الدنيا الفانية حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ فَيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فَكْتَمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالْذُّونِ الطُّفِيفِ ، وَالْحِظِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ ، فَبُئْسَتِ الصَّفَقَةُ صَفَقَتُهُمْ ، وَبُئْسَتِ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ ، وفي هذا تحذير للعلماء أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ ، فَيُصَيِّبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، وَيَسْلُكَ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ ، الدَّالُّ عَلَى

العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئا ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال : من سئل عن علم فكتمه أُجِمَ يلجام من نار اهـ وقوله عز وجل : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا وعيد لكل مَنْ يَعْمَلُ معصية ويفرَحُ بها ، ولكل مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُنْتَنَى عليه بِفِعْلٍ لَمْ يَفْعَلْهُ ، كما هو شأن المنافقين واليهود ، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رجالاتاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ وسلم كانوا إِذَا خَرَجَ النبي ﷺ للغزو تَخَلَّفُوا عنه وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رسول الله ﷺ ، فَإِذَا قَدِمَ النبي ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا ، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَنَزَلَتْ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم أَنَّ مروان قال : اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس فقل : لئن كان كُلُّ امرئٍ منا فَرِحَ بِمَا أَتَى وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ معذباً لَنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ ، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية؟ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ وقال ابن عباس : سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بَغْيِرِهِ ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنَّ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَفَرَحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتَابِهِمْ إِيَّاهُ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ اهـ وَلَا شَكَّ أَنَّ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ نَصٌّ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ وَفِي الْيَهُودِ كَمَا أَنَّ قَوْلَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَا يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ أُنْزِلَتْ فِيهِمْ وَفِي الْمُنَافِقِينَ ، وَالسِّيَاقُ

العام للآيات هو في المنافقين واليهود كما أن لفظ هذه الآية عام يشمل الوعيد لكل مَنْ فعل فعلاً غير محمود وفرح به ، وأحبَّ أن يُحمَدَ بها لم يفعل سواء كان منتسباً للإسلام أو كان من أهل الكتاب لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وإن كان السبب يدخل فيه دُخُولاً أَوَّلِيّاً لأن اللفظ العام سيق من أجله فلا يخرج منه كما نص على ذلك الأصوليون ، أمّا ما يفعله الإنسان من عمل صالح ، ويفرح بتوفيق الله عز وجل له وإعانتة عليه فليس بداخل في هذا الوعيد حيث أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمن تَسْرُهُ حَسَنَتُهُ وَتَسُوؤُهُ سَيِّئَتُهُ فقد روى الترمذي من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال خَطَبَنَا عمرُ بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قُمْتُ فيكم كَمَقَامِ رسول الله ﷺ فينا ، فقال : أُوَصِيكُمْ بأصحابي ثم الذين يَلُونَهُمْ ثم الذين يَلُونَهُمْ ، ثم يَفْشُوا الكَذِبَ حتى يَخْلِفَ الرجلُ ولا يُسْتَحْلَفَ ، وَيَشْهَدَ الشاهدُ ولا يُسْتَشْهَدُ ، أَلَا لَا يَخْلُونَنَّ رَجُلٌ بامرأة إلا كان ثَالِثَهُمَا الشيطان عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وَهُوَ من الاثنين أَبْعَدُ ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجنةِ فَلْيَلْزِمِ الجماعة ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك المؤمنُ . قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه ، وقد رواه ابنُ المبارك عن محمد بن سُوقَةَ وقد رُوِيَ هذا الحديث من غير وجهٍ عن عُمرَ عن النبي ﷺ اهـ ومعنى قوله : ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم . ﴾ أي فلا تَظُنَّنَّ يا محمد هؤلاء الذين هذه صِفَتُهُمْ بمنجاة من عقوبة الله وشديد عذابه ، وقد أُعِدَّ لمن هذه صِفَتُهُ عقابٌ مؤلِّمٌ موجعٌ ، ويجوز أن يكون الخطاب بقوله : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ ﴾ وبقوله : ﴿ فلا تَحْسَبَنَّ ﴾ لكل من يتأتى منه الحسبانُ ، والمقصود على كل حال هو قَطْعُ طَمَعِ هؤلاء المنافقين واليهود في النجاة من عذاب الله وأليم عقابه ، وفي توجيه الخطاب لغيرهم للتنبيه على بطلان آراء هؤلاء المنافقين واليهود والخطُّ من قدرهم ، لا أنَّ رسول

الله ﷻ يظنُّ أنهم بمنجاة من عذاب الله وعقوبته إن كان الخطاب له ﷻ،
وذكرُ قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ للتأكيد وطول
الفصل بين المفعول الأول وهو قوله: ﴿الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن
يحمدا بما لم يفعلوا﴾ والمفعول الثاني وهو قوله: ﴿بمفازة من العذاب﴾
والمفازة هي الصحراء والفلاة والبرية القفر الخالية من الماء، مأخوذة من الفوز
وهو يطلق على النجاة والظفر بالخير وعلى الهلاك فهو من الأضداد قال في
القاموس المحيط: وَالْمَفَازَةُ الْمَنَاجَةُ وَالْمَهْلَكَةُ وَالْفَلَاةُ لَا مَاءَ بِهَا وَفَوَزَ مَاتَ وَقَالَ
الجوهرى في الصحاح: الْفَوْزُ: النجاة وَالظَّفَرُ بِالْخَيْرِ، وَالْفَوْزُ أَيْضاً: الْهَلَاكُ،
تقول منهما: فَازَ يَقُوزُ، وَفَوَزَ أَي مَاتَ، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَا
إِذَا مَا ثَوَى كَعَبٌ وَفَوَزَ جَزْوَ

وقال الكميث:

وما ضرها أن كعباً ثوى وَفَوَزَ مِنْ بَعْدِهِ جَزْوَ
وأفازه الله بكذا ففاز به أي ذهب به، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ
مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي بمنجاة منه، والمفازة أيضاً واحدة المفاوز قال ابن الأعرابي:
سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا مَهْلَكَةٌ مِّنْ فَوْزَ أَي هَلَكَ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سُمِيتَ بِذَلِكَ
تَفَاوُلاً بِالسَّلَامَةِ وَالْفَوْزِ أَهـ قَالَ أَبُو السَّعُودِ الْعِمَادِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ
هنا: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: بعدما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب
حَقَّقَ أَن لَهُمْ فَرْدًا مِنْهُ لَا غَايَةَ لَهُ فِي الْمَدَّةِ وَالشَّدَّةِ، كَمَا تُلَوِّحُ بِهِ الْجُمْلَةُ
الاسمية، والتنكير التفخيمي والوصف أَهـ وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي والله وحده لا شريك له السلطان القاهر في
السموات والأرض يتصرف فيهما، كيف يشاء ويريد إيجاداً أو إعداماً أو
إحياء أو إماتة أو تعذيباً أو إثابة دون أن يكون لغيره شائبة دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ
ذلك بوجه من الوجوه، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ زيادة

تقرير لكمال مالكيته وتمام قدرته وشمول مشيئته لكل شيء في السموات وفي الأرض ، وفي ذلك تنديد بالذين قالوا إِنَّ الله فقير، وأنهم لن يفلتوا من عقاب الله مَلِكِ السموات والأرض وَمَالِكِهِمَا، وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَسَيِّدِهِ، الْحَكَمِ الْعَدْلِ، الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحُكْمُ، وَلَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ، وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيٰتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ﴾ . استئناف سيق لتقرير مضمون ما سَبَقَ من اختصاصه عز وجل بالسلطان القاهر، والمُلْكُ الباهر، والقدرة الكاملة الشاملة، وتصدير هذه الجملة الكريمة بِإِنَّ لتأكيد الاعتناء بتحقيق مضمونها ولفَتِ انتباه ذوي البصائر للتفكر فيها، ليشاهدوا براهين ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنی وصفاته العُلى، كما قال عز وجل : ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد ذكر عز وجل في هذا المقام : خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار . وقد قال عز وجل في سورة البقرة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . ولما كان المقام في سورة البقرة مقام سياق أدلة ألوهيته حيث قال : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾ . ناسب أن يُفَصِّلَ دلائل التوحيد، أما في هذا المقام فَإِنَّ المقصود هو ردع القائلين بأن الله فقير وردع الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فَاكْتَفَيْ فِي هذا المقام بذكر شواهد مُلْكِهِ وقدرته، حيث نبه على ذلك بخلقه السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وتكوين الليل على النهار وتكوين النهار على الليل، حيث إِنَّ من كان له لبٌّ وفهم فإنه يرى في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات وَحُجَجًا وبراهين تدل على أن الله تعالى هو الحق المبین،

الغني عن العالمين ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار
المتكبر الخالق البارئ المصور، جل جلاله وتقدست أسماؤه، ولا يدرك ذلك
إلا أولو الألباب أي أصحاب العقول، ولذلك ختم هذه الآية الكريمة
بقوله : ﴿لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ كما ختم آية سورة البقرة بقوله : ﴿لآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سَبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدَخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ. رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ.﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى شَوَاهِدَ مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَبَّهَ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَفَكَّرُ بِهَذِهِ الْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ أَوَّلُو الْأَلْبَابِ وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ، ذَكَرَ هُنَا جُمْلَةً مِنْ صِفَاتِ أَوَّلِي الْأَلْبَابِ وَهِيَ تَدَوُّرُ بَيْنِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ وَهِيَ أَبْرَزُ صِفَاتِ أَوَّلِي الْأَلْبَابِ وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ الَّذِينَ يُشْغَلُونَ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَحْمِيدِهِ وَتَقْدِيسِهِ وَتَعْجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَشُكْرِهِ عَلَىٰ آلَائِهِ، وَتَرْجِيدِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ شَيْئَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ كَمَا قَالَ عَنَتْرَةَ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَيَبِضُّ الْهِنْدُ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
وَلَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ : ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إِلَى أَنَّهُمْ يَسْتَغْرِقُونَ عَمُومَ أَحْوَالِهِمْ وَأَوْقَاتِهِمْ، وَلَا يَفْتَرُونَ عَنْ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَرَدُّوْنَ فِكْرَهُمْ وَنَظَرَهُمْ فِيهَا بِحَيْطٍ بِهِمْ وَتَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ حَيْثُ يَجِدُونَ صُنْعًا بَدِيعًا مُحْكَمًا مُتَقَنًا، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ خَالِقَهُ وَصَانِعَهُ وَمُبْدِعَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ حَيٌّ قَيُّومٌ مُتَصِفٌ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِدَاثَةِ مَنْزِهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ لَا يَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَكَايْنُ مِنْ

آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها مُعرِّضُونَ. ﴿١٥٥﴾ وكما قال عز وجل: ﴿١٥٦﴾ قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. ﴿١٥٧﴾ وكما قال عز وجل: ﴿١٥٨﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى، ﴿١٥٩﴾ وقد ذكر الله عز وجل أن ذوي الألباب الذاكرين الله عز وجل المتفكرين في خلق السموات والأرض يقولون: ﴿١٦٠﴾ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ﴿١٦١﴾ أي يا سيِّدنا ومالكنا ومُدبِّر أمورنا ومُصلِح شئوننا ما خلقت وأوجدت السموات والأرض البديعة الصنع، العظيمة الشأن باطلاً أي عبثاً عارياً عن الحكمة تنزهت عن ذلك يا عليم يا حكيم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى خلق السموات والأرض بالحق في مقام إثباته للبعث والحساب وجزاء الكافرين بالنار وجزاء المؤمنين بالجنة وأنه لو لم يكن هناك حسابٌ وثوابٌ وعقابٌ يوم القيامة لكان خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً أي عبثاً ولعباً يتنزه الله عز وجل عنه حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿١٦٢﴾ وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار. ﴿١٦٣﴾ إذ ليس كلُّ فاجرٍ وظالم ينال جزاء فجوره وظلمه في الحياة الدنيا، فكم من مجرم يُفْلِتُ من يد حُكَّام الحياة الدنيا، لكنه لن يفلت من يد الحُكْم العدل الذي يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وفي ما حكاها الله عز وجل عن هؤلاء الصالحين من مقدمة هذا القول: ﴿١٦٤﴾ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ﴿١٦٥﴾ المقرون بالتفكر في خلق السموات والأرض إشعاراً بالتوسل إلى الله عز وجل بين يدي الدعاء بالعمل الصالح وتنزيهه الله عز وجل عن كل نقص ولذلك رَتَّبُوا الدعاء على هذا التوسل بالفاء حيث قالوا: ﴿١٦٦﴾ فقنا عذاب النار ﴿١٦٧﴾ أي فصناً وحفظنا وأجرِنا من عذاب جهنم. وقوله عز وجل: ﴿١٦٨﴾ ربنا

إنك من تدخل النار فقد أخزيتَه وما للظالمين من أنصار. ﴿ بيان لتضرع الصالحين إلى الله عز وجل وجؤأَرَهُمْ إليه سبحانه بذكر السبب الذي يحملهم على طلب الوقاية من عذاب النار، لأن من دَخَلَهَا أُخْزِيَ خِزْيًا لا خِزْيَ أكبر منه، وعُذِّبَ عذابًا لا عذابَ أشدَّ منه، وأهينَ إهانةً لا إهانةً أفضَعُ منها، حيث لا يدفع عنهم عذابَ الله دافع، وكان مقتضى السياق أن يقال: ومالهم من أنصار، لكنَّ مقتضى الحال اقتضى وَضَعَ الظاهر وهو لفظُ الظالمين موضع الضمير لدمهم والإشعار بسبب دخولهم النار وهو ظلمهم بوضعهم معصية الله موضع طاعته وأنَّ الله عز وجل ما ظلمهم بإدخالهم النار، ولكنهم هم الظالمون، وقوله عز وجل: ﴿ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا.﴾ هذا تَوَسُّلٌ ثانٍ بين يدي خمس دعوات طَلَبُوهَا من الله عز وجل، حيث توسلوا إليه تبارك وتعالى بأنهم استجابوا لرسول الله محمد ﷺ لما سمعوه يدعو إلى الإيمان فآمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين، ولا شك أن كلَّ داعٍ إلى الإيمان من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة إنما يَدْعُونَ على منهج كتاب الله وهُدًى رسول الله ﷺ، والذين يستجيبون لهم هم في حكم المستجيبين لرسول الله ﷺ والدعوة الأولى من الدعوات الخمس هي طلب مغفرة ذنوبهم، والدعوة الثانية هي طلب تكفير سيئاتهم، والدعوة الثالثة هي أن يُلْحَقَهُم الله عز وجل بالصالحين ويتوفاهم مع الأبرر ويختتم أعمالهم بالصالحات، والدعوة الرابعة هي أن يؤتيهم الله عز وجل ما وعدهم على السنة رسله من نعيم الجنة لمن مات على الإيمان، والدعوة الخامسة هي أن يُنْجِيَهُم من النار المخزية يوم القيامة، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.﴾ وفي بدء الدعوات في هذا المقام الكريم بسؤال الله عز وجل أن

يَقِيهِمْ عَذَابُ النَّارِ الْمُخْزِيَّةِ لِمَنْ يَدْخُلُهَا ، وَخَتَمَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ بِسُؤَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُخْزِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِدُخُولِ النَّارِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَى أَنْ الْفَائِزُ السَّعِيدُ هُوَ مَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَلِلَّهِ فِي الْقَائِلِ :

تَقُولُ مَا لَكَ لَمْ تَضْحَكْ وَقَدْ نَظَرْتُ عَيْنَاكَ مُضْحِكَ تَكَلَّى ذَاتِ أَفْكَارٍ فَقُلْتُ يَمْنَعُ ضِخْكِ جَهْلُ عَاقِبَتِي وَإِنَّمَا يَضْحَكُ النَّاجِي مِنَ النَّارِ

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

«يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ : وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً» فِي

حَدِيثِ الْكَسُوفِ وَفِي تَذْيِيلِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ

الْمِيعَادَ﴾ إِشْعَارَ بِكَمَالِ الضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالشَّعْرِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَا

يَخْلَفُ الْمِيعَادَ وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ التَّأَكِيدُ بِأَنَّهُ صَادِقُ الْوَعْدِ وَالْإِشَارَةُ إِلَى

أَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مَنْ خُلِفَ وَعْدُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ مَنْ أَنْ يُزَيِّهُمُ

الشَّيْطَانُ وَيَخْشَوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ نَسَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُثَبِّتَنَا

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ . وَالْمُرَادُ بِالْمِيعَادِ

الْوَعْدُ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ هُوَ شَبِيهِ

بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي

أَمْرِنَا﴾ هَذَا وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ

قَرَأَ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ﴾ فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ عَنْ

كُرَيْبٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : بَتُّ عِنْدَ خَالَتِي مِيمُونَةَ ،

فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ

فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقَالَ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .﴾ ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ ، وَاسْتَنْزَلَ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ

رَكْعَةً ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ فِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ

من طريق مُحَمَّدَ بن سليمان عن كُرَيْبٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
بِتُّ عند خالتي ميمونة ، فقلتُ : لَأَنْظُرَنَّ إِلَى صلاة رسول الله ﷺ ، فَطُرِحَتْ
لرسول الله ﷺ وسادةٌ ، فنام رسول الله ﷺ في طُوبَاهَا ، فجعل يَمْسَحُ النَوْمَ عن
وجهه ، ثم قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتى خَتَمَ ، ثم أتى شِئْنًا
مُعَلَّقًا ، فأخذه فتوضأ ، ثم قام يصلي ، فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ ، ثم
جئتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي ، ثم أَخَذَ بِأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا ،
ثم صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ، ثم
صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم أوتر . كما روى البخاري ومسلم من
طريق مُحَمَّدَ بن سليمان عن كُرَيْبٍ مولى عبدالله بن عباس أن عبدالله بن
عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته ، قال :
فاضْطَجَعْتُ في عرض الوسادة واضْطَجَعَ رسول الله ﷺ وأهله في طُوبَاهَا ، فنام
رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل ، أو قَبْلَهُ ، أو بَعْدَهُ بقليل ثم
استيقظ رسول الله ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَوْمَ عن وجهه يَدَيْهِ ثم قرأ العَشْرَ
الآيات الخواتِمَ من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شِئْنٍ مُعَلَّقَةٍ ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ،
فَأَحْسَنَ وُضْوءَهُ ، ثم قام يصلي ، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ ، ثم ذهبتُ فَقُمْتُ
إلى جنبه ، فَوَضَعَ رسول الله ﷺ يَدَهُ اليمنى على رَأْسِي ، وأخذ بأُذُنِي بيده
اليمنى يَفْتِلُهَا ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم
ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذِّنُ ، فقام فصلى
ركعتين خَفِيفَتَيْنِ ، ثم خرج فصلى الصبح . وفي لفظ لمسلم من طريق محمد
ابن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن عبدالله بن عباس أنه رقد عند
رسول الله ﷺ ، فاستيقظ فَتَسَوَّكَ وتوضأ وهو يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . ﴾ فقرأ هؤلاء الآيات
حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود

ثم انصرف فنام حتى نَفَخَ ثم فَعَلَ ذلك ثلاث مراتٍ ستَّ ركعات ، كُلُّ ذلك يَسْتَاكُ ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ، ثم أوتر بثلاث ، فأذَّن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، واجعل في سمعي نوراً ، واجعل في بصري نوراً ، واجعل من خلفي نوراً ، ومن أمامي نوراً ، واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً ، اللهم أعطني نوراً ، اهـ والظاهر أن رواية محمد بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس كانت في ليلة أخرى . والعلم عند الله عز وجل ، وفي قوله في الحديث : قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران هو تَجَوَّزٌ لأنها إحدى عشرة آية لا عشر آيات ، هذا والأوصاف التي ذكرها الله عز وجل لذوي الأبواب في هذا المقام تُشَبِّهُهَا الأوصاف التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الوارد في فضل مجالس الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا : هَلُمُّوا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم : ما يقول عبادي قال : يقولون يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك ، فيقول هل رأوني فيقولون لا والله ما رأوك فيقول كيف لو رأوني قال يقولون لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة وأشدَّ لك تمجيذا وأكثر لك تسييحاً فيقول فماذا يسألون قال : يقولون يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها قال : يقولون والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصا وأشدَّ لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون ؟ قال : يتعوذون من النار . الحديث .

قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ . لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . ﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من صفات أولى الألباب التي اشتملت على بيان مواظبتهم على ذكر الله ، وتفكيرهم في خلق السموات والأرض ، وضراعتهم وابتهاهم إلى الله عز وجل أن يقيهم عذاب النار المخزية لمن دَخَلَهَا ، وسؤالهم ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم وأن يتوفاهم مع الأبرار وأن يدخلهم الجنة ، وأن لا يخزيهم يوم القيامة ، بعد تقديم الثناء عليه والتوسل بذلك وباستجابتهم لداعي الإيمان ، وانخراطهم في سلك المؤمنين بين يدي دعائهم ثم ختم هذا الدعاء بالثناء عليه بِصِدْقٍ وَعَدِهِ وأنه لا يخلف الميعاد ، ذكر عز وجل هنا أنه استجاب لهم دعاءهم ولم يُجِيبْ رجاءهم حيث قال تبارك وتعالى : ﴿ فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي فَأَجَابَهُمْ سَيِّدُهُمْ وَمَالِكُهُمْ وَمُصْلِحُ شُؤْنِهِمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورِهِمْ ، والعرب يستعملون استجاب له واستجابه وأجابه بمعنى واحد كما قال عز وجل هنا : ﴿ فاستجاب لهم ﴾ وقال في سورة الشورى : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ

إذا دعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴿١﴾ وقد جَمَعَ الشاعرُ كعبُ ابن سعدٍ الغنويُّ بَيْنَ استجاب وأجاب في بيت من شعره في رثاء أبي المغوار حيث يقول :

وَدَاعَ دَعَا : يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ
وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يدعونه ويسألونه حوائجهم ،
ويبتهلون إليه وحده حيث يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . ﴾
وكما قال عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى :
﴿ أَنَّى لَا أَضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ بعد
أن بَشَّرَ الله تبارك وتعالى عباده الصالحين بأنه استجاب لهم دعاءهم حَضَّ
عموم عباده على الإقبال على طاعته ، والتَزَوُّدِ بالأعمال الصالحة ، من أي لون
كانوا أو من أي جنس ، لأن الله عز وجل لا ينظر إليهم باعتبار ذكورهم أو
إناثهم أو صورهم أو ألوانهم أو أنسابهم أو أوطانهم وإنما ينظر إلى قلوبهم
وأعمالهم فمهما عمل العبد عملاً فإنه عز وجل يُحْصِيهِ ويحفظه ويثيب عامله
عليه ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ عَمَلٍ خَلَقَهُ وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ بِغَضِّ النظر عن جيله أو قَبِيلِهِ
أو كونه ذكراً أو أنثى فالكلُّ لآدم وآدم من تراب ، وأكرم الخلق عند الله
أَتْقَاهُمْ ، ولما كانت أعمالُ الخير متفاوتة الدرجات ذكر الله تبارك وتعالى هنا
صوراً مُشْرِقةً مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَجَعَلَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الذَّرْوَةِ مِنَ الْعَمَلِ
الصَّالِحِ الْمُسْتَجْلِبِ لِرِضْوَانِ اللَّهِ عز وجل ، ووَعَدَ أَهْلَهَا بِتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِمْ ،
وإِدْخَالِهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حيث قال عز وجل هنا : ﴿ فَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذَوْا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ

سيئاتهم ولأَدْخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثواباً من عند الله ، والله عنده حُسْنُ الثواب . ﴿ وهذه الصفات يدخل فيها المهاجرون إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ والمهاجرون من مكة إلى المدينة ، ويدخل فيها كذلك سائر من يهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام إلى يوم القيامة ، وكذلك كل من أخرجوا من ديارهم بسبب استمساكهم بدين الإسلام إلى يوم القيامة ، وكذلك كل من أُوذِيَ في سبيل الله ، وجَاهَدَ أعداء الله ، وفاز بالشهادة في سبيل الله ، وفي هذا حض لأصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على الصبر وتقوى الله عز وجل ليفوزوا بما وعد الله عز وجل في هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم أصحاب هذه الصفات بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات النعيم . وقوله عز وجل : ﴿ ثواباً من عند الله ، والله عنده حُسْنُ الثواب ﴾ إشارة إلى أن الثواب الذي يثيبُ الله عز وجل به المؤمنين جزاءً لهم على ما عملوا وأبلوا في الله عز وجل تَمَسُّكاً بدينه وإعزازاً لشرعه ونُصْرَةً لرسله وكتبه ، وجهاداً في سبيله هو ثوابٌ عظيم لا يبلغه وصف الواصفين لأنه عطاءٌ من عند الله العظيم الكريم الذي أخبر عنه رسوله وخاتمُ أنبيائه وأفضلُ خلقه محمدٌ ﷺ فيما رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرءوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ لا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . ﴾ هذا خطاب لكل من قد يغترُّ بما يشاهد ما عليه الكفار من الترف والنعمة والغبطة والسرور ورغد العيش والصحة مما أمدَّهم الله عز وجل به إماء لهم واستدراجاً لأنه قريب الزوال ، سريع الاضمحلال ، ثم ينتقلون عنه ويخلفونه وراءهم ، ويستقبلون الحسرة التي لا تنتهي والحزن الذي لا يزول في

نار جهنم كما قال عز وجل : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا
 يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۚ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا
 يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۚ ﴾ ومعنى : ﴿ لَا يَغُرَّتْكَ ﴾ أي لا
 يَحْدَعَنَّكَ ، والتَّقَلُّبُ في البلاد كناية عن التَّنَقُّلِ والأسفار في طلب التجارات
 وجلب الأرزاق والحصول على ملذات الحياة الدنيا من جهات الأرض ؛ لأن
 الدنيا هي جَنَّتُهُمْ ، وهي في الواقع سِجْنُ المؤمن ؛ لأن النعيم الحق والمتاع
 الذي لا يزول ، ولا تُذَرِّكُهُ المنغصاتُ ، هو متاع الجنة ونعيمها . وقد روى
 مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الدنيا
 سِجْنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافر . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
 خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۚ ﴾ لما ذكر عز وجل حال الكفار بِقَلَّةِ نفع تقلبهم في التجارة
 وتصرفهم في البلاد واستدراجهم برغد العيش مما قد يتوهم مُتَوَهِّمُ أَنَّ التجارة
 من حيث هي مختصة بذلك فاستدرك أن المتقين وإن تَقَلَّبُوا في البلاد فإنه لا
 يضرهم ذلك وأنَّ لهم ما وعدهم الله عز وجل من جنات النعيم ، ومعنى قوله
 تبارك وتعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي ضِيَافَةٌ وإكراماً من الله عز وجل
 للمتقين ، والنُّزْلُ في الأصل هو مَا يُعَدُّ وَهَيْئاً للضيف إكراماً لَهُ ، ثم صار
 يطلق على كل رزقٍ وعطاءٍ ومكافأةٍ ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
 مَّعْلُومٌ . فَوَاكُهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ
 عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
 يُنَزَّفُونَ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ . فَأَقْبَلَ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَأُنْكَ
 لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ . أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَعِنَّا لَمُذِنُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ
 مُطَّلِعُونَ . فَاطْلَعُوا فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ . وَلَوْلَا

نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما
 نحن بمعذبين . إن هذا هو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون .
 أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم . ﴿ وكما قال عز وجل فيما أعده لأعدائه في
 النار: ﴿ فنزل من حميم ﴾ وكما قال عز وجل فيما أعده لأوليائه في الجنة :
 ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور
 رحيم . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ هذا تذييل للإشعار
 بأن الصفات المذكورة هي من أعمال البر التي من مات عليها كان مع الأبرار
 تحقيقاً لدعوتهم : ﴿ وتوفنا مع الأبرار . ﴾ وأن الذي أعده الله للأبرار لا تدانيه
 نعمة من نعم متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي منحت للذين تقلبوا في
 البلاد . وقوله عز وجل : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل
 إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم
 أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب . ﴾ هذا بيان لمحاسن بعض أهل
 الكتاب الذين سارعوا إلى الإيمان بالله وتصديق رسوله محمد ﷺ والإيمان
 بالقرآن وبالتوراة المنزلة على موسى وبالإنجيل المنزل على عيسى عليهما السلام
 كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وقد ذكر عز وجل لهؤلاء منقبتين : الأولى
 ظهور الخشوع لله عليهم المنبعث من إيمانهم ، والثانية أنهم يخالفون المحرفين
 للكلم من بعد مواضعه الكاتمين للحق من أهل الكتاب ، فهم لا يَرْضَوْنَ
 بيع ما علموا من الحق بعرض من الدنيا ، وَيُؤْثِرُونَ أمر الله عز وجل على
 هوى أنفسهم ، وقوله عز وجل : ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ إشارة إلى
 علو منزلتهم عند الله ، وأنهم يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين بما صبروا ، وَيُعْطَوْنَ كِفْلَيْنِ
 من رحمة الله ، وفي قوله عز وجل في فواتح سورة آل عمران : ﴿ نزل عليك
 الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . ﴾ وقوله في خواتم
 السورة : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل

إليهم ﴿ تأييد للقول بأن الحروف المفارقة في أوائل السور إشارة إلى التحدي والإعجاز حيث يذكر الله عز وجل عقب هذه الحروف في افتتاحيات السور القرآن صراحة أو ضمناً ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمن به أو مكذّب له وأن المؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذمّ المكذبين وبيان سوء عاقبتهم كما أشرتُ إلى ذلك في افتتاحية سورة البقرة . وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تأكيد لنفوذ علمه بجميع أعمال خلقه . كما قال عز وجل ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . ﴾

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقُوا اللَّهَ لعلكم تفلحون﴾

هذه خاتمة المسك من سورة آل عمران ، وقد أمر الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بالصبر والمصابرة والمراطة والتقوى وبين لهم أن تطبيق هذه الأوامر الأربعة يوصلهم إلى الفلاح والفوز والنجاة ، ولما كانت هذه السورة المباركة اشتملت على قصة وفد نصارى نجران حيث نزل في ذلك نحو ثمانين آية من صدرها واشتملت على قصة غزوة أحد حيث نزل في ذلك نحو ستين آية ، وفي كل قصة من القصتين تجلت ألوان من الصراع بين الحق والباطل ، انتهت بظهور الحق واندحار الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، ولما كانت المجابهة بين الحق والباطل تقتضي من المؤمنين التزام الصبر لأنه دعامة من أهم دعائم النصر ، ذكر الله عز وجل هذه الصفة الكريمة في مواطن كثيرة من هذه السورة الكريمة ، وبدأ ذلك بالشناء على الصابرين حيث جعلهم على رأس عباده الصالحين حيث يقول : ﴿قل أُوْنِيبُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَالِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقْنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . ﴾ وقال عز وجل في تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من اتخاذ بطانة كافرة في الآية التي تلتها مباشرة الآيات التي نزلت في قصة غزوة أحد وحمراء الأسد وكأنها بمثابة التمهيد لذلك حيث يقول عز وجل : ﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . ﴾ ثم قال عز وجل في مقدمات قصة غزوة أحد وحمراء الأسد مذكرا عباده المؤمنين بنصر الله لهم يوم

بدر: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.﴾ ثم قال عز وجل في فقه غزوة أحد: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين.﴾ ثم قال عز وجل: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين.﴾ ثم قال عز وجل لتوطين نفوس المؤمنين على ما سيصيبهم من الأذى من أعداء الإسلام: ﴿لتبلىون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور.﴾ ثم ختم هذه السورة المباركة بهذه الآية الكريمة حيث أمر المؤمنين فيها بالصبر والمصابرة والرابطة وتقوى الله عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.﴾ والفرق بين الصبر والمصابرة أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع مما يصيبها من مصيبة أو يلزمها من تكاليف وما قد تتعرض له من شهوات محرمة، وأما المصابرة فهي مُغَالَبَةُ أعداء الله بالصبر في مواطن الحروب، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ورابطوا﴾ أي أقيموا في الثغور رابطين خَيْلَكُمْ فيها مترصدين للعدو، مستعدين له، كما قال عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى المرابطين في سبيل الله لحفظ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين بالأجر الجزيل والثواب الجليل فقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم

من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وروحةٌ يروحُها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوةُ خير من الدنيا وما عليها . كما روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه أجري عليه عمله الذي كان يعمل ، وأُجرِي عليه رِزْقُهُ ، وأمنَ الفَتَّانَ ، كما روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كلُّ ميّتٍ يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله ، فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر ، كما روى الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ، كما روى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : من مات مرابطاً في سبيل الله أُجرِي عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل ، وأجرِي عليه رزقه ، وأمنَ من الفَتَّانِ ، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر . كما روى الترمذي وقال : حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عيان لا تمسُّهما النار : عَيْنٌ بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله . هذا ويدخل في معنى المرباط في سبيل الله من ربط فرسه وأعدّه للجهاد في سبيل الله وإن كان في أهله وقد أشار رسول الله ﷺ إلى فضله ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : طوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانٍ فرسه في سبيل الله ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة . الحديث . كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من خير معاش الناس لهم رجلٌ ممسكٌ بِعِنَانٍ فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه كُلَّمَا

سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِهِ ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ أَوْ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ . الْحَدِيثُ .
 كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : فَالْخَيْلُ قَالَ : الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ : هِيَ لِرَجُلٍ وَزَرٌّ وَهِيَ
 لِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وَزَرٌّ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِبَاءً وَفَخْرًا
 وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ لَهُ وَزَرٌ ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظَهْرِهَا وَلَا رِقَابِهَا ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ
 رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ
 أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٍ ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ
 أُرْوَاتِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ ، وَلَا تَقْطَعُ طَوْلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفِينَ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ
 لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأُرْوَاتِهَا حَسَنَاتٍ ، وَلَا مَرَّبَهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا
 يَرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدُ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ . الْحَدِيثُ . كَمَا رَوَى
 الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
 قَالَ : مَنْ اخْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ
 وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . يَعْنِي حَسَنَاتٍ . كَمَا أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تُعَدُّ رِبَاطًا فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ
 حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا
 يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ :
 إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ
 الصَّلَاةِ ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ ، وَهَذِهِ الْبَشَارَةُ لِمَنْ أَسْبَغَ الْوُضُوءَ
 عَلَى الْمَكَارِهِ وَأَكْثَرَ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتَظَرَ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ بِأَنَّهُ مُرَابِطٌ
 شَبِيهُةٌ بِبَشَارَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدِ قِبَاءٍ رَكَعَتَيْنِ بَأَنَّ لَهُ أَجْرَ عُمْرَةٍ
 فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :

صلاة في مسجد قباء كعمرة، وقد صححه المنذري في الترغيب والترهيب حيث قال: ولا نعرف لأبيد حديثاً صحيحاً غير هذا. اهـ كما روى أحمد والنسائي وابن ماجه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قَبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عَمْرَةٍ. ولا خلاف عند أهل العلم على أن من كانت عليه عمرة فصلّى ركعتين في مسجد قباء لا تسقط العمرة عنه بهذه الصلاة التي صلاها في مسجد قباء، إذ المقصود بيان عظيم الأجر لمن صلى في مسجد قباء، وكذلك بيان عظيم الأجر لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثر الخطا إلى المساجد وانتظر الصلاة بعد الصلاة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. هذا هو الأمر الرابع من هذه الأوامر التي اشتملت عليها هذه الآية الخاتمة الجامعة لأسرار الأحكام والحكم التي سبقت من أجلها هذه السورة المباركة، وتقديم الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة في الذكر قبل الأمر بتقوى الله عز وجل لأن الصبر والمصابرة والمرابطة كلّها من أسباب تقوى الله عز وجل كجميع الأوامر والنواهي التي جاءت في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله محمد ﷺ إذ كلّها تدور في فلك تربية تقوى الله عز وجل في نفوس عباده ليفوزوا في العاجلة والآجلة، ويسعدوا في الدنيا والآخرة، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى القرآن العظيم هُدى للمتقين، وقد نَبَّهَ الله تبارك وتعالى إلى ذلك عند ذكر كثير من الأحكام والعبادات سواء كانت بدنية أو مالية أو غير ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

والموفون بعهدهم إذا عَاهَدُوا والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأسِ ،
أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . ﴿ ثم قال في تشريع القصاص :
﴿ ولكن في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون . ﴾ ثم قال في
تشريع الوصية : ﴿ حقا على المتقين . ﴾ ثم قال في تشريع الصيام : ﴿ يا أيها
الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم
تتقون . ﴾ ثم قال : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون . ﴾ وقد تم
تفسير هذه السورة المباركة بعد صلاة فجر يوم الخميس السادس عشر من
شعبان سنة تسع وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية بمنزلنا بمدينة الرياض
فلله الحمد والمنة .

تفسير

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا.﴾

هذه سورة النساء، وقد يطلق عليها اسم سورة النساء الطولى، كما قد يطلق على سورة الطلاق سورة النساء القصوى، وسميت سورة النساء لأن الله شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث اسْتَشْفَقْنَ رِيحَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كنَّ نصيبا من الميراث، وفرض الله لهن على الأزواج مهرا، جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء، وحرَّم على الرجال عَظْلَهُنَّ، في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام، ومناسبة افتتاحية هذه السورة الكريمة لخاتمة السورة التي قبلها أنه ذكر في ختام السورة السابقة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.﴾ وذكر في افتتاحية هذه السورة الكريمة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا.﴾ كما أن الله عز وجل قال في خواتيم المسك من سورة آل عمران: ﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَنَّى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ وقال في مطلع سورة النساء: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ مما يؤكد أن

بعضهم من بعض ، فالمناسبة بين خواتيم سورة آل عمران ومطلع سورة النساء في غاية الوضوح والظهور . وهذه السورة مدنية فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ﷺ تعني أنه قد تزوجها ودخل عليها قبل نزول سورة البقرة وسورة النساء ، وهذا يردُّ قولَ بعض الناس : إن قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس﴾ حيث وقع في كتاب الله فهو مكّي . ولأنه قد وقع في البقرة : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقال : ﴿يا أيها الناس كلُّوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ وسورة البقرة مدنية كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها المذكور آنفاً ، قال ابن كثير في تفسيره : والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف اهـ وما ينبغي لفت الانتباه إليه من وجوه إعجاز القرآن أنَّ الله تبارك وتعالى افتتح سورتين من القرآن العظيم بقوله تعالى : ﴿يا أيها الناس﴾ وهما سورة النساء هذه وسورة الحج ، ومن العجيب أن سورة النساء هي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن ، وسورة الحج هي السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن . كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة النساء أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة الحج أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ ومن العجيب كذلك أنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمرهم بتقوى ربهم في سورة النساء علل ذلك بذكر نشاطهم الأولى ، وأنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمرهم بتقوى ربهم في سورة الحج علل ذلك بذكر نشاطهم الثانية ومَعَادِهِمْ ، فسبحان من أنزل هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وقوله عز وجل : ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يُعْمُّ جميع المكلفين الموجودين عند مجيء هذا الخطاب كما يُعْمُّ من يجيء من الناس ويبلغ حدَّ التكليف إلى يوم القيامة ، ولا خلاف عند علماء أمة محمد ﷺ أنَّ

آخر هذه الأمة مُكَلَّفٌ بما كُفِّلَ به أَوْلَهَا، وقد صَدَّرَ الله عز وجل أوامر هذه السورة المباركة بتقواه عز وجل وهي مراقبته في السر والعلن والعسر واليسر والشدة والرخاء والمنشط والمكره، وفي جميع الأحوال، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تنبيه على قدرته عز وجل وأنه لا يعجزه شيء حيث خلق جميع الناس من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وأشكالهم وصورهم وأقطارهم وأعصارهم، والمراد بالنفس الواحدة التي خلق الله عز وجل منها جميع الناس هو آدم عليه السلام، وقد خلقه الله عز وجل من قبضة قَبَضَهَا من تراب الأرض وقد اجتمع في هذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض، ولذلك جاء بنو آدم على هذه الألوان كما روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسنٌ صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاسْتَمِعَ مَا يُجِيبُونَكَ فَإِنِهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فزادوه وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ. وقوله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هو زيادة تنبيه على عظيم قدرته ونعمته، أي وخلق وأوجد من هذه النفس الواحدة زوجة لهذه النفس تسكن إليها وتطمئن بها والمراد بهذه الزوج حواء عليها السلام أم جميع بني آدم حيث خلقها الله عز وجل من ضِلَعٍ من أضلاع آدم كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استوصوا بالنساء

خيراً، فإنَّ المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإن أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإن
 ذَهَبَتْ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً.
 ووصف النفس بأنها واحدة مع أن المراد بها آدم وهو ذكرٌ لمراعاة لفظ النفس
 فإنَّ لفظ النفس مؤنث حتى لو أريد به المذكر، كما أن لفظ الزوج يطلق على
 الذكر وعلى الأنثى فيقال: هذا زوج فلانة وهذه زوج فلان. وقد بين الله عز
 وجل أن من آياته أن خلق للرجل زوجة يسكن إليها حيث يقول تبارك
 وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن
 إليها﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن آياته أن خلقَ لكم من أنفسكم أزواجا
 لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً، إن في ذلك لآيات لقوم
 يتفكرون﴾. ففي تخصيص الله عز وجل الذكور بصفات وأعضاء الذكورية
 وتخصيص الإناث بصفات وأعضاء الأنثوية مما يهيئهنَّ للحمل والولادة
 والإرضاع وغير ذلك آيات وبراهين لذوي البصائر والأفكار الذين يُعْمَلُونَ
 نظرهم ويتدبرون في خلقِ الذكر والأنثى فيعرفون أن ذلك صنْعُ الله الذي
 أتقن كلَّ شيء، وأنه لا إله غيره ولا معبود بحق سواه وقوله تبارك وتعالى:
 ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي وذراً ونَشَرَ وَفَرَّقَ من النفس الواحدة
 وزوجها يعني آدم وحواء ذكورا كثيرين وإناثاً كثيرةً وفي قوله عز وجل:
 ﴿ونساء﴾ ولم يقل: ونساء كثيرة اكتفاء على طريق الأسلوب البلاغي المعروف
 في علم البديع بالاكتفاء حيث ذكر هذا الوصف مع الرجال فاكْتَفِيَ بذكره في
 ذلك عن ذكره في النساء وقوله: ﴿رجالاً﴾ و﴿نساء﴾ ولم يقل: ذكورا
 وإناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بوصول الكثير من النوعين إلى مبلغ
 الإنجاب على أن وصف الذكر بالرجولية قد يطلق عليه من وقت ولادته كما
 قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله
 عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقِيَ فهو لأولى رجل

ذَكَرَ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي واملئوا قلوبكم بالخوف من الله عز وجل حتى تكونوا على حذر شديد من مخالفة أمره أو الوقوع في معاصيه ، واحذروا أن تقطعوا أرحامكم ، وهذا على قراءة ﴿والأرحام﴾ بالنَّصْبِ ، وهي قراءة القراء السبعة ما عدا حمزة فإنه قرأها بالجر وفي قراءة العامة هذه إشعار بخطورة قطع الرحم ، وتنبيه إلى وجوب التواصل بين الأقارب ، ولذلك وَعَدَ اللَّهُ عز وجل الرَّحِمَ بِأَنْ مَنْ وصلها وصله الله ومن قطعها قطعها الله ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى خَلَقَ الخلقَ حتى إذا فَرَّغَ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة قال نعم ، أما تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ ، قالت : بلى ، قال : فَذَلِكَ لَكَ ثم قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقْطَعُوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم .﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿الذي تساءلون به﴾ تنبيه للعباد على أن الله عز وجل قد جبل النفوس على الإقرار به حتى في الجاهلية إذ كانوا يقرون به ، ويسأل بعضهم بعضا به عز وجل فيقول الإنسان منهم لمن أراد منه حاجة أسألك بالله ، كما يفعل ذلك المسلمون أيضا ولذلك جاء في قصة الأبرص والأقرع والأعمى التي رواها البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم . الحديث ، وفيه أنه قال للأبرص : أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتَبْلُغُ عليه في سفري . وأنه قال للأعمى : أسألك بالذي رَدَّ عليك بصرك شاة أتَبْلُغُ بها في سفري . وقد حض رسول الله ﷺ على قضاء حاجة من سأل بالله ، فقد قال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن مجاهد عن

عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه . الحديث وقال النسائي : أخبرنا قتيبة قال : حدثنا أبو عَوَانَةَ عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألکم بالله فأعطوه . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْأَرْحَامَ ﴾ بالجر على قراءة حمزة معطوف على الضمير المجرور في قوله : ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ أي ويسأل بعضكم بعضا بالرحم ، والسؤال بالرحم على غير قصد القسم جائز والمقصود به الاستعطاف ، وليس من باب القسم بغير الله الذي جعله رسولُ الله ﷺ شركا وكفرا ، فإذا قلت : أسألك بالرحم أي أسألك بسبب الرحم فإنه لا يكون إقساما بالرحم ، ولذلك جاز ؛ لأن الرحم توجب لأصحابها بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حقوقا ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي إن الله عز وجل مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِكُمْ وظواهركم شهيد عليكم فراقبوه مراقبة مَنْ يراه ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا تَرَوْنَهُ فَإِنَّهُ يَرَاكُمْ .

قال تعالى : ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

بعد أن صَدَّرَ الله تبارك وتعالى هذه السورة المباركة بأمر الناس بتقوى ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم أكد ذلك الأمر حيث أمرهم مرة ثانية في نفس الآية بتقوى الله الذي يسأل بعضهم بعضاً به حتى في جاهليتهم، وحذرهم بعد ذلك من قطيعة الرحم، شَرَعَ يُوصِي عباده بوجوب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم، وصيانة أموالهم، في ثماني آيات بدأت من الآية الثانية من هذه السورة الكريمة إلى نهاية الآية التاسعة منها، نبه فيها بصفة خاصة إلى حقوق اليتيمات وحذر أولياءهن من العبث بهذه الحقوق أو تضييعها ولا سيما فيما يتصل بشأن الزواج منهن، وبين الطريق السَّوِيَّ لتدريب اليتامى على حُسن المحافظة على أموالهم إذا بلغوا سنَّ الرُّشْدِ، ولما كان المال قد جعله الله عز وجل قياماً للناس وكما قيل : المَالُ عَصَبُ الْحَيَاةِ - صَدَّرَ الله عز وجل هذه الوصايا بوجوب المحافظة على مال اليتيم مطلقاً حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ثم ختم هذه الوصايا بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي وأعطوا اليتامى أموالهم التي هي لهم تحت أيديكم، باعتباركم أوصياء عليهم، وهذا الأمر يشمل صورتين : الأولى أن يكون اليتيم دون سنَّ الرُّشْدِ وحينئذ يكون الوصى

مأمورا بأن يدفع له ما يحتاجه من الطعام والكسوة وسائر نفقاته من مال
 اليتيم الذي تحت يد الوصي، إذ أنه قبل البلوغ لا يجوز أن يُمكَّنَ من
 الاستبداد بكامل ماله، كما قال عز وجل: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ والصورة الثانية هي تسليمه كامل ماله بعد بلوغ الرشد،
 وأطلق عليه اسم اليتيم باعتبار ما كان، وفي التعبير به إشعار بسرعة الدفع
 إليه حيث هو قريب العهد بتسميته يتيما، وهو شبهه بقوله عز وجل في
 المطلقة الرجعية: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
 أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ إذ المراد من بلوغ الأجل هو مقاربة بلوغه، لأنه إذا
 انتهى الأجل وانقضت العدة فإنه لا يملك عليها حق الرجعة كما أوضحت
 ذلك في تفسير سورة البقرة، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ﴾
 تحذير شديد للأوصياء وغيرهم من أكل المال الحرام مطلقا، وتغذية الجسم به
 بدّل تغذيته بالحلال الطيب، ويدخل في ذلك التحذير من أكل مال اليتامى
 من باب أولى إذ السياق فيه، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
 أَمْوَالِكُمْ﴾ هو تحذير آخر شديد للأوصياء وغيرهم من الطمع في أموال
 اليتامى، وتنديد بمن يكون غنيا من الأوصياء ولا يتورّع عن ضمّ مال اليتيم
 إلى ماله بقصد زيادة ثروة الوصي وسلب حق اليتيم، وفيه إشارة إلى أن من
 كان فقيرا من الأوصياء فإن له الحق أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف كما قال
 عز وجل: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾
 والتعبير بالأكل في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ لأنه المقصود
 الأعظم من الاستيلاء على المال، وليس ذلك قصراً للتحريم على الأكل
 وحده بل المقصود منه النهي عن أكل أموال اليتامى والاستيلاء عليها بطريق
 غير مشروع سواء كان أكلا أو شربا أو كسوة أو مركبا أو مسكنا أو إتلافا أو
 إهداء أو غير ذلك من وجوه إضاعة مال اليتيم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ

كان حوبًا كبيراً ﴿أي إنَّ التعدي على أموال اليتامى إثم عظيم وجرم كبير
 وذنوب مُهْلِكٌ لصاحبه مُتْلِفٌ له فالْحُبُّ هو الإثم والهلاك، وقولُه عز
 وجل: ﴿وإن خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء
 مثنى وثلاث ورباع﴾ بعد أن أمر الله عز وجل في الآية السابقة بإيتاء اليتامى
 أموالهم وحذّر من إتلافها وأكلها شرع هنا في التنبيه على حقوق النساء
 اليتيمات ووجه الخطاب لأولياء يتامى النساء بوجوب المحافظة على حُقُوقِهِنَّ
 وبخاصة إذا كان وليُّ اليتيمة ممن يباح له الزواج بها، وحذّرهُم من أفعال
 أهل الجاهلية حيث كان الواحد من هؤلاء الأولياء إذا كانت عنده يتيمة وهو
 وليها، فإن كانت جميلة ولها مالٌ رغب فيها لما لها وجمالها وتزوجها دون أن
 يعدل في صداقها، فحذّرهم الله عز وجل من ذلك وأمرهم إذا لم يتمكنوا من
 الإقساط في حق يتامى النساء اللاتي تحت ولايتهم أن يتعدوا عن الزواج
 منهن، وأن الله عز وجل قد وسع عليهم بأن أباح لهم أن يتزوجوا ما طاب لهم
 من النساء مثنى وثلاث ورباع، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإن خِفْتُمْ ألا
 تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾
 أي وإن خشيتُم وعلمتُم من أنفسكم أنكم لن تعدلوا في يتامى النساء اللاتي
 تحت ولايتكم بإعطائهن حَقَّهُنَّ في الصداق وحسن العشرة وعدم أكل
 أموالهن فلا تنكحوهنَّ وقد وسّع الله عز وجل عليكم فتزوجوا غيرهنَّ من
 النساء إن شئتم تزوجتم زوجتين أو ثلاث زوجات أو أربع زوجات من
 طيبات النساء، وقد أجمع علماء الأمة ممن يُعْتَدُّ بإجماعهم على تحريم الجمع
 بين أكثر من أربع نساء قال الشافعي رحمه الله: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ
 المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع
 نسوة قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه
 بين العلماء اهـ وقد قال أبو داود في سننه: باب في من أسلم وعنده نساء أكثر

من أربع أو أختان . حدثنا مسدد ثنا هشيم ح وثنا وهب بن بقية ، أخبرنا هشيم عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن الحارث بن قيس قال مسدد : ابن عميرة وقال وهب : الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ : اختر منهن أربعاً . قال أبو داود : وحدثنا به أحمد بن إبراهيم ثنا هشيم بهذا الحديث فقال : قيس بن الحارث مكان الحارث بن قيس قال أحمد بن إبراهيم هذا الصواب ، يعني قيس بن الحارث . حدثنا أحمد بن إبراهيم ثنا بكر بن عبد الرحمن قاضي الكوفة عن عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن قيس بن الحارث بمعناه اهـ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ ﴾ قالت : يا ابن أخي هي اليتيمة تكون في حَجَرٍ وليها تُشَارِكُهُ في ماله ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا ، فِيرِيدُ وَلِيَّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بغير أن يُقْسِطَ في صداقها فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيَهَا غيره ، فَهَؤُلَاءِ أَنْ يَنْكَحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ وَيَبْلُغُوا بَهْنَ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ ، وَأَمَرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ ، قال عروة : قالت عائشة : ثم إن الناس اسْتَفْتَوْا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قالت : والذي ذَكَرَ الله تعالى أنه يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ الله فيها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى : « وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حَجَرِهِ حين تكون قليلة المال والجمال

فَنَّهُوْا أَنْ يَنْكِحُوْا مَا رَغِبُوْا فِيْ مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغَبَتِهِمْ عَنْهِنَّ . وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قَالَتْ : أَنْزَلَتْ فِي الرَّجُلِ تَكُونُ لَهُ الْيَتِيْمَةُ وَهُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا وَلَهَا مَالٌ ، وَلَيْسَ لَهَا أَحَدٌ يُخَاصِمُ دُونَهَا فَلَا يُنْكِحُهَا لِمَالِهَا ، فَيَضُرُّ بِهَا ، وَيَسَىءُ صُحْبَتَهَا ، فَقَالَ : ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يَقُولُ : مَا أَخْلَلْتُ لَكُمْ وَدَعْتُ هَذِهِ الَّتِي تَضُرُّ بِهَا ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قَالَتْ : أَنْزَلَتْ فِي الْيَتِيْمَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ فَتَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ ، فَيَرْغَبُ عَنْهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا غَيْرَهُ فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ ، فَيَعْضِلُهَا ، فَلَا يَتَزَوَّجُهَا وَلَا يَزَوِّجُهَا غَيْرَهُ . وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ الْآيَةُ قَالَتْ : هِيَ الْيَتِيْمَةُ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ لَعَلَّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ شَرِكَتْهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَذَقِ فَيَرْغَبُ يَعْنِي أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يُنْكِحَهَا رَجُلًا فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ فَيَعْضِلُهَا أَهـ وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ طَرِيقِ عُرْوَةَ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ قَالَتْ : يَا ابْنَ أَخْتِي ، الْيَتِيْمَةُ تَكُونُ فِي حَجَرٍ وَلِيَّهَا فَيَرْغَبُ فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا ، يَرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سَنَةِ صَدَاقِهَا ، فَنَّهُوْا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فَيُكْمِلُوا الصَّدَاقَ ، وَأَمُرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أَيُّ وَإِنْ خَشِيتُمْ وَعَلِمْتُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْعَدْلَ بَيْنَ الزَّوْجَتَيْنِ أَوْ الزَّوْجَاتِ إِنْ عَدَّدْتُمُ الزَّوْجَاتِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الزَّوْجِ مِنْ امْرَأَةٍ

واحدة أو على الجوّاري السّراري حيث لا يجب القسّم بينهما وإن كان مستحباً، وقوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تَجْورُوا، فالعَوْلُ يطلق على الميل يقال : عَالَ الميزانُ عَوْلاً إذا مالَ وعال في الحكم أي جَارَ وظلم ، ولا شك أن شريعة الإسلام عندما أباحت تعدد الزوجات إلى أربع واشترطت في التَّعَدُّدِ أن يتوافر رُكْنُ العدل من جانب الزوج بين الزوجات ، كانت أكمل الشرائع السماوية في هذا الباب كما هي كذلك في كل تشريعاتها ففي التوراة التعدد ولو إلى مئآت ، والذين حرّموا التعدد سَقَطُوا في برائن الخليلات ، مع أن التعدد إلى أربع قد يكون ضرورة شخصية ، وقد يكون ضرورة طبيعية وقد يكون ضرورة اجتماعية ، والأصل في الحياة الزوجية السعيدة أن يكون للرجل زوجة واحدة وقد تمس الحاجة إلى كفالة الرجل الواحد لأكثر من زوجة ، وأن ذلك التعدد قد يكون لمصلحة الأفراد من الرجال والنساء ، كما قد يكون لحماية المجتمع وحفظه من أدران الفساد ، والله الحكمة البالغة .

قال تعالى: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا . وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .﴾

بعد أَنْ وَصَّى اللهُ تبارك وتعالى بوجوب رعاية حقوق يتامى النساء وذكر في سياق ذلك إرشاده لأولياء يتامى النساء إذا خافوا عَدَمَ استطاعتهم للعدل فيهن أن يتزوجوا من غيرهن حيث وَسَّعَ عز وجل عليهم وعلى غيرهم من الرجال أَنْ يَتَزَوَّجُوا من طيبات النساء مثنى أي اثنتين أو ثلاث يعني ثلاثاً أو رُبَاعَ يعني أربعاً فإن علموا من أنفسهم عجزاً عن العدل في القَسَمِ عند تعدد زوجاتهم فليقتصروا على زوجة واحدة حتى لا يجوروا، إذ أن مَنْ تزوج امرأتين فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأَحَدُ شقيقه مائل، وإن لم يتمكنوا من الزواج من حرة فليقتصروا على ما تحت أيديهم من الجواري السراي إن وُجِدْنَ، وقد قال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي قال حدثنا عبدالرحمن قال حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نَهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من كان له امرأتان يَمِيلُ لِإِحْدَاهُمَا على الأخرى جاء يوم القيامة أَحَدُ شَقِيهِ مَائِلٌ». وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نَهيك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأَحَدُ شَقِيهِ سَاقِطٌ». وقال أبو داود في سننه: حدثنا أبو الوليد الطيالسي ثنا هَمَّامٌ ثنا قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نَهيك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فَمَالَ إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشَقُّهُ مَائِلٌ». وقال الترمذي: حدثنا محمد بن بَشَّارٍ حدثنا عبدالرحمن بن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن

نَهَيْكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا كَانَ عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتَانِ فَلَمْ
يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقَّةُ سَاقِطٍ » . قَالَ أَبُو عِيسَى : وَإِنَّمَا أَسْنَدَ هَذَا
الْحَدِيثَ هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى عَنْ قَتَادَةَ ، وَرَوَاهُ هِشَامُ الدَّسْتَوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ :
كَانَ يُقَالُ . وَلَا نَعْرِفُ هَذَا الْحَدِيثَ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ هَمَّامٍ ، وَهَمَّامٌ ثِقَةٌ
حَافِظٌ أَهْلٌ وَقَدْ أُرْشِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْ ذَوِي النِّشَاطِ الزَّوْجَ أَنْ
يَصُومَ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ
فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ
فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » . وَبَعْدَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِرِعَايَةِ حَقُوقِ
يَتَامَى النِّسَاءِ ، وَتَحْذِيرِ الرِّجَالِ مِنَ الْجَوْرِ عَلَى الزَّوْجَاتِ مُطْلَقًا فَرَضَ عَلَى
الرِّجَالِ هُنَا إِيْتَاءَ النِّسَاءِ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ
صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً ﴾ أَيِ وَأَعْطُوا النِّسَاءَ مُهُورَهُنَّ عَطِيَّةً وَاجِبَةً وَفَرِيضَةً لَازِمَةً ،
وَقَدْ حَتَمَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَهْرَ لِلنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ ، وَلَمْ
تُتَّخَذْ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَا مَهْرٌ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَحُرْمَتِ نِكَاحِ الشُّغَارِ ، وَقَدْ
أَشَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنَّهُ أَذِنَ لِنَبِيِّهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ الْمَرْأَةِ
الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنْ رَغِبَ فِي نِكَاحِهَا بِمَا مَهْرٌ وَلَمْ يَجِزْ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ ذَلِكَ لِغَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُطْلَقًا حَيْثُ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ
الَّلَاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ
يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا . ﴾ وَبَتَحْتِمِ الْمَهْرِ عَلَى الزَّوْجِ لِلزَّوْجَةِ وَجَعَلَهُ حَقًّا خَالِصًا لَهَا تَتَصَرَّفُ فِيهِ

كيف تشاء تكون المرأة في ظل الشريعة الإسلامية قد تميزت على نساء العالمين ، لأن كتب العهد القديم وإن كانت قد فرضت للمرأة مهرا لكنها لا تملكها لها بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقها ، لأنها لا يحل لها عندهم أن تتصرف في مالها وهي ذات زوج . وفي قوله عز وجل : ﴿نَحْلَةً﴾ إشارة إلى أن هذا المهر عطية من الله للمرأة ، كما أنه يجب على الرجل أن يعطي زوجته المهر بطيب نفس منه ، والصَّدَقَاتُ جمع صَدُقَةٍ بفتح الصاد وضم الدال وهو اسم من أسماء المهر يقال فيه : صَدُقَةٌ بفتح الصاد وضم الدال ويقال فيه : صَدُقَةٌ بفتح الصاد والدال ، ويقال فيه : صَدُقَةٌ بفتح الصاد وسكون الدال ، وصَدَاق بفتح الصاد وصِدَاق بكسر الصاد . كما أن النحلة تطلق على العطية من غير عوض عن طيب نفس كما أن في التعبير بها كذلك في هذا المقام إشعاراً بسمو مقصد هذه العطية في الإسلام وقال الزجاج ﴿نَحْلَةً﴾ تَدِينًا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي فإن طابت أنفسهن لكم عن شيء من الصداق ووهبته لكم دون خديعة أو إضرار منكم لهن فخذوه وانتفعوا به ، وما أكلتم منه على هذه الصفة فهو هَنِيءٌ مَرِيءٌ ، وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية كما أشرت إلى ذلك قريبا في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ والمقصود من قوله عز وجل : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ هو المبالغة في إباحة الانتفاع به وإزالة أية تَبِعَةٍ بسببه ، والهنيء المَرِيء هو السائغ الطيب المحمود العاقبة الذي لا تنغيص فيه ، الجالبُ للمسرة المزيل للمَصْرَّة ، والتعبير بقوله : ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل فإن وهبنا لكم منه شيئا للتأكيد على ضرورة التأكد من رضا المرأة وأن عطاءها هو عن طيب نفس لا يشوبه إكراه أو خداع من الزوج أو غيره ، وهذا في غاية لفت الانتباه إلى صيانة حقوق النساء في الإسلام وإحاطتهن بسياسات حصينة تحميهن من

الْعَبَثَ بِحَقْوَقِهِنَّ . وقوله عز وجل : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ
 اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ بعد أن أمر الله عز وجل أوصياء اليتامى بإيتاء اليتامى
 أموالهم ، كما أمر عز وجل بإيتاء النساء صدقاتهن نحلة نَهَى عز وجل هنا عن
 تمكين السفهاء من التصرف في أموالهم ، وحرَّم إطلاق أيديهم فيها ،
 واستبدادهم بها ، مُبَيِّنًا تبارك وتعالى أن الله عز وجل جعل الأموال قِيَامًا
 للناس ، تقوم عليها معاشهم ، وتقوى بها أجسامهم وأنفسهم ، وَيَحْضُلُونَ
 بها على الكثير من مصالح دينهم ودنياهم ، وابتعد الإنسان الرشيد بسببها
 عن مقعد الحسرة والندامة ولذلك كثرت وصايا الإسلام بالمحافظة على المال
 وصيانيته حتى قطعت يد السارق في ربع دينار ، وفي قوله عز وجل هنا :
 ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ وقوله عز وجل في سورة المائدة :
 ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
 وَالْقُلُودَ﴾ إشارة إلى أن قيام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم لا بد فيه من
 أمرين ضروريين وهما الدين الذي يُقَوِّمُ أرواحهم والمال الذي يُقَوِّمُ أبدانهم ،
 وقد رسم الله عز وجل للمسلمين أحسن المناهج للتصرف في الأموال حيث
 يقول : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ
 مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وقال في وصف عباده الصالحين : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ
 يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ والسفهاء جمع سفيه ، والسَّفَهَ في اللغة
 يطلق على معان منها : الجنون والجهل والطيش وخِفَةُ العقل وعدمُ الرشد
 وصِغَرُ السِّنِّ والانحراف عن سواء السبيل ، وبهذا قد يكون السَّفَهُ صفةً ذم
 كما قد لا يكون صفةً ذم كصغر السِّنِّ ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه
 الآية : ينهى سبحانه عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها
 الله للناس قِيَامًا أي تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها ، ومن هنا يؤخذ
 الحجرُ على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارةً يكون الحجر للصَّغِيرِ فَإِنَّ الصَّغِيرَ

مسلوبُ العبارة، وتارةً يكون الحجرُ للجنون، وتارةً لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارةً للفلس وهو ما إذا أحاطت الديونُ برجل وضاق ماله عن وفائها وظاهر السياق يُشعرُ أن قوله: ﴿أموالكم﴾ يريد الأموال المملوكة للسفهاء بإرث أو غيره بدليل قوله عز وجل في نفس الآية: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ وإنما جاءت الإضافة للمخاطبين لأنهم هم المسئولون عن التصرف فيها، ولتهييج عواطفهم بشدة المحافظة عليها كما يحافظون على أموالهم التي يمتلكونها، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ ومعلومٌ أنَّ الرجل منهم ما كان يقتل نفسه وإنما كان بعضهم يقتل بعضاً، كما أن في إضافة الأموال للمخاطبين إفادة نهي كل إنسان عن تسليم ماله لسفيه من السفهاء وعن إضاعة المال لأي سبب كان، وهذا من كمال تنبيه الناس إلى أن المال هو عَصَبُ الحياة، وأن إتلافه وتبذيره هو من أعمال الشياطين ولذلك قال عز وجل: ﴿إنَّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال قال تعالى: ﴿ولا تبذروا تبريراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴿وقال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ وقال تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ وقد رَغِبَ الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقلُ أيضاً يؤيد ذلك لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يُمكنه القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكونُ فارغ البال إلا بواسطة المال، لأنه به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار، فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت

الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المَعِينَةِ له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المَعْوَقَات عن كسب سعادة الآخرة اهـ وقوله عز وجل : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي أَجْرُوا عليهم ما يحتاجونه من الطعام والسكن والكُسوة من هذه الأموال التي لهم تحت أيديكم وتصرفكم، وإنما قال عز وجل : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ولم يقل : وارزقوهم منها، إشارة إلى أنه ينبغي لمن تحت يده أموال السفهاء أن يسعى في إنمائها بالوجوه المشروعة كالاتجار بها واستثمارها لتكون نفقة السفهاء من أرباحها لا من أصولها، وقوله عز وجل : ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ أي وأحسنوا كلامكم مع السفهاء وقولوا لهم قولاً جميلاً يؤثر في القلب فيزيل السفه أو يقلصه لأن القول غير الجميل لا يزيد السفهاء إلا سَفَهًا، وقد تؤثر الكلمة الحسنة اللينة الجميلة في نفس السفهاء تأثيراً تجعله من أرشد الراشدين .

قال تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ، وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا. للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر، نصيباً مفروضاً﴾ .

بعد أن نهي الله تبارك وتعالى أولياء السفهاء عن تمكين السفهاء من الاستبداد بأموالهم وأمرهم أن يرزقوهم فيها ويكسوهم ويقولوا لهم قولاً معروفاً، أمر هنا أوصياء اليتامى بتدريب من تحت أيديهم من اليتامى على حسن التصرف في المال بأن يعطوهم قليلاً من المال ويأذّنوا لهم في التصرف فيه لاختبارهم ومعرفة من يحسن التصرف، ومن يسيء التصرف فإن نماءه وأحسن التصرف فيه كان ذلك أمانة نجابته وتوسم الخير فيه، وإن أساء التصرف فيه وبذره وبدّدته كان ذلك أمانة تمكّن السفه منه، على أنه إذا نجح هذا اليتيم في الاختبار وأحسن التصرف في المال فإنه لا يجوز دفع جميع ماله له إلا بشرطين : هما بلوغ الحُلُم وإيناس الرشد وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي واختبروا أيها الأوصياء يتاماكم قبل بلوغهم الحُلُم بتدريبهم على التصرف في قليل من المال تحت إشرافكم فإذا بلغوا الحُلُم وأدركوا السن الذي يصلحون فيه للنكاح والإنجاب، وعلمتم منهم الرشد بما أبصروهم من حسن تصرفهم فيما اختبرتموهم به من المال القليل، وأنهم صاروا أهلاً للتصرف في جملة أموالهم، فادفعوا أموالهم إليهم . ولا شك أن اختبار اليتامى يتفاوت بحسب بيئتهم وظروف حياتهم وما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة

فيكون اختبارهم وتدريبهم في البيع والشراء، وإن كانوا من أهل الزراعة
 فيكون اختبارهم وتدريبهم في هذا الشأن وكذلك الصُّنَاع وأصحاب
 الحرف، وسائر الأمور التي يُعَرَّفُ به نجابة اليتيم أو سفاهته. وبلوغ النكاح
 يكون بالاحتلام وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه
 الولد وهو المني وإذا استيقظ رأى ذلك في ثيابه، كما قال تبارك وتعالى :
 ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾
 وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية ثلاثة أشياء يُعَرَّفُ بها بلوغ النكاح في الذكور
 والإناث، وَشَيْئَيْنِ يُعَرَّفُ بِأَيِّ واحد منهما البلوغُ في الإناث، فالأشياء الثلاثة
 المشتركة بين الذكور والإناث هي الاحتلام أو بلوغ خمس عشرة سنة أو نبات
 الشعر الخشن المعروف بالعانة، وأما يختص بالإناث فهو الحيض والحبل .
 وقد روى البخاري في صحيحه من طريق نافع قال حدثني ابن عمر رضي الله
 عنهما أن رسول الله ﷺ عَرَضَهُ يوم أُحُد وهو ابن أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً فلم يُجِزني،
 ثم عَرَضَنِي يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سَنَةً فأجازني، قال نافع :
 فَقَدِمْتُ عَلَى عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ :
 إِنَّ هَذَا لَحَدُّ بَيْنِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَكُتِبَ إِلَى عُمَالِهِ أَنْ يَقْرَضُوا مَنْ بَلَغَ خَمْسَ
 عَشْرَةَ . وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان أخبرنا عبد الملك
 ابن عمير حدثني عطية القُرَظِيُّ قَالَ : كُنْتُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قَرِيظَةَ فَكَانُوا
 يَنْظُرُونَ فَمَنْ أَنْبَتَ الشَّعَرَ قُتِلَ وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ لَمْ يُقَتَّلْ فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ .
 حدثنا مسدد ثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير بهذا الحديث قال :
 فَكَشَفُوا عَانَتِي فَوَجَدُوهَا لَمْ تَنْبِتْ فَجَعَلُونِي فِي السَّبْيِ ، وَرَوَى ابْنُ مَاجَه
 وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ
 عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرَظِيِّ قَالَ : عَرَضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ
 وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِيَ سَبِيلُهُ ، فَكُنْتُ مِمَّنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِيَ سَبِيلِي . وَأُورِدَ النَّسَائِيُّ فِي

باب متى يقع طلاق الصبي ، من طريق عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي قال : كنت يوم حُكِّم سَعْدٌ في بني قريظة غلاما ، فَشَكُّوا فِيَّ ، فلم يجدوني أَنَبْتُ فَاسْتَبَقْتُهَا أَنَا ذَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ . اهـ وقد أجمع العلماء على أن حيض الأنثى أو حَبْلُهَا يُعْتَبَرُ بِلُوغَا ، وفي التعبير بالدفع في قوله عز وجل : ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ تنبيه إلى وجوب الإعطاء بالفعل وعدم جواز التأخير ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ هو تأكيد للأمر بالدفع وتقرير له وتشديد في النهي عن حبسها عنهم ، وإشارة إلى جواز أكل الوصي من مال اليتيم بالمعروف عندما يكون الوصي فقيرا ، وقد نَهَى الله عز وجل هنا عن أمرين : الأول تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الإسراف ، والثاني تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الاعتنام منه قبل بلوغ اليتيم وقبل انتزاعه من الوصي ، وأصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبيح على طريق الإفراط ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ هذا تصريح بجواز أكل الوصي الفقير من مال اليتيم بالمعروف بعد التلويح بذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾ كما ذكرت ذلك قريبا ، وقد أخرج البخاري في التفسير من طريق هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أنها نَزَلَتْ في مال اليتيم ، إذا كان فقيرا أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف . وأخرج البخاري في البيوع في باب (من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والكيل والوزن) من طريق هشام بن عروة عن أبيه أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أنزلت في والي اليتيم الذي يُقِيم عليه ويُصْلَح في ماله ، إن كان فقيرا أكل منه بالمعروف . وأخرجه مسلم في التفسير من صحيحه من

طريق عبدة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة في قوله : ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالت : أنزلت في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه . ثم أخرجه من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله تعالى : ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالت : أنزلت في ولي اليتيم أن يُصيبَ من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ أي فإذا أعطيتهم يا معشر ولاية اليتامى أموال الذين بلغوا من اليتامى النكاح وبعد إيناس الرشد منهم وسَلَّمَتوهم أموالهم بالفعل فأشهدوا عليهم باستيفائهم ذلك منكم وأنكم قد برئتم من عهدة أموالهم التي كانت تحت أيديكم لهم . وبهذا النظام الدقيق المحكم في حفظ أموال اليتامى وهي تحت يد الوصي ، وفي صيانتها فلا تُسَلَّمُ لليتيم إلا بعد بلوغ النكاح وإيناس رُشدِه وفي التنبيه على الإشهاد عند الاستيفاء ، وأن الوصي قد برئت ذمته ، مع الوصايا السابقة المحكمة المُتَّفَقَةِ برعاية حقوق اليتامى وحقوق النساء في هذا المقام الكريم من سورة النساء مع ما سيجيء من التشريعات السامية والأنظمة الدقيقة البديعة التي ترسم للإنسانية أكرم المناهج وأحكم الأنظمة ، قد سَمَتِ شريعة الإسلام فوق كل تشريع ، وارتفعت على كل نظام ، ومن أَحَسَّنُ من الله حكما لقوم يوقنون . وقوله عز وجل : ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ دليل على ما امتازت به الشرائع السماوية على الأنظمة الأرضية ، إذ أن من أبرز الفروق بين التشريعات السماوية وبين القوانين الوضعية أن الشريعة لا تقتصر على مجرد وضع النظام الرشيد السديد بل تعمل على تربية النفس على الخوف من الله عز وجل وأن مَنْ يُخَالِف تشريع الله يتعرَّضُ لِسَخَطِ الله ومقته وغضبه ، فيكون الإنسان رقيقا على نفسه في تطبيق شرع الله ، بخلاف الأنظمة الوضعية

فإنها لا تلتفت إلى ذلك ولا تقدر عليه ، فلو فُرِضَ أن المسلم كان في صحراء خالية ، بعيدا عن أعين الناس ، ورأى إحدى المغريات المحرمة عليه ، فإنه لا يعتبر نفسه خاليا ، لعلمه أن عين الرقيب الحسيب تراقب حركاته وسكناته كما قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل : عليّ رقيب
ففي تذييل هذه الآية الكريمة المشتملة على هذه التشريعات الرشيدة السديدة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ لفت انتباه إلى هذه الحقيقة ، حيث ذيلها بهذا الوعيد الشديد لمن جحد الحق أو ظلم الخلق ، والحسيب تأتي بمعنى المحاسب وبمعنى الكافي ، إذ يقول الإنسان لمن ظلمه : حَسْبُهُ الله ، أي يحاسبه الله على ما يفعل من الظلم ، وتقول : حسيبك الله وحسبك أي كافيك ، وهذا الوعيد لولي اليتيم إعلام له أن الله تعالى مُطَّلَعٌ عليه يَعْلَمُ باطنه كما يعلم ظاهره حتى يَحْذَرُ من تضييع شيء من مال اليتيم كما أن فيه وعيدا لمن بلغ من اليتامى واستوفى حقه من وصيه حتى يحذر من أن ينكر شيئا قد استوفاه من وصيه ويدعي عليه ما ليس له بحق . كما أن فيه وعيدا للشهود حتى يحذروا من تغيير الشهادة أو كتمانها ، وقوله عز وجل : ﴿ للرجال نَصِيبٌ مما تَرَكَ الوالدان والأقربون وللنساء نَصِيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قَلَّ منه أو كثر ، نصيبا مَفْرُوضاً ﴾ شروع في إبطال ما كان عليه عادة أهل الجاهلية من حرمان النساء والأطفال من الميراث حيث كانوا يقولون : إنما يرث من يَحْمِي الذمار ويدافع عن القبيل ويحوز الغنائم . ولما كان إخراج الناس عن عاداتهم يشق عليهم تدرج الإسلام في إثبات حق النساء والأطفال في الميراث ، لِيَسْهُلَ على المسلمين تَلَقُّيهِ ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بَيِّنَ فيها أن الإرث غير مُخْتَصَّ بالرجال بل هو مشترك بين الكبار والصغار من الذكور والإناث سواء كان الميت والدا أو

قريباً ثم أكد عز وجل هذا الحق بقوله : ﴿مما قلّ منه أو كثر﴾ حتى لا يختص الرجال بأدوات الموتى من الرجال بل صار للأنثى حق في فرس الرجل وسيفه ، وعباءته وعمامته ، ورمحه ونعله وعصاه . ثم أكد عز وجل ذلك بقوله : ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً مُحْتَمّاً لا بد من تسليمه لمستحقه ، كما أن في تخصيص النساء بالذكر والنصيب كالرجال للإيذان بأصالتهن في استحقاق الميراث ، واقتصرَ في هذه الآية الكريمة على مجرد إثبات حق الرجال والنساء في الميراث وأنه نصيب مفروض ، وذكر ذلك على سبيل الإجمال لتَشَوُّفِ النفوس إلى معرفته وتستعد لتلقيه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا . يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنَّ ثُلثا ما تَرَكَ وإن كانت واحدة فلهما النِّصْف ، ولأبويه لكل واحد منهما السُّدُسُ مما تركَ إن كان له ولدٌ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السُّدُس ، من بعد وصية يوصي بها أو دين ، أبأؤكم وأبنأؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ، إنَّ الله كان عليهما حكيما ﴾

بعد أن مَهَّدَ الله تبارك وتعالى لبيان أنصبة المواريث وأثبت حق النساء في الميراث وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان النساء من الميراث لَفَتَ عز وجل هنا انتباه الناس إلى أن بعض الأقارب لا يرثون مع أنهم قد يشتركون في الحزن على الميت للقربة التي بينهم وبينه ، فأمر عز وجل بمنح من حضر قسمة التركة من الأقارب الذين لا يرثون جَبْرًا لخواطرهم شيئا يسيرا من التركة عند قسمتها لا سيما إذا كان الميت لم يوص لهم بشيء من التركة ، وذلك إذا كان الورثة كبارا بالغين راشدين ممن يحق لهم مثل هذا التصرف ، لما في ذلك من حسن العشرة والأدب الجميل وصلة الأرحام ، وكذلك بمنح من حضر القسمة من اليتامى والمساكين إشاعة للإحسان ورحمةً بهؤلاء حيث قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القربة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل فإنَّ أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شيء

يُعْطَوْنَ، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يُرْضَخَ لهم شيءٌ من الوسط يكون براً بهم، وصدقةً عليهم، وإحساناً إليهم، وَجَبْرًا لِكَسْرِهم اهـ وقد قال البخاري في صحيحه باب ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ الآية، حدثنا أحمد بن حُمَيْد أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَشْجَعِيُّ عَنْ سَفْيَانَ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ، وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ. تَابِعَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَوْلُ الْبُخَارِيِّ هُنَا: تَابِعَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَدْ وَصَلَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْوَصَايَا حَيْثُ قَالَ: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ أَبُو النُّعْمَانِ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بَشَرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنْ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نُسِخَتْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا نُسِخَتْ وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَهَاوَنَ النَّاسُ، هُمَا وَالْيَتَامَى: وَالْإِثْرُ وَذَلِكَ الَّذِي يَرْزُقُ، وَوَالٍ لَا يَرِثُ فَذَلِكَ الَّذِي يَقُولُ بِالْمَعْرُوفِ، يَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ أَنْ أُعْطِيَكَ اهـ وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَلَكِنَّهُمَا مِمَّا تَهَاوَنَ النَّاسُ. يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ لِلْإِشْرَادِ وَالِاسْتِحْبَابِ لَا لِلْإِجْبَابِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْإِجْبَابِ مَا تَهَاوَنَ النَّاسُ وَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ كَانُوا أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى آدَاءِ الْوَاجِبِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾. هَذَا تَحْذِيرٌ وَتَحْوِيلٌ لَوْلَا الْيَتَامَى وَأَمْرٌ لَهُمْ بِالْحَرِصِ الشَّدِيدِ عَلَى مَصَالِحِ الْيَتَامَى وَرِعَايَتِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، وَأَنْ يَكُونُوا لَهُمْ كَمَا يَكُونُ الْأَبُ الرَّحِيمُ لَوْلَدِهِ الْبَارِّ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى أَنَّهُ كَمَا يَدِينُ الْإِنْسَانُ يَدَانُ، فَلْيَضَعُوا نَضْبَ أَعْيُنِهِمْ صُورَةً يَتَخَيَّلُونَ فِيهَا أَنَّهُمْ فِي سِيَاقَةِ

الموت وأنهم يُخلفون وراءهم ذريةً صغاراً عاجزين ، فهل يرضون أن يقوم الأوصياء على ذريتهم الصغار الضّعاف بالإساءة إليهم والتقصير في رعايتهم وأكل أموالهم إسرافاً وبداراً أن يكبروا؟ وما دام لا يرضى أحد لنفسه بذلك فلا يجوز له أن يرضى لأيتام غيره الذين هم تحت ولايته بذلك بل عليه أن يعاملهم كما يجب أن تُعامل ذريته الضّعاف من بعده ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ في أيتام غيره الذين جعلهم الله عز وجل تحت ولايته وليحسن إليهم في تربيتهم وتعليمهم ومراعاة حسن سيرتهم وسلوكهم ، وليحافظ على سلامة أموالهم وأبدانهم وأن يرعاهم كما يرعى أبناءه وذريته ، وأن يعدل فيهم بالفِعْلِ والقَوْلِ السديد الرشيد وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ۝ ﴾ هذه هي الآية الأخيرة من الآيات التي ساقها الله عز وجل في صدر هذه السورة المباركة التي يوصي عز وجل فيها عباده بوجوب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم ، وصيانة أموالهم ، وأبدانهم وأخلاقهم ، وقد توَعَّدَ الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً سواءً كانوا أوصياء عليهم أو كانوا غير أوصياء بأنهم سيصلون سعيراً وأن الذي يأكلونه من أموال اليتامى ظلماً هو نار يدخلونها في بطونهم بأنفسهم ، ومعنى قوله عز وجل ﴿ ظُلْمًا ﴾ أي بغير حق ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ هو غاية قصوى في التقيح والتنفير ، كما أن قوله عز وجل : ﴿ وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ هو غاية قصوى في التهديد والوعيد ، ومعنى : ﴿ وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ أي سيدخلون ناراً هائلة محرقة متَّعِدَّة مُشْتَعِلَةٌ ذات لَهَبٍ ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن أكل مال اليتيم ظلماً من أكبر الكبائر حيث قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ وقال : ﴿ وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ۝ ﴾ وقد حذَّرَ الله عز وجل من قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حيث يقول

تبارك وتعالى : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ في سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالْإِسْرَاءِ ، وقد عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ فِي السَّبْعِ الْمَوْبِقَاتِ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسَّخَرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ شُرُوعٌ فِي تَفْصِيلِ أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ الْمُجْمَلَةِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا .﴾ وَقَدْ أَحْكَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمِيرَاثَ لِلأَوْلَادِ وَلِلْأَبَاءِ ، وَلِلْأَزْوَاجِ ، وَلِلْكَالَالَةِ ، وَلَمَّا كَانَ مِيرَاثُ الْأَوْلَادِ وَالْأَبَاءِ وَالْأَزْوَاجِ لَا يَسْقُطُ بِحَالٍ قَدَّمَ اللَّهُ بَيَانَ أَحْكَامِ مِيرَاثِ الْأَوْلَادِ ذَكَورًا وَإِنَاثًا وَالْأَبَاءِ ، حَيْثُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُعْهَدُ إِلَيْكُمْ وَيَفْرَضُ عَلَيْكُمْ فِي شَأْنِ مَا يَسْتَحِقُّهُ أَوْلَادُكُمْ مِنْ تَرَكَاتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ جُمْلَةٌ مَسْوُوقَةٌ لِبَيَانِ الْوَصِيَّةِ وَتَفْسِيرِهَا ، أَيُّ لِلذَّكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ نَصِيبِ الْأُنثِي إِذَا خَلَّفَ الْمَيِّتُ ذَكَرًا وَاحِدًا وَأُنْثَى وَاحِدَةً فَلِلذَّكَرِ سَهْمَانِ وَلِلأُنْثَى سَهْمٌ ، وَإِذَا كَانَ الْوَارِثُ جَمَاعَةً مِنَ الذَّكَورِ وَجَمَاعَةً مِنَ الْإِنَاثِ كَانَ لِكُلِّ ذَكَرٍ سَهْمَانِ وَلِكُلِّ أُنْثَى سَهْمٌ ، وَإِذَا حَصَلَ مَعَ الْأَوْلَادِ وَارِثٌ آخَرُ كَالْأَبَوَيْنِ وَاحِدِ الزَّوْجَيْنِ فَهُمْ يَأْخُذُونَ سَهَامَهُمْ وَيَكُونُ الْبَاقِي بَيْنَ الْأَوْلَادِ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي ، وَمِنْ حِكْمَةٍ جَعَلَ نَصِيبَ الْمَرْأَةِ نِصْفَ نَصِيبِ الرَّجُلِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْغَرَاءَ أَوْجَبَتْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَنْفِقَ عَلَى الْمَرْأَةِ ، فَبِهَذَا يَكُونُ نَصِيبُهَا فِي الْمِيرَاثِ مَسَاوِيًا لِنَصِيبِ الرَّجُلِ تَارَةً وَقَدْ تَكُونُ أَوْفَرَ

حظاً منه ، فلو فرضنا أن ميتا مات عن ولدين : ذكر وأنثى وترك ثلثائة ألف مثلاً كان للذكر مائتا ألف وللأنثى مائة ألف . فإذا تزوج هو فإن عليه أن يعطي امرأته مهراً ، وأن يعد لها مسكناً ، وأن ينفق عليها من ماله سواء كانت فقيرة أو غنية ففي هذه الحالة كانت ماليته بينه وبين زوجته فيكون نصيبه بالفعل مساوياً لنصيب أخته ، وقد يكون أقل منه على أنه إذا وُلِدَ له أولاد يكون عليه نفقتهم وليس على أمهم منها شيء ، وأما أخته فإنها إن تزوجت أخذت مهراً من زوجها ، وتكون نفقتها على בעلها ، ويمكن أن تستثمر ما ورثته من أبيها وتُنَمِّيَه لنفسها دون أن تطالب بنفقات على بيت الزوجية أو على أولادها ، والله الحكمة البالغة ، وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ أي وإن مات الميث وخَلَفَ بنتين فما فوق فلهما أو فلهن ثلثا التركة ، وإن كان خَلَفَ بنتاً واحدة فلها نصف التركة ، ويُفْهَمُ من ذلك أنه لو خَلَفَ ولداً واحداً فقط كانت له التركة كلها وفي التنصيص على النساء إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان النساء من الميراث ، وفي هذا التعبير لون من الإعجاز والإيجاز بليغ ، وإذا كان الله عز وجل قد جعل للأخت الواحدة النصف وللأختين الثلثين في قوله عز وجل : ﴿ إِنْ أَمْرُو هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ فإن البنيتين أولى من الأختين بأن يكون لهما الثلثان ، والقرآن العظيم يفسر بعضه بعضاً ، وقد تظن البخاري رحمه الله لذلك فأورد حديث جابر رضي الله عنه في توريث الأختين الثلثين تحت قوله تعالى : ﴿ يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ الآية للدلالة على أن للبنتين الثلثين كالأختين حيث قال البخاري : باب قوله ﴿ يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال أخبرني ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال :

عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئا فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليّ فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله فنزلت : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وقد رواه مسلم أيضا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما ميراث البنتين فقد قال تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾، فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴿فَدَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ ابْنَتَ لَهَا مَعَ أَخِيهَا الذَّكَرِ الثَّلَاثَ، وَلَهَا وَحْدَهَا النِّصْفَ، وَلَمَّا فَوْقَ اثْنَتَيْنِ الثَّلَاثَانِ، بَقِيَتْ ابْنَتٌ إِذَا كَانَ لَهَا مَعَ الذَّكَرِ الثَّلَاثَ لَا الرَّبْعَ، فَإِنْ يَكُونُ لَهَا مَعَ الْأُنْثَى الثَّلَاثَ لَا الرَّبْعَ أَوْلَى وَأُخْرَى، وَلَأنَّهُ قَالَ : ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فقيّد النصف بكونها واحدةً فَدَلَّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهَا إِلَّا مَعَ هَذَا الْوَصْفِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ ﴿وَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ ذَكَرَ ضَمِيرُ ﴿كُنَّ﴾ وَ ﴿نِسَاءً﴾ وَذَلِكَ جَمْعٌ، لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَقَالَ : اثْنَتَيْنِ، لِأَنَّ ضَمِيرَ الْجَمْعِ لَا يَخْتَصُّ بَاثْنَتَيْنِ، وَلَأنَّ الْحُكْمَ لَا يَخْتَصُّ بَاثْنَتَيْنِ فَلَزِمَ أَنْ يَقَالَ : ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ لِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ حُكْمُ الثَّنَتَيْنِ، وَعُرِفَ حُكْمُ الْوَاحِدَةِ، وَإِذَا كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ، وَلَمَّا فَوْقَ الثَّنَتَيْنِ الثَّلَاثَانِ، امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ لِلْبَنَتَيْنِ أَكْثَرُ مِنَ الثَّلَاثِينَ فَلَا يَكُونُ لَهَا جَمِيعُ الْمَالِ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ النِّصْفُ فَإِنَّ الثَّلَاثَ لَيْسَ لَهُنَّ إِلَّا الثَّلَاثَانِ. ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَالَ فِي الْأَخْوَاتِ : ﴿وَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ كَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْبَنَتَيْنِ أَوْلَى بِالْثَّلَاثَيْنِ مِنَ الْأَخْتَيْنِ ثُمَّ اسْتَشْهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أُعْطِيَ ابْنَتِي سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ الثَّلَاثِينَ ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا إِجْمَاعٌ لَا يَصِحُّ فِيهِ خِلَافٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَهـ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيَّ وَإِذَا كَانَ لِلْمَيِّتِ أَبَوَانِ وَأَوْلَادٌ فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَبَوَيْنِ السُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتُ وَاحِدَةٍ فُِرِضَ لَهَا النِّصْفُ وَلِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ السُّدُسَ الْبَاقِيَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيَجْمَعُ لَهُ فِي هَذِهِ

الحالة بين الفرض والتعصيب ، وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَّثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ أي فإن لم يكن للमित ولد ذكر أو أنثى وانفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأم ثلث التركة ويكون الباقي للأب بالتعصيب المحض . أما إذا لم ينفرد الأبوان بالميراث بأن كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف وإن كانت زوجة أخذت الربع ويكون الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة للأم ثلثه وللأب ثلثاه ، وبهذا أفتى عمر وعثمان وأصح الروایتين عن علي وبه يقول زيد بن ثابت وابن مسعود وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة ، وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ هذا هو الحال الثالث من أحوال الأبوين وهو اجتماعهما مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ولكنهم مع ذلك يَحْجُبُونَ الأم من الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن للमित وارث سوى الأبوين أخذت الأم السدس وأخذ الأب الباقي من التركة ، ويكاد الإجماع ينعقد على أن الأخوين كالإخوة في حجب الأم عن الثلث إلى السدس ، وقوله عز وجل : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ أي إن تقسيم التركة إنما يتم بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصية الشرعية وقد حكى ابن جرير إجماع الأمة على ذلك وقال ابن كثير: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية اهـ وإنما قدمت الوصية في الذكر وإن كانت مؤخرة عن الدين في السوء للاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها ، وقوله عز وجل : ﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . ﴾ أي إنكم تَخْفَى عليكم في حقيقة الأمر مَنْ هُوَ الْأَنْفَعُ لَكُمْ في دنياكم وأخراكم أيأتيكم هذا النفع من جهة آبائكم أو من جهة أبنائكم فقد يكون الأب أنفع وقد يكون الابن أنفع فاقتضت حكمة الحكيم العليم أن يفرض هذه الفرائض بحكمته البالغة على هذا المنهج العظيم والتقسيم البديع .

قال تعالى : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السُّدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مُضَارٍّ، وصية من الله، والله عليم حلیم. تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين.﴾

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى أنصبة الأولاد ذكورا وإناثا من ميراثهم في تركة والدهم، وبيّن كذلك نصيب الأبوين من ميراثهما من ولدهما شرعاً هنا يُفَصِّل ميراث الزوج من زوجته وميراث الزوجة من زوجها، ثم ميراث الإخوة لأُمّ، وبدأ عز وجل ببيان نصيب الزوج من ميراثه في زوجته حيث يقول : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن﴾ يعني عز وجل أن الزوج يستحق من تركة زوجته نصف التركة إذا كانت الزوجة ماتت ولم تترك ولداً أو ولداً ولداً ولداً ولداً، فإن كانت الزوجة الميتة تركت ولداً أو ولداً ولداً ولداً، ذكرها كان أو أنثى، واحداً كان أو أكثر، وسواء كان الولد من هذا الزوج أو من زوج آخر فإنَّ الزوج يستحق ربع تركة زوجته التي تركت ولداً، وقوله عز وجل : ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ أي إنما يستحق الزوج هذا النصيب من الميراث بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصيته، وقد ذكرت في تفسير الآية السابقة أن الإجماع منعقد على تقديم الذَّيْنِ على الوصية وأشرت إلى سبب تقديم الوصية

في الذكر على الدين وأن ذلك للاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، ولا سيما أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شاقا على الورثة كما أن في تقديم الوصية على الدين في الذكر تذكيرا بنعمة الله عز وجل على الميت حيث أطعمه الله عز وجل من ماله نصيبا يتقرب به إلى الله عز وجل في أبواب الخير التي يوصي فيها الميت ليستدرك ما فاته أيام مُهلته، حتى لا ينقطع عنه ثواب العمل الصالح بعد موته، حيث إن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، منها الصدقة الجارية، وقد جمع الله عز وجل بين الوصية والدين لِيَعْرِفَ المسلمون أن سهام الورثة إنما تعتبر بعد الوصية كما تعتبر بعد الدين، ومن مظاهر تقديم الدين على الوصية أن الدَّيْنَ لو استغرق التركة سقطت الوصية وسقط حق الورثة في الميراث. وقوله عز وجل: ﴿وَلَهْنَ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ يعني عز وجل أن الزوجة تستحق من تركه زوجها ربع التركة إذا كان الزوج قد مات ولم يترك ولداً أو وَلَدٌ وَلَدٍ مهما تسلسل، فإن كان الزوج الميت تَرَكَ ولداً أو وَلَدٌ وَلَدٍ مهما تسلسل، ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو أكثر، وسواء كان الولد من الزوجة الواحدة أو من زوجة أخرى فإن الزوجة إنما ترث الثمن فقط ما دام زوجها الميت قد ترك ولداً، وقد أجمع العلماء على أن الزوج إن مات وترك زوجة واحدة فلها هذا الذي ذكر الله عز وجل من الربع عند عدم الولد للزوج أو الثمن عند وجود الولد للزوج فإن كان الميت ترك زوجتين أو ثلاثاً أو أربعاً فإنهن يشتركن جميعاً في هذا الذي فرض الله عز وجل من الربع أو الثمن فهو فرض الزوجة الواحدة أو الزوجتين أو الثلاث أو الأربع. ولا خلاف في ذلك عند أهل العلم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا السُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ.﴾ أصل

الكَالَةِ فِي اللُّغَةِ يَطْلُقُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الْإِعْيَاءُ وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعَشَى :
فَأَلَيْتُ لَا أَرْتَى لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَلَاقَى مُحَمَّدًا
وَقِيلَ هِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ : تَكَلَّلَهُ الشَّيْءُ إِذَا أَحَاطَ بِهِ وَمِنْهُ الْإِكْلِيلُ وَهُوَ التَّاجُ
وَالْعَصَابَةُ الْمُحِيطَةُ بِالرَّأْسِ وَكَمَا قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

أَصَاحَ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِیْضَهُ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِيرَاثَ الْكَلَالَةِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ
حَيْثُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا : ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أَخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ وَالْمَوْضِعُ الثَّانِي فِي آخِرِ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ
وَهِيَ الْآيَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِآيَةِ الصِّيفِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ
يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ،
وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا
إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ .﴾ وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ
الْإِخْوَةَ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ هُمُ الْإِخْوَةُ لِلْأُمِّ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي
الثَّلَثِ﴾ وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْإِخْوَةَ لِلْأَبِ وَالْأُمِّ أَوِ الْإِخْوَةَ لِلْأَبِ
لَيْسَ مِيرَاثُهُمْ كَذَلِكَ وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِخْوَةِ فِي آيَةِ الصِّيفِ هُمُ الْإِخْوَةُ الْأَشْقَاءُ أَوْ
الْإِخْوَةُ لِلْأَبِ حَيْثُ تَرِثُ الْأُخْتُ الْمُنْفَرِدَةُ النِّصْفَ مِنْ أَخِيهَا الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ
وَإِذَا انْفَرَدَ الْأَخُ وَرِثَ جَمِيعَ تَرَكَةِ أُخْتِهِ الَّتِي مَاتَتْ وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ
الْأَخَ لَا يَرِثُ شَيْئًا أَبَدًا مِنْ مِيرَاثِ أُخْتِهِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ إِذَا كَانَ لَهَا وَالِدٌ ،
فَاتَّضَحَ مِنَ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ أَنَّ الْكَلَالَةَ هُوَ مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَالِدٌ وَلَا
وَلَدٌ ، وَدَلَّتِ الْآيَتَانِ عَلَى أَنَّ الْإِخْوَةَ كُلَّهُمْ كَلَالَةٌ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي
تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَثِ : ﴿وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يَخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرِثَةِ مِنْ وَجْهِهِ : أَحَدُهَا
أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مِنْ أَدْلَوَاهُ وَهِيَ الْأُمُّ ، وَالثَّانِي : أَنَّ ذَكَورَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ فِي الْمِيرَاثِ

سواء ، والثالث : لا يرثون إلا إن كان مَيِّتُهُمْ يُورَثُ كَلَالَةً فلا يرثون مع أبٍ ولا جَدٍّ ولا وَلَدٍ ولا وَلَدِ ابْنٍ ، الرابع : أنهم لا يُزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ﴾ أي وإن كان الميْتُ المُوَرَّثُ لا والد له ولا ولد سواء كان ذكراً أو أنثى وقد خَلَفَ هذا الميْتُ واره أخاً لأمه أو أختاً لأمه فإن نصيب الأخ من الأم أو الأخت هو السدس من التركة لكل واحد منهما ، فإن كان الإخوة لأم أكثر من ذلك مهياً كان عددهم . فليس لهم من التركة إلا الثلث يشتركون فيه بالتساوي ، الأنثى والذكر فيه سواء ، وقوله عز وجل : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَارٍّ ﴾ تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن الوارث إنما يستحق نصيبه الذي جعله الله عز وجل له بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصيته ، حيث ذكر ذلك في آيتي الموارث هنا أربع مرات وقد قيد في المرة الرابعة بقيد عدم المضارة للورثة من الموصي ، وهذا القيد مراداً في المرات الثلاث السابقة فلا يجوز للموصي أن يدخل الضرر على الورثة كأن يوصي لوارث أو يوصي بما زاد على الثلث ، أو أن تكون وصيته لقصد الإضرار بالورثة دون قصد القرية إلى الله عز وجل ، أو أن يُقر بدينٍ كاذباً أو أن يُوصي في مرض الموت بدين ليس عليه ليضر بالورثة أو ببعضهم ، وبهذا التشريع المحكم المتقن تُصان حقوقُ الورثة كما تُصان حقوقُ مُورثيهم ، فما أجمل وأدق وأعظم هذا التشريع الذي شرعه الحكيم العليم ، وبعث به النبي الأمي سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله عز وجل : ﴿ وَصِيَّةٌ ﴾ هو مصدر مؤكد لقوله تبارك وتعالى في صدر الآية السابقة : ﴿ يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ وقد أضافه إلى الله زيادة في تأكيده وتحريم التهاون فيه وتضييعه ، كما قال عز وجل في تذييل الآية السابقة : ﴿ فَرِيضَةٌ

من الله ﴿ وهذا كله تأكيد لحفظ حقوق الورثة من التلاعب بها وكذلك صيانة حقوق المورثين ، وقد تقدم أن معنى ﴿يوصيكم﴾ أي يفرض عليكم ، فذيل الآية الأولى بمصدر من معنى يوصيكم وذيل الآية الثانية بمصدر من لفظ يوصيكم حيث قال في الآية الأولى : ﴿فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما .﴾ وقال في الآية الثانية : ﴿وصية من الله ، والله عليم حكيم .﴾ لتنبية عباده إلى سمو تشريعه ، وتحذير من ضياع هذه الفرائض بأنه لولا حلم الله عز وجل لعاجله بالعقوبة ، ثم زاد تأكيد ذلك ببيان أن هذه الفرائض التي فرضها في شأن اليتامى والنساء والموارث هي حدود الله التي حدّها لعباده ليلتزموا بها ويقفوا عندها ولا يجوز لهم مجاوزتها وأنه أعدّ لمن حافظ على حدود الله جنات تجري من تحتها الأنهار كما أعدّ لمن ينتهك حرّمات الله ويتعدّى حدوده نارا يأخُذُ فيها ، وله عذاب مهين ، حيث يقول عز وجل : ﴿تلك حُدُودُ اللَّهِ ، ومن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .﴾ وحدود الله تبارك وتعالى هي الأشياء التي يَبْنِ تحريمها أو تحليها وأمر بالوقوف عندها قال الأزهري : حُدُودُ اللَّهِ عز وجل ضربان : ضربٌ منها حُدُودٌ حَدَّهَا لِلنَّاسِ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَنَاقِحِهِمْ وَغَيْرِهَا مِمَّا أَحَلَّ وَحَرَّمَ ، وأمر بالانتهاء عما نهى عنه منها . ونهى عن تَعَدُّيها ، والضرب الثاني عقوباتٌ جُعِلَتْ لِمَنْ رَكِبَ مَا نَهَى عَنْهُ ، اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : قال : ابن الأثير : وفي الحديث ذكر الحد والحدود في غير موضع ، وهي محارمُ الله وَعُقُوبَاتُهُ التي قرنها بالذنوب ، وأصل الحد : المنع والفصل بين الشيئين فكأن حُدُودَ الشَّرْعِ فَصَلَتْ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فمنها ما لَا يُقَرَّبُ كَالْفَوَاحِشِ الْمَحْرَمَةِ ومنه قوله تعالى : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ ومنه ما لَا يُتَعَدَّى كَالْمَوَارِيثِ الْمُعِينَةِ

وتزويج الأربع . ومنه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ ومنها الحديث : إني أصبْتُ حَدًّا فَأَقِمُّهُ عَلَيَّ أي إني أصبت ذنبا أوجب عليَّ حَدًّا أي عقوبة اهـ وقد يطلق الحد على ما هو حق لله عز وجل مما فيه عقوبة مقدرة كحد الزنا والقذف والسرقة ، أو لم تكن فيه عقوبة مقدرة كالتعزير ومنه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي بُرْدَةَ الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله ، أي إلا في حق من حقوق الله . وفي قوله عز وجل في وصف أهل الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بالجمع ، وفي وصف أهل النار ﴿ خَالِدًا فِيهَا ﴾ لمراعاة معنى مَنْ في الجمع ومراعاة لفظها في الأفراد مع الإشارة إلى ما لأهل الجنة من الاجتماع على سرر متقابلين والإشارة إلى ما فيه أهل النار من الوحشة والانفراد في سجن الجحيم ، مع العذاب المهين ، نسأل الله بـمنه أن يحشرنا مع السعداء إنه عفوٌ كريم برٌّ رحيم .

قال تعالى : ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا . إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بصيانة الأموال وأكد بصفة خاصة على صيانة حقوق اليتامى ، وحقوق النساء ورغَّبَ في أثناء ذلك في صيانة الأعراض حيث أمر الرجال بأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثني وثلاث ورباع مما يُثْمِرُ الْعِفَّةَ وحماية الأعراض شرع هنا في تشريع عقوبة الاعتداء على الأعراض ، وتَدَرَّجَ في تحديد هذه العقوبة لنَقْلِ الناس من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام ، حيث أَمَرَ الله تبارك وتعالى هنا بِسَجْنِ المرأة التي تزني حتى تموت ، وأشار عز وجل إلى أَنَّ هذا الحكم ليس هو الحكم النَّهَائِيَّ في هذه الجريمة البشعة وإنما هو تمهيد قبل تقرير الحكم النهائي الذي يستمر إلى قيام الساعة حيث يقول : ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . ﴾ قال الفخر الرازي : اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالجميل وما يتصل بهذا الباب ضَمَّ إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، فإنَّ ذلك في الحقيقة إحسان إليهن ، ونظر لهنَّ في أمر آخرتهن ، وأيضا ففيه فائدة أخرى : وهو أن لا يجعل أمر الله الرجال بالإحسان إليهن سببا لترك إقامة الحدود عليهن

فيصير ذلك سببا لوقوعهن في أنواع المفساد والمهالك ، وأيضا فيه فائدة
 ثالثة ، وهي بيان أن الله تعالى كما يستوفي لخلقه فكذلك يستوفي عليهم ، وأنه
 ليس في أحكامه محاباة ولا بينه وبين أحد قرابة ، وأنَّ مَدَارَ هذا الشَّرْعِ
 الإنصاف والاحتراز في كل بابٍ عن طَرَفِ الإفراط والتَّفريطِ اهـ ومعنى :
 ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ أي واللاتي يَفْعَلْنَ الجريمة البشعة
 المستقبحة المُسْتَهْجَنَةَ الكبيرة والمراد بالفاحشة هنا زنى النساء المسلمات ،
 والخطاب في قوله عز وجل : ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ للولاء
 والحكام والقضاة ومعنى : ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي فاطلبوا
 ممن يدَّعي هذه الجريمة الفاحشة على المرأة إحضار أربعة رجال من المسلمين
 يشهدون بأن هذه المرأة المدَّعى عليها ارتكبت هذه الجريمة ، وأنهم شاهدوا ما
 يَشْهَدُونَ عليه بلا شك ولا ظن بل بالمعينة ، ولا بدَّ في هؤلاء الشهود أن
 يكونوا رجالاً ، فلا تقبل في هذه الشهادة شَهَادَةُ النساء ، ولا بد أن يكون
 هؤلاء الشهود معروفين بالعدالة لأن الله اشترط عدالة الشهود في البيوع
 والرجعة ، وهذا أكبر وأعظم وأولى .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعل
 الله لهنَّ سبيلاً﴾ هذا هو حكم الله عز وجل على من زنت من النساء وثبت
 لدى الحاكم الشرعي زناها بشهادة أربعة رجال عدول من المسلمين أن
 تُسَجَّنَ إلى أقربِ الأجلين وهما مَوْتُهَا أو أن يجيء تشريع يَنْسَخُ هذا الحكم
 حيث أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله : ﴿أو يَجْعَلِ اللهُ لهنَّ سبيلاً﴾ وقد
 كان هذا الحكم هو الطور الأول في هذا الشأن وكان يشمل كلَّ زانية بكرا
 كانت أو ثيبا ، وقد استمر هذا الحكم حتى جاء الطور الثاني من أطوار هذا
 الحكم في سورة النور حيث قال عز وجل : ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد
 منهما مائة جَلْدَةٍ﴾ وقد يَبَيِّنُ رسول الله ﷺ أنَّ هذا الحد الذي بَيَّنَّته هذه الآية

وهي الآية الثانية من سورة النور هو حدُّ زنا البكر رجلاً كان أو امرأة، وأضافت إليه السنة تغريب عام، وأن حدَّ الثيب المُخَصَّن هو جلده مائة ورجمه بالحجارة إلى الموت رجلاً كان أو امرأة، وأن هذا هو السبيل الذي أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، فقد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، البكر بالبكر جَلْدُ مائة ونَفْيُ سنة، والثيبُ بالثيب جَلْدُ مائة والرجْمُ، ومعنى قوله ﷺ: خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي: أَي تَلَقَّوْا هَذَا الْحُكْمَ مِنِّي وَاحْفَظُوهُ، ومعنى قوله ﷺ: فقد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا، أَي فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّبِيلَ الَّذِي أَجْمَلَهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ونسخ به ما كان قد شرعه في حق اللائي يأتين الفاحشة من النساء بقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاذْتَمَّهْنَ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾. وقوله ﷺ: الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مائة ونَفْيُ سَنَةٍ أَي حَدُّ زِنَا الْبِكْرِ بِالْبِكْرِ أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَأَنْ يُعْزَبَ عَامَا، والمرادُ بِالْبِكْرِ هُنَا هُوَ مَنْ لَمْ يَجَامَعْ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ، وقوله ﷺ: وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مائة والرجم أَي وَحْدُ زِنَا الثَّيْبِ بِالثَّيْبِ أَنْ يَضْرَبَ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَأَنْ يَرْجَمَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، والمرادُ بِالثَّيْبِ هُنَا هُوَ الْحُرُّ الْبَالِغُ الْعَاقِلُ الْمُجَامِعُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وقوله ﷺ: الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ وقوله الثيب بالثيب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له فلو زنى بكر بثيب أو ثيب ببكر فَإِنْ حَدَّ الثَّيْبَ غَيْرَ حَدِّ الْبِكْرِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدُّهُ وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِّ الْعَسِيفِ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجَهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُنْشِدْكَ

الله إِلَّا قَضَيْتَ لِي بكتاب الله ، فقال الآخرُ وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا
 بكتاب الله وأذن لي ، فقال : قل ، قال : إن ابني كان عسيفاً على هذا ، فزني
 بامرأته ، وإني أخبرت أَنَّ علي ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ،
 فسألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جَلْدُ مائة وتغريب عام ، وأن
 على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لأَقْضِيَنَّ
 بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردُّ عليك ، وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريب
 عام ، واغْدُ يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها . وقد أشار عمر بن
 الخطاب رضي الله عنه إلى أن الرجم ثبت بقرآن نُسِخَ لفظه وبقي حكمه ، فقد
 روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب
 فقال : إِنَّ الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل الله
 عليه آية الرجم ، قرأناها ، وَوَعَيْنَاهَا ، وَعَقَلْنَاهَا ، فَرَجَمَ رسولُ الله ﷺ ،
 وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم في
 كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم حقٌّ في كتاب الله على
 من زنى إذا أُحْصِنَ من الرجال والنساء إذا قامت البينة ، أو كان الحَبْلُ ، أو
 الاعتراف . اهـ وقد أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت رجم الزاني المحصن
 وأنه حكمٌ محكمٌ إلى يوم القيامة . أما الطور الثالث من أطوار تشريع عقوبة
 الزنا فهو نسخ جلد الثيب قبل رجه حيث لم يأمر رسول الله ﷺ بجلد التي
 زنى بها العسيف أي الأجير وإنما أمر أنيساً برجمها إن اعترفت ولم يذكر الجلد
 كما تقدم قريباً في حديث الصحيحين من رواية أبي هريرة وزيد بن خالد
 رضي الله عنهما ، كما أنه ﷺ رَجَمَ ماعزاً ، والغامدية ، والجهنية واليهودي ،
 واليهودية ، ولم يثبت بخبر صحيح أنه جلداهم قبل الرجم . وقوله عز وجل :
 ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ فَأِذْوَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 تَوَّاباً رَحِيماً . ﴾ أي ومن فَعَلَ هذه الفاحشة وهي الزنا منكم أيها الرجال

فَعُقُوبَتُهُ أَنْ يُوْذَى بِمَا يَرْدُعُ مِثْلَهُ مِنَ الضَّرْبِ بِالنَّعَالِ وَالْجَرِيدِ دُونَ حَدِّ مَحْدُودٍ،
وَالْتَّشْنِيَةِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ لِبَيَانِ صِنْفِي الرِّجَالِ
الْبَكَرِ وَالثَّيْبِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ قَدْ نَسَخَ وَصَارَ إِلَى جِلْدِ الْبَكَرِ مِائَةً
وَتَغْرِيبِ عَامٍ وَرَجْمِ الثَّيْبِ بِالْحِجَارَةِ إِلَى الْمَوْتِ. هَذَا، وَبَيْنَهُ إِثْبَاتُ الزِّنَا لَمْ
تَتَغَيَّرْ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَطْوَارِ فَلَا بُدَّ فِيهَا مِنْ أَرْبَعَةِ شُهُودٍ عَدُولٍ مِنَ الرِّجَالِ،
كَمَا أَشَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ النُّورِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ
الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدْهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ الْآيَتِينَ. وَفِي
جَعْلِ الشُّهُودِ لِإِثْبَاتِ الزِّنَا أَرْبَعَةً سِتْرٌ عَلَى الْعِبَادِ وَتَغْلِيظٌ عَلَى الْمَدْعِيِّ،
وَإِشْعَارٌ بِعَظَمِ جُرْمِ الزِّنَا وَبِشَاعَتِهِ، وَكَرَاهِيَةٍ لِإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ فِي الَّذِينَ
آمَنُوا، هَذَا وَقَدْ كَانَتْ شَرِيعَةُ التَّوْرَةِ تَقْضِي بِرَجْمِ الزَّانِي مُطْلَقًا بِكَرٍّ كَانَ أَوْ
ثَبِيًّا فَفِي الْإِصْحَاحِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ سَفَرِ التَّشْنِيَةِ فِي الْفَقْرَةِ ٢٠ وَ ٢١ فَيَمْنُ
تَزْوِجَ فَتَاةٍ عَلَى أَنَّهَا بَكَرٌ، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا عُذْرَةً يَقُولُ: وَلَكِنْ إِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ
صَحِيحًا لَمْ تُوجَدْ عُذْرَةٌ لِلْفَتَاةِ يُخْرِجُونُ الْفَتَاةَ إِلَى بَابِ بَيْتِ أَبِيهَا وَيَرْجِعُهَا رِجَالُ
مَدِينَتِهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَمُوتَ، وَفِي الْفَقْرَتَيْنِ ٢٣ وَ ٢٤ مِنْهُ: إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ
عُذْرَاءً مَخْطُوبَةً لِرَجُلٍ فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَأَخْرَجُوهَا
كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. وَلَا شَكَّ أَنَّ
التَّشْرِيعَ الْإِسْلَامِيَّ قَدْ رَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْإِصْرَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهَا﴾، إِنَّ اللَّهَ
كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا. إِنَّهَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ
مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا
الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. ﴿أَيُّ فَإِنْ عَرَفْتُمْ
صَحَّةَ التَّوْبَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْنُبِينَ فَلَا تَعْنِفُوهُمْ وَلَا تُثَرِّبُوا عَلَيْهِمَا فَلَا تُعَيِّرُوهُمْ إِنْ

الله يتوب على التائبين ، وهو أرحم الراحمين . وهو يقبل توبة التائب غير
المُصِرِّ ، فمن تاب تاب الله عليه ، إلا من تاب عند الموت أو مات كافرا فإن
الله عز وجل لا يقبل توبته ، وقد هيا الله لمن مات كافرا عذابا أليما في جهنم ،
وبئس المصير، عياذا بالله منها .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ،
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ
خَيْرًا كَثِيرًا .﴾

بعد أن ذكر عز وجل جملة من التشريعات التي تحمي حقوق النساء ،
وتصون كرامة المرأة ، وأكد عز وجل على مشاركة المرأة أخاها في الميراث ، وأن
لها نصيبا من الميراث كما أن للذكر نصيبا من الميراث وأعلن عز وجل أن هذه
الفرائض والتشريعات هي حدود الله ، وبشر من يحافظ على حدود الله
بجنت تجري من تحتها الأنهار ، وحذّر من يتعدى حدودَ الله بأنه يُعَرِّضُ نفسه
لعذاب الله في نار الجحيم ، ثم بيّن عقوبة الزانية والزاني في الطور الأول من
أطوار تشريع عقوبة هذه الجريمة ورغب في التوبة وحذّر من الإصرار على
المعصية ، أخذ في بيان المزيد من حقوق النساء ورفع ما كان يصيبُ المرأة من
العَنَتِ في الجاهلية حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ وهو يشير عز وجل بذلك إلى أن أهل الجاهلية كانوا أحيانا
يعتبرون المرأة نصيبا من الميراث وأنه مُحَرَّمٌ ذلك على المؤمنين ، كما ينهى المؤمنين
عن عضل النساء ظلماً وعدواناً ، قال البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بنُ
مقاتِلٍ حدثنا أسباط بنُ محمد حدثنا الشَّيْبَانِيُّ عن عكرمة عن ابن عباس قال
الشَّيْبَانِيُّ : وَذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ السُّوَّائِيُّ وَلَا أَظُنُّهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجلُ كان أولياؤه أَحَقَّ بامراته ،
إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا ، فَهُمْ

أَحَقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك . وبهذا الخبر الصحيح الثابت في سبب نزول هذه الآية الكريمة يتبين فضل الله عز وجل على النساء في ظل شريعة الإسلام حيث أوجب رعاية حقوقهن وحتم على الرجال دفع الضر عنهن وحرَّم جَعَلَهُنَّ نَصِيبًا من الميراث بعد أن قرر لهن نصيبًا من الميراث، ومعنى قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي يا معشر من آمن بالله ورسوله لا يجوز لكم أن تعتبروا امرأة ميتكم ميراثًا لكم وتجعلوا أنفسكم أحق بها من نفسها وأولياتها مكرهين لها على ما تشاءون دون رضاها، فإن هذا الفعل من أقبح أفعال الجاهلية التي أنقذكم الله منها حيث أرسل لكم نبيَّ الرحمة محمدًا ﷺ وأنزل عليه الكتاب المشتمل على حماية حقوق المرأة من عبث الجاهلين، وتعتن الظالمين، وهذاكم به إلى الصراط المستقيم، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ هذه هي الوصية الثانية من وصايا هذه الآية الكريمة بتحريم الإضرار بالنساء، أي ولا يحل لكم يا أزواج النساء أن تحبسوا المرأة وتمنعوها من التمتع بالحياة الزوجية الكريمة لأجل أن تحملوها على إعطائكم بعض ما بذلتموه لها من صداق أو غيره وتستردوه منها دون أن يكون منها تقصير في حقكم، قال ابن جرير رحمه الله : نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها والإضرار بها وهو لصحبته كارهٌ، ولفراقها مُحِبٌّ، لتفتدي منه ببعض ما آتاها من الصداق وإنما قلنا : ذلك أولى بالصحة لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل المرأة إلا لأحد رجلين إما لزوجها بالتضييق عليها وحبسها على نفسه وهو لها كارهٌ، مُضَارَّةٌ منه لها بذلك ليأخذ منها ما آتاها بافتدائها منه نَفْسَهَا بذلك، أو لوليِّها الذي إليه إنكاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلها لأحد غيرهما وكان الوليُّ معلوما أنه ليس ممن آتاها شيئًا فيقال إن عَضْلَهَا عن النكاح : عَضْلُهَا ليذهب ببعض ما آتاها كان معلوما أن الذي عَنَى الله تبارك

وتعالى بنهيه عن عَضْلِهَا ، هو زَوْجُهَا الذي له السبيلُ إلى عضلها ضراراً
لِتَفْتَدِي منه اهـ وقد حَرَّمَ الله عز وجل الإضرار بالمرأة في جميع صور الإضرار
وبخاصة من يُلْحِقُ الإضرار بزوجه ليستردَّ منها بعض ما دفعه لها من صداق
حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ
شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَاحِجَّ
عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . ﴾ وقال عز وجل في نفس السورة أيضاً: ﴿وَلَا
تَمْسُكُوهُنَّ ضَرَارًا لَتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ
اللَّهِ هُزُؤًا . ﴾ وقال هنا: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ
يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ وقال في نفس هذا المقام أيضاً: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ
زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانَا
وَإِثْمَا مَبِينَا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُمُكُمْ
مِيثَاقًا غَلِيظًا . ﴾ وقال عز وجل في سورة الطلاق: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا
عَلَيْهِنَّ ﴾ وحرَّم على ولي نكاح المرأة عضلها إذا رغبت في زوج كفاء حيث
يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ
يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا أَنْ
يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ أي لا يحل لكم إلحاق الأذى بالمرأة إلا في حالة ارتكابها
جريمة ثابتة فلكم في هذه الحالة إيذاؤها بالقدر الذي أذن الله لكم فيه في
كتابه أو في سنة رسوله محمد ﷺ ، وبعد أن صَدَّرَ الله عز وجل هذه الآية
الكريمة بِنَهْيَيْنِ أحدهما قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ
كَرْهًا ﴾ والثاني قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا
آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ أَتَبَعَ ذلك في نفس الآية بوجوب
الإحسان إلى النساء وعشرتهن بالمعروف مَبِينًا الحكمة العظيمة في هذه الوصية

الإلهية حيث يقول: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. ومعنى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي وأحسنوا صُحْبَهُنَّ وأدّوا حقوقهن التي فرض الله عز وجل عليكم لهن، وخافوا الله فيهن، ولا تسيئوا معاملتهن، وتَجَمَّلُوا لهن في أقوالكم وأفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحبون أن يتجملن لكم في أقوالهن وأفعالهن وهيئاتهن، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي المسلمين بالنساء كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استوصوا بالنساء خيرا. الحديث، كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عمرو بن الأحوص الجُشَمِيِّ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكرَ وَوَعَظَ ثم قال: ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنها هنَّ عَوَانٍ عندهنَّ، ليس تَمْلِكُونَّ منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فَعَلْنَ فاهجروهنَّ في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مُبْرَحٍ، فإن أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلا، ألا إنَّ لكم على نساءكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فَحَقُّكُمْ عليهن أن لا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ من تكرهون ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وَحَقُّهُنَّ عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهنَّ. ومعنى قوله ﷺ: هُنَّ عَوَانٍ عندهنَّ، أي هنَّ شبيهاتُ بالأسيرات، فالعواني جمع عانية قال في القاموس: والعواني: النساء لأنهن يُظَلَّمْنَ فلا ينتصرن، والتعنية الحبس اهـ والعاني الأسير، وقد شبه رسول الله ﷺ الزوجة في دخولها في طاعة الزوج تحت حكمه بالأسير وقوله ﷺ: فإن فَعَلْنَ فاضربوهن ضربا غير مُبْرَحٍ، يشعر بأن ذلك إنما يجوز للزوج إذا ارتكبت زوجته هذه الفاحشة المبيِّنة، وأن المراد بها النشوز وعدم الانقياد، وليس المراد الزنا لأن الزنا ليست عُقُوبَتُهُ أن تضرب المرأة ضربا غير مُبْرَحٍ، والضرب المُبْرَحُ هو الشديد الشاقُّ، وقد روى أبو داود بسند

صحيح من حديث إياس بن عبدالله بن أبي ذباب رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ذَرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ ، فَأُطِيفَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءً كَثِيرًا ، يَشْكُونَ أَزْوَاجِهِنَّ ، فقال رسول الله ﷺ : ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءً كثيرًا ، يَشْكُونَ أَزْوَاجِهِنَّ ، ليس أولئك بخياركم . ومعنى : ذَرْنِ أَيَّ اجْتِرَأَنَّ ، ومعنى أطاف أي أحاط ، ومعنى : بآل بيت محمد أي بأزواج رسول الله ﷺ ورضي الله عنهن . وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ ﴾ هذا هو التوجيه الرشيد والحكمة الغالية البليغة التي تُرَبِّي في نفس المسلم التسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله في كل نازلة تنزل بالإنسان سواء كانت متصلة بالحياة الزوجية أو غيرها كما قال عز وجل : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾ ولا شك أن الاستمساك بهذه الوصية الإلهية هو الأساس المكين لبناء البيت السعيد فإن المسلم قد يَسُوؤُهُ خُلُقٌ من زوجته لكنه إذا فَكَّرَ وَجَدَ بها نِعْمًا جليلة وخيرا كثيرا ، من سكون النفس والأولاد مما لا يستطيع الإنسان حَصْرُهُ ، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ ، أَوْ قَالَ : غَيْرُهُ . ومعنى : يَفْرُكُ يُبْغِضُ والعاقِل يَرَى أن كمال النعمة إنما يكون في الجنة ، وكما قال الشاعر :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القلدي ظمئت وأي الناس تصفو مشاربهُ
فينبغي للمسلم أن يحرص على أن يكون خيراً لأهله فقد روى الترمذي وقال : حديث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم .

قال تعالى : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا . ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . ﴿

بعد أن بين عز وجل في الآية السابقة وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف ، ورغب الزوج في الصبر على ما قد يراه من بعض ما يكره من خلقي أو خلقي في زوجته ، شدّد النكير هنا على الزوج الذي يرغب في طلاق زوجته ليتزوج بدّلها زوجة أخرى وكان قد أكثر لها الصداق ويُحاوّل أن يأخذ بعض ما ثبت في ذمته لها من صداق ، فحرّم على الزوج أن يأخذ شيئا من صداق زوجته التي يرغب في طلاقها ما دامت ليست ناشزا ولم تأت بفاحشة ، ولا يجوز له أن يستكثر صداقا التزم به لها مهما بلغ حتى لو كان قنطارا من الذهب ، ما دام قد دخل بها وأفضى إليها وأفضت إليه ، وسياق الآية الكريمة يشعر بأن هذا الزوج لا يريد الجمع بين زوجتين وإنما يريد تطليق زوجة ليتزوج بدّلها زوجة أخرى ولا يفعل ذلك عادة إلا من كان كارها للزوجة الأولى التي يريد طلاقها ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ أي وإن رغب أحدكم في فراق زوجته ليتزوج بدّلها زوجة أخرى فلا يحل له أن يظلم الزوجة التي يريد طلاقها ، بأن يفهرّها ويأخذ شيئا مما كان أضدّقها حتى ولو كان أضدّقها قنطارا من الذهب لأنه صار حقا خالصا لها لا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئا إلا بطيب نفس منها ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا﴾ هو توبيخ للزوج الذي يحاول الاستيلاء على مهر زوجته وأكله بالباطل ، وأن من فعل ذلك كان مرتكبا لعدة جرائم وهي أخذ ماله غيره ظلما ، وأنه

بمحاولة استرداد المهر من زوجته يَبْهَتْهَا إذ قد يَظُنُّ من يُحْسِنُ الظَّنَّ به أنه ما أخذ ذلك إلا لوقوفه على خيانة من زوجته ، وأنَّ مَنْ أخذ شيئاً من المهر الذي كان دفعه لزوجته بغير طيب نفس منها يكون قد ارتكب إثماً واضحاً وجريمة فاضحة ، قال في القاموس : بَهَتْ كَمَنْعَهُ بَهْتاً وَبَهْتاً وَبَهْتَاناً قال عليه ما لم يَفْعَلْ ، والبَهِيَّةُ : الباطل الذي يُتَحَيَّرُ مِنْ بَطْلَانِهِ ، والكَذِبُ كَالْبُهْتِ بالضم اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً . ﴾ هو زيادةٌ في تأكيد توبيخ من يأخذ شيئاً من مهر زوجته التي أصدقها إياه ، وتشديد في الإنكار على من فعل ذلك مع بيان أنه قد استوفى منها مُقَابِلَ هذا الصداق بإفضائه إليها ، وإفضائها إليه ، وأن بينها وبينه ميثاقاً غليظاً حيث أخذها بأمانة الله واستحل فرجها بكلمة الله ، فكيف يليق بمسلم أن يفعل ذلك وينتهك هذه الحرمات ، وينقض تلك الموائيق ، وقوله عز وجل : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أي وقد وصل بعضكم إلى بعض وصار الزوج وزوجته كأنهما جسمٌ واحد لا يَحْجِزُ بينهما شيءٌ ، وكَشَفَ خِمَارَهَا واطَّلَعَ منها على ما لم يُبَيِّحْ لوالديها الاطلاعُ عليه منها ، وأصل الإفضاء في اللغة الوصولُ والمخالطة والمباشرةُ ويقال للشيء المختلط فضاً ومنه قول الشاعر :

فقلت لها يا عمتي لكِ ناقتسي وَتَمَرٌ فَضاً في عَيْيَسِي وَزَيْبُ
ويقال : القومُ فَوْضَى فَضاً أي مختلطون لا أمير عليهم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً . ﴾ أي وأعطيتموهنَّ عهداً مُوثِقاً مُعَلَّطاً مُشَدَّداً عند عقد نكاحكم عليهنَّ أن تُسَكِّوهنَّ بمعروف أو تُسَرِّحوهنَّ بإحسان وأنكم إنما تستحلون التمتع بهن ، ومَخَالَطَتُهُنَّ بهذا الصداق فكيف تَسْتَيْبِحُونْ نقض هذا الميثاق الغليظ الذي ألزمكم الله عز وجل والتزمتم به لنسائكم ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله

عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بعرفة : فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح ، ولهن عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف . الحديث . وقال البخاري في صحيحه : بابُ الشروط في النكاح ، وقال عمر : مَقَاطِعُ الحقوق عند الشروط ، وقال المسور بن مخرمة : سمعت النبي ﷺ ذكر صِهرًا له فأثنى عليه في مصاهرته فأحسنَ قال : حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَّى لِي ، حَدَّثَنَا أَبُو الوليد هشام بنُ عبد الملك حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة عن النبي ﷺ قال : أَحَقُّ ما أوفيتم من الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج . ورواه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ : قال : قال رسول الله ﷺ : إِنْ أَحَقَّ الشُّرُوطُ أَنْ يُوفَى بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ شروعٌ في بيان مَنْ يَحْرُمُ نِكَاحُهَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَقَدْ تَحْرِمُ مَا نَكَحَ الْآبَاءُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ ، وَجَعَلَهُ فِي آيَةٍ خَاصَّةٍ ، وَلَمْ يَسْرُدْهُ مَعَ سَائِرِ الْمَحْرَمَاتِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى لِأَنَّهُ عَلَى قَبْحه كَانَ فَاشِيًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ ذَمَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَكْثَرِ مَا ذَمَّ بِهِ الزَّنا حَيْثُ قَالَ فِي الزَّنا : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . وَقَالَ فِي نِكَاحِ زَوْجَةِ الْأَبِ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . وَقَدْ كَانَ مِنْ تَنَاقُضَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُمْ يُحْرِمُونَ زَوْجَةَ الْإِبْنِ الْمُتَبَنَّى وَلَا يَحْرِمُونَ نِكَاحَ زَوْجَةِ الْأَبِ كَمَا كَانُوا كَذَلِكَ يَسْتَبِيحُونَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ أَقْلٌ فِي الْقَبْحِ وَإِهَانَةِ الرَّحِمِ مِنْ نِكَاحِ زَوْجَةِ الْأَبِ وَلِذَلِكَ بَدَأَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَحْرَمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِتَقْطِيعِ نِكَاحِ زَوْجَةِ الْأَبِ ، وَتَبْشِيعِهِ ، وَخَتَمَ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ بِتَحْرِيمِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ، وَخَتَمَ كِلَا مِنْهُمَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ

سلف ﴿ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية : حدثني محمد بن عبد الله المحرَّمي قال : حدثنا قُرَّادٌ حدثنا ابن عُيَيْنَةَ وعَمْرُو عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يُحَرِّمُونَ ما يُحَرِّمُ إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، قال : فأنزل الله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ اهـ وهذا الخبر الصحيح الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما إنما كان في جاهلية العرب أما أهل جاهلية العجم فقد كان بعضهم يستبيحون الزواج من الأخوات والبنات ، وقد أجمع أهل العلم على أنه بمجرد عقد نكاح الأب على المرأة يجرمها على الابن وإن لم يدخل بها الأب ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء ﴾ الآية يُحَرِّمُ الله تعالى زوجات الآباء تكملة لهم ، وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتُحَرِّمُ على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مُجْمَعٌ عليه اهـ وقول ابن كثير رحمه الله : أن تُوطأ من بعده ، أي أن يطأها الابن من بعد أبيه . والتعبير بما في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم ﴾ لأن المقصود تبشيع هذا النكاح والتنفير منه وذلك لأن العرب يُعَبِّرُونَ بمن عن ذات العاقل ويُعَبِّرُونَ بها عن غير العاقل أو عن صفة العاقل لا ذاته ، ومن ذلك ما أثر أن أكثم بن صيفي حكيم العرب عندما علم ببعثة رسول الله ﷺ عَزَمَ على التوجه إليه ولقائه فقال له بنوه : أنت قد كبرت ، ويشق عليك السفر ونحن نكفيك فتوجه رجلان من بنيهِ إلى النبي ﷺ ، وسألاه : مَنْ أنت ؟ وما أنت ؟ فقال : أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا فأنا محمد رسول الله ، فسألاه أن يقرأ عليهما شيئا من القرآن ، فقرأ عليهما : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . ﴾ فرجعا إلى أبيهما أكثم بن صيفي وقالوا له : سألناه عن

نسبه فأبى أن يرفع نسبه وسألناه عن صفته فأخبرنا أنه رسول الله وسألناه عما جاء به فقرأ علينا هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية . فقال أكثم بن صيفي : يا قوم سارعوا إلى اتباع هذا الرجل فإنه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن سَفْسَافِهَا . وعلى هذا الأسلوب العربي الفصيح البليغ جاء التعبير بما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ للتنديد بمن يجلس من زوجة أبيه مجلس أبيه منها ، ويُقَارِفُهَا كَمَا قَارَفَهَا أَبُوهُ ، ولا شك أن العاقل يشمئز من ذلك تمام الاشمئزاز ولا يرضاه لنفسه أبداً ، وقد قال أبو داود في سننه : حدثنا مُسَدَّدُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَطْرَفٍ عَنْ أَبِي الْجَهْمِ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أَطُوفُ عَلَى إِبِلٍ لِي ضَلَّتْ ، إِذْ أَقْبَلَ رَكْبٌ أَوْ فَوَارِسٌ مَعَهُمْ لَوَاءٌ ، فَجَعَلَ الْأَعْرَابُ يُطِيفُونَ بِي لِمَنْزِلَتِي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَنْوَأَ قُبَّةً فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهَا رَجُلًا فَضَرَبُوا عُنُقَهُ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَذَكَرُوا أَنَّهُ أَعْرَسَ بِامْرَأَةِ أَبِيهِ اهـ وإلا في قوله : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ بمعنى بعد أي بعد ما مضى منه ما مضى مما كان لا ينبغي لعاقل أن يقارفه . وليس قوله عز وجل : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ تقريراً لما كانوا عليه في الجاهلية من نكاح ما نكح الآباء . وأنه معفو عنه ، فإن سياق القرآن العظيم وما وَصَفَ به هذا النكاح بعد قوله : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من قوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ يأبى ذلك ، بل إنما جاء قوله عز وجل : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لإفادة أنهم كانوا في جاهليتهم يقتربون ذلك ، وقد أشرت إلى ذلك قريباً ، وأن العرب ما نكحوا من المحرمات سوى زوجة الأب والجمع بين الأختين وأنه تبارك وتعالى عَقَّبَ تحريم نكاح زوجة الأب بقوله : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ كما عَقَّبَ بذلك تحريم الجمع بين الأختين ، ولم يُعَقَّبْ غيرهما من المحرمات بهذا التعقيب لأنه لم يكن سلف منه شيء في جاهلية العرب ، وقد وصف الله تبارك وتعالى نكاح ما نكح الآباء بأنه فاحشة ومقتٌ وأنه ساء سبيلاً ، والفاحشة هي الجريمة

الكبيرة المستبشعة المستقبحة، والمقت هو أشدُّ البُغْضِ المقرون بالغضب والاستحقار، ومعنى ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بش طريقاً ومنهجاً ما كنتم تفعلونه من نكاح ما نكح أبائكم من النساء المُستقبِح عقلاً وشرعاً وعادةً وعُرفاً.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخُواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ
وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُواتُكُمْ
مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُم
الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا . ﴿

بعد أن صَدَّرَ الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء في النكاح بتحريم
نكاح زوجة الأب وَجَعَلَهَا فِي آيَةٍ خَاصَّةٍ بِهَا تَشْدِيدًا فِي التَّحْذِيرِ مِنْ نِكَاحِهَا
بِسَبَبِ مَا كَانَ يَقْتَرِفُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بَيَانًا لِتَحْرِيمِ نِكَاحِ
ثَلَاثِ عَشْرَةِ امْرَأَةٍ جَمَعَهُنَّ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخُواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأُخْتِ
وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُواتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ
وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . ﴿ وَهَذِهِ النِّسَاءُ
الْمَحْرَمَاتُ مِنْهُنَّ سَبْعٌ حُرِّمَتْ بِسَبَبِ النَّسَبِ وَاثْنَتَانِ بِسَبَبِ الرِّضَاعَةِ ، وَأَرْبَعٌ
بِسَبَبِ الْمَصَاهِرَةِ ، وَكُلُّهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ عَلَى التَّأْيِيدِ إِلَّا الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فَإِنَّهُ
تَحْرِيمٌ مُؤَقَّتٌ بِالْجَمْعِ إِذَا بَجُوزَ إِذَا بَانَ مِنْهُ زَوْجَتُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُخْتُهَا عِنْدَ خِلَاتِهَا
مِنْ مَوَانِعِ النِّكَاحِ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ آخِرَ هَذِهِ
الْمَحْرَمَاتِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ذَلِكَ لَكِنْ لَمَّا كَانَ
تَحْرِيمُهَا مُؤَقَّتًا أُخِّرَ فِي الذِّكْرِ ، وَقَدْ أَلْحَقَتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ تَحْرِيمَ الْجَمْعِ
كَذَلِكَ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَالْمَرْأَةِ وَخَالَاتِهَا فَقَدْ رَوَى الْجَمَاعَةُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي

هريرة رضي الله عنه قال : نهى النبي ﷺ أن تُنكح المرأة على عمتها أو خالتها . وبهذا تكون المحرمات بسبب المصاهرة سبعة ، فالمحرمات بسبب النسب هنَّ الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنتُ الأخ وبنتُ الأخت ، والمحرمتان بسبب الرضاع هي الأم من الرضاعة والأخت من الرضاعة ، أما السَّبْعُ المحرماتُ بالمصاهرة فهي زوجة الأب كما تقدم في الآية السابقة وأمُّ الزوجة وبنتُ الزوجة المدخول بها المعروفة بالربيبة ، وزوجة الابن والجمع بين الأختين والجمع بين المرأة وعمتها والجمع بين المرأة وخالتها ، ولا نزاع عند أهل العلم في أن المراد بقوله تبارك وتعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ الآية هو تحريم نكاح هؤلاء النسوة ، والمرادُ بالأم في الآية هي كل أنثى لها عليك ولادةٌ ، فيدخل في ذلك أُمُّكَ التي حملتك في بطنها وأُمَّهَاتُهَا وَجَدَّاتُهَا وَأُمُّ الْأَبِ وَجَدَّاتُهُ وَإِنْ عَلَوْنَ ، والمراد بالبنت هي كل أنثى لك عليها ولادةٌ فيدخل في ذلك بنتك لصلبك وبناتها مهما نَزَلْنَ ، وبنت ابنك وبناتها مهما نَزَلْنَ كذلك ، والمراد بالأخت كل أنثى شَارَكَتَكَ في أبويك أو أحدهما ، والمراد بالعمة كل أنثى شاركتُ أباك أو جدَّكَ في أبويه أو أحدهما مهما كان ، والمراد بالخالة كل أنثى شاركت أُمَّكَ في أبويها أو أحدهما مهما كان ، والمراد ببنت الأخ كل أنثى كان لأخيك عليها ولادةٌ فيدخل في ذلك بنت أخيك لصلبه وبناتها مهما نَزَلْنَ . و المراد ببنت الأخت كل أنثى لأختك عليها ولادةٌ فيدخل في ذلك بنت أختك التي حملتها في بطنها وبناتها مهما نَزَلْنَ ، وقوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ ﴾ الرضاعة هي امتصاص الطفل اللبن من ثدي المرأة فإذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه لأنها صارت أُمًّا لَهُ ، وحرمت عليه بنتها لأنها صارت أخته ، وحرمت عليه أخت من أرضعته لأنها صارت خالته ، وأُمُّهَا لأنها صارت جدَّته ، وبنت زوجها صاحب اللبن لأنها أخته ، وأخت زوجها صاحب اللبن لأنها صارت عَمَّتُهُ ، وأم صاحب

اللبن لأنها صارت جدته ، وبنات بني المرأة التي أرضعته وبنات بناتها لأنهن
 بنات إخوته وبنات أخواته وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس
 رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أريد على ابنة حمزة فقال : إنها لا تحل لي ، إنها
 ابنة أخي من الرضاعة ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ، وفي لفظ
 للبخاري من طريق عمرة بنت عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرتها
 أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت
 حفصة ، قالت : فقلت : يا رسول الله هذا رجل يستأذن في بيتك ، فقال
 النبي ﷺ أراه فلانا ، لعم حفصة من الرضاعة ، قالت عائشة : لو كان فلان
 حياً - لعمها من الرضاعة - دخل علي؟ فقال : نعم ، الرضاعة تحرم ما تحرم
 الولادة . وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة أنها أخبرته أن عمها من
 الرضاعة يسمى أفلح استأذن عليها فحجبت ، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال
 لها : لا تحتجبي منه فإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب . وفي لفظ
 لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ويحرم من
 الرضاعة ما يحرم من الرحم . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري :
 قال العلماء : يستثنى من عموم قوله : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب
 أربع نسوة ، الأولى : أم الأخ في النسب حرام لأنها إما أم وإما زوج أب ، وفي
 الرضاع قد تكون أجنبية فترضع الأخ فلا تحرم على أخيه ، الثانية : أم الحفيد
 حرام في النسب لأنها إما بنت أو زوج ابن ، وفي الرضاع قد تكون أجنبية
 فترضع الحفيد فلا تحرم على جدّه ، الثالثة : جدة الولد في النسب حرام لأنها
 إما أم أو أم زوجة ، وفي الرضاع قد تكون أجنبية أرضعت الولد فيجوز لوالده
 أن يتزوجها ، الرابعة : أخت الولد حرام في النسب لأنها بنت أو ربيبة ، وفي
 الرضاع قد تكون أجنبية فترضع الولد فلا تحرم على الوالد اهـ ولا شك أن
 محرمة الرضاع إنما تختص بتحريم التناكح وجواز الخلوة والنظر والمسافرة أما

ما عدا ذلك من التوراث ووجوب الإنفاق والعق بالملك فهذا خاص بالنسب ولا دخل للرضاع فيه، ولو رَضَعَ عُمَرُ من عائشة مثلاً، ولعائشة بنون وبناتٌ ولعُمَرُ إخوةٌ لم يرضعوا من عائشة فإن جميع أبناء وبناتِ عائشة يكونون إخوةً لِعُمَرُ مهما اختلفت أعمارهم ولا يكون إخوةٌ عمر من النسب الذين لم يرضعوا من عائشة إخوةً لأبناء وبناتِ عائشة لأن الحرمة إنما تنتشر بين كل اثنين رضعا من ثدي المرأة مهما اختلفت أوقات رضاعهم. وقد وَرَدَ الرضاعُ في هذه الآية الكريمة مطلقاً لم يُقَيَّدَ بمقدار مُعَيَّنٍ وقد قَيَّدَ رسول الله ﷺ هذا الإطلاق بأن المصة والمصتين لا تُحَرِّمُ وأن الرضاع المُحَرَّمُ هو ما كان خَمْسَ رضعات مشبعات، وقد جعل الله تبارك وتعالى من وظائف رسول الله محمد ﷺ أن يُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم حيث يقول عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وبيانه ﷺ للذكرِ يشمل تقييدَ المطلق وإطلاقَ المقيد وتخصيصَ العموم وبيانَ المَجْمَلِ وقد أخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ وسلم: لا تُحَرِّمُ المِصَّةُ والمِصَّتَانِ. كما أخرج مسلم من حديث أم الفضل رضي الله عنها قالت: دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي فقال: يا نبيَّ الله إني كنت لي امرأة، فتزوجتُ عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحُدُثَى رضعةً أو رضعتين، فقال نبيُّ الله ﷺ: لا تُحَرِّمُ الإِمْلاجَةُ والإِمْلاجتَانِ. وفي لفظ لمسلم من حديث أم الفضل أن نبي الله ﷺ قال: لا تُحَرِّمُ الرضعةُ أو الرضعتان أو المصة أو المصتان. اهـ والمصة هي المرة الواحدة من المِصِّ ويقال لها: الإِمْلاجَةُ والرضعةُ وهي تَنَاقُلُ الثدي برفق وامتلاجٌ لَبَنِهِ أي امتصاصُهُ لِمَرَّةٍ واحدة، يقال: اِمْتَلَجَ اللَّبَنَ أي امتصه، وأملجه أَرْضَعَهُ. كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيهَا

يُقرأ من القرآن اهـ ولا نزاع عند أهل العلم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وأن قراءة الآحاد تكون شاذة ولا تجوز القراءة بها في الصلاة، وقد أجمع المسلمون كذلك على أن قول عائشة رضي الله عنها: **فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهْنٌ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ**. أنه لا تجوز قراءة خمس رضعات معلومات على أنها قرآن، لأنها لم تخرج عن كونها قراءة آحاد فهي منسوخة التلاوة قطعاً، ولا نسخ بعد رسول الله ﷺ قال النووي رحمه الله في قول عائشة رضي الله عنها: **فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهْنٌ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ**: معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه ﷺ تَوَفَّى وبعض الناس يقرأ: خمس رضعات ويجعلها قرآناً مَتَلَوْا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يُتلى اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي وحُرِّمَتْ عليكم والدات زوجاتكم ولم يشترط الله تبارك وتعالى في تحريم أم الزوجة الدخول بالزوجة، وقد ذهب عامة أهل العلم والفقهاء السبعة والأئمة الأربعة إلى أن مجرد العقد على البنت يُحَرِّمُ أمها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرِبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي وحُرِّمَتْ عليكم بنات زوجاتكم إذا كنتم دخلتم بهن، قال القرطبي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حَلَّ له نكاح ابنتها اهـ وذلك لأن العقد على الأم لا يحرم البنت وإنما تحُرِّمُ إذا كان دخل بأمها، والتقيد بقوله عز وجل: ﴿اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له إذ الغالب هو أن تكون الربيبة وهي بنت الزوجة من غير الزوج في حَجَرِ أمها ولذلك قال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقيد بكونها في حَجَرِ الزوج فلم يقل: ولم تكن في حُجُورِكُمْ. وهذا ظاهر بحمد الله، وقوله عز وجل: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي

وحرمت عليكم بسبب المصاهرة أيضا زوجات أبنائكم الذين من أصلابكم بخلاف الأبناء بالتبني فإن زوجة الابن بالتبني حلال إذا طلقها الابن المتبني ، وقد ألحقت السنة زوجة الابن من الرضاع بزوجة الابن من الصلب ، وحلائل أبناء الأبناء كحلائل الأبناء في التحريم ، ويكفي في تحريم زوجة الابن مجرد عقد الابن عليها حيث لم يُشترط الدخول في النص الكريم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم أن يكونَ تحت الرجل منكم أختان سواء كان على طريق الزواج أو على طريق مُلْكِ اليمين قال ابن كثير رحمه الله : وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية ، أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواءً ، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمعُ بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذلك هو عند جمهورهم ، وهم الحجةُ المحجوجُ بها مَنْ خَالَفَهَا وَشَدَّ عَنْهَا اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تعريف بجوده وكرمه حيث شرع لأمة محمد ﷺ أحسن الشرائع ورفع عنهم الإضرَ والأغلال ولم يُحْمَلْهم فوق طاقتهم وخفف عليهم .

قال تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرَاضِيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآيتين السابقتين المحرمات من النساء في النكاح على التأييد وختم بأحد أنواع التحريم المؤقت وهو الجمع بين الأختين شرع هنا يبين بعض أنواع التحريم المؤقت الأخرى حيث يقول : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي وحرمت عليكم النساء ذوات الأزواج إلا ما ملكتموهن بالسبي فإن السبي يقطع عصمة زوجها الكافر، وهي حلال لمن وقعت في سهمه بعد استبراء رحمها، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم حُتَيْنِ بعث جيشا إلى أوطاس فلقوا عدوًا، فقاتلوهم، فظَهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تَحَرَّجُوا من غَشِيَانَهُنَّ من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن . ومعنى قوله : إذا انقضت عدتهن أي تم استبراء أرحامهن بوضع الحمل أو بحیضة أو بمضي شهر لمن لا تحيض . وفي هذا المعنى يقول الفرزدق :

وَذَا حَلِيلٍ أَنْكَحْتَهَا رِمَاحَنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَنْبِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقْ
وقد قرأ جميع القراء قوله عز وجل هنا : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بفتح الصاد، وقد استعمل العرب ثلاث كلمات على صورة اسم المفعول وهم يريدونها على معنى اسم الفاعل وهي أَخْصَنَ فهو مُحْصَنٌ وَالْفَجَّ بمعنى

أَفْلَسَ فهو مُلْفَجٌ وأسْهَبَ أي أكثر الكلام فهو مُسْهَبٌ وقد يقولون فيها :
مُحْصِنٌ ، ومُسْهَبٌ ومُلْفَجٌ ، وأصل الإحصان في اللغة المنع ، وقد ورد في القرآن
الكريم لأربعة معانٍ ، أحدها الحرية كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ
الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ أي والذين
يقذفون الحرائر ، بدليل أنه لو قَذَفَ غير حُرٍّ لم يُجْلَدْ ثمانين وكذلك قوله عز
وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والثاني من معاني الإحصان هو
العِفَافُ ومنه قوله تعالى : ﴿ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ
غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالتِّي أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي أَعَقَّتْهُ . والمعنى
الثالث من معاني الإحصان الواردة في القرآن الكريم هو الإسلام ومنه قوله
تعالى : ﴿ فَإِذَا أَخْصَنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ على قراءة من قرأ بفتح الهمزة
والصاد ، أي أَسْلَمْنَ . والمعنى الرابع من معاني الإحصان الواردة في القرآن
الكريم هو التَزَوُّجُ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي والمتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي ، وقوله عز
وجل : ﴿ كَتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي كتب الله عز وجل تحريم ما حُرِّمَ من النساء
وتحليل ما أحلَّ منهن كتاباً عليكم ، فقوله : ﴿ كَتَابَ اللَّهِ ﴾ بالنصب على أنه
مصدر من غير لفظ الفعل ، وقوله عز وجل : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ
تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أي وأبيح لكم سِوَى ما حُرِّمَ عليكم
من النساء المذكورات في الآيتين السابقتين وفي صدر هذه الآية إرادة أن تطلبوا
النساء بأموالكم متزوجين غير زانين . ومعنى ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ أي بما تُؤْتُونَ من
الصدقات في الزواج أو الثمن في التَّسَرِّي ، وأصل السفاح في اللغة مأخوذ من
السفح وهو الصَّبُّ ، وإنما سُمِّيَ الزنا سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلا صَبُّ
مائه دون هدف كريم . وقوله عز وجل : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ

أَجُورُهُنَّ فَرِيضَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١﴾ أَيُّ فَمَا تَمَكَّنْتُمْ مِنَ التَّلَذُّذِ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ التَّلَذُّذِ وَالْإِنْتِفَاعِ مِنْ زَوْجَاتِكُمُ اللَّاتِي عَقَدْتُمْ نِكَاحَهُنَّ فَوْقَ لَهْنٍ مُهَوَّرُهُنَّ فَرِيضَةً لَازِمَةً فَرَضَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ لَهْنٌ كَامِلَةٌ غَيْرُ مَنْقُوصَةٍ مَا دَامَ قَدْ حَصَلَ لَكُمْ مِنْهُنَّ تَلَذُّذٌ وَلَوْ بِالْخُلُوعِ، مَا دَامَتْ الْخُلُوعُ صَحِيحَةً، وَلَا حَرَجٌ عَلَيْكُمْ وَلَا إِثْمٌ إِذَا تَنَازَلَ أَحَدُكُمْ عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ أَوْ كَامِلِ حَقِّهِ لَدَى الْآخَرِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ الْفَرِيضَةِ حَيْثُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَعْطِيَ زَوْجَهَا مَا طَابَتْ نَفْسُهَا بِهِ مِنْ حَقِّهَا عَلَيْهِ مِنَ الصَّدَاقِ، كَمَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْطِيَ زَوْجَتَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْفَرِيضَةِ وَالصَّدَاقِ الْمُسَمَّى بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْعَقْدِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِيمٌ حَكِيمٌ، يَجْزِي الْمُحْسَنَ بِإِحْسَانِهِ وَلَا يُضِيعُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ عَمَلٍ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ الزَّوْجُ أَوْ الزَّوْجَةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي تَشْرِيعِهِ حِكْمٌ سَامِيَةٌ لَا يَحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدْ ادَّعَى بَعْضُ النَّاسِ أَنْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ لَوْرُودَ لَفْظِ ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ وَلَفْظِ ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ مَعَ أَنْ لَفْظَ الْاسْتِمْتَاعِ أَتَمُّ فِي الزَّوْجَةِ، وَكَذَلِكَ قَدْ سَمَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَهْرَ أَجْرًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وَهِيَ الْمَهْرُ قِطْعًا، وَكَذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وَهِيَ الْمَهْرُ قِطْعًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أَيُّ مُهَوَّرَهُنَّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُتَعَةَ قَدْ أُبِيحَتْ بِالسُّنَّةِ ثُمَّ حُرِّمَتْ وَكَانَتْ إِبَاحَتُهَا ضَرُورَةً فَكَانَتْ تَقْدَرُ بِقَدْرِهَا إِلَى أَنْ أَعْلَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا حُرِّمَتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا أُبِيحَتْ ثُمَّ حُرِّمَتْ ثُمَّ أُبِيحَتْ ثُمَّ حُرِّمَتْ. قَالَ النَّوَوِيُّ: وَالصَّوَابُ الْمُخْتَارُ أَنَّ التَّحْرِيمَ وَالْإِبَاحَةَ كَانَا مَرَّتَيْنِ، وَكَانَتْ حَلَالًا قَبْلَ خَيْرٍ ثُمَّ حُرِّمَتْ يَوْمَ خَيْرٍ، ثُمَّ أُبِيحَتْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَهُوَ يَوْمُ أُوطَاسٍ لَا تَصَالُحُهَا ثُمَّ

حرّمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ثم قال النووي : قال القاضي : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل ، لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها اهـ . وقد روى البخاري ومسلم من حديث علي رضي الله عنه قال : نَهَى رسول الله ﷺ عن المتعة عام خيبر . وفي لفظ للبخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء وعن أكل الحُمْرِ الأهلية يوم خيبر . كما روى مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : رَخَّص رسولُ الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثة أيام ثم نَهَى عنها . وفي لفظ لمسلم من طريق الربيع بن سبرة عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليُخَلِّ سبيلها ، ولا تأخذوا إذا آتيتموهن شيئاً . وفي لفظ لمسلم من حديث سبرة أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليُخَلِّ سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً ، وفي لفظ لمسلم عن سبرة قال : أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها اهـ . وقد كان فتح مكة في أواخر شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة وأوطاس كانت في شوال من السنة الثامنة للهجرة كذلك ، وأوطاس وإد في ديار هوازن من أودية الطائف قرب حنين ، وقد أخرج الطبراني في الأوسط من طريق إسحاق بن راشد عن الزهري عن سالم : أتى ابنُ عمر فقيل له : إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة فقال : معاذ الله ، ما أظن ابن عباس يفعل هذا ، فقيل : بلى ، قال : وهل كان ابن عباس على عهد رسول الله ﷺ إلا غلاماً صغيراً . ثم قال ابن عمر : نهانا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسافحين اهـ .

ومن أبرز أدلة تحريم المتعة كذلك وجوه ساقها الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية حيث قال : الأول : أن الوطاء لا يحل إلا في الزوجة أو المملوكة لقوله تعالى : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم﴾ وهذه المرأة لا شك أنها ليست مملوكة ، وليست أيضاً زوجة ، ويدل عليه وجوه : أحدها : لو كانت زوجةً لحصل التوارث بينهما ، لقوله تعالى : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ وبالاتفاق لا توارث بينهما ، وثانيها : ولثبت النسب لقوله عليه الصلاة والسلام : الولد للفراس ، وبالاتفاق لا يثبت ، وثالثها : وَلَوَجَبَتِ الْعِدَّةُ عَلَيْهَا لقوله تعالى : ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ اهـ . وقد أعلن عمر رضي الله عنه بمشهد من أصحاب رسول الله ﷺ النهي عن المتعة وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهما من أئمة أصحاب رسول الله ﷺ موجودين ، ووافقوا عمر رضي الله عنه على إعلان تحريمها يوم وقع فيها عمرو بن حريث رضي الله عنه لعدم علمه بتحريمها ، ولا شك أن علياً رضي الله عنه لا يوافق عمر رضي الله عنه إلا وهو مطمئن أن ذلك هو حكم رسول الله ﷺ ، وقد تقدمت الروايات الصحيحة الثابتة عن علي رضي الله عنه بأن رسول الله ﷺ حرّم المتعة بعد الترخيص فيها ، هذا ولا نزاع عند أهل العلم أن المتعة لم تُبَحَّ في الإسلام عندما أبيحت إلا في الغزو ، ولم تُبَحَّ للمقيمين أبداً ، وأنها عندما أبيحت كانت للضرورة ، كما أشار إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري في صحيحه عنه من طريق أبي جمرة .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ٢٤٠ ۝﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء على التأييد ، وأنه حرّم الجمع بين الأختين ، وحرّم نكاح المتزوجات إلا ذوات الأزواج اللاتي مُلِكن بالسبي حيث يقطع السبئي عصمة زوجها الكافر ، وشدّد على الأزواج في وجوب المحافظة على حقوق الزوجات ، والتزام حدود الله فيهن ، والحرص على العفاف وصيانة الأعراض ، بيّن هنا أنه يجوز للحر المسلم أن يتزوج أمة مسلمة إذا كان عاجزاً عن أن يتزوج حرة مسلمة لقلة ذات يده وفقره ، وأنه لابد من إذن سيد الأمة في زواجها ، وأنه يجب الوفاء للأمة بمهرها مع الحرص على اختيار الأمة العفيفة المعروفة بحُسن السيرة والسلوك وفي أثناء السّياق ندّد بالتمييز العنصري وبيّن أن المسلم أخو المسلمة بغضّ النظر عن نسبها ولونها ، حيث يقول عز وجل : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۝ أَيُّ وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ أَيْهَا الْأَحْرَارِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَوْتَةِ نِكَاحِ حُرَّةٍ مُؤْمِنَةٍ عَفِيفَةٍ بِسَبَبِ قَلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ فَلْيَتَزَوَّجْ أَمَةً مَمْلُوكَةً مُسْلِمَةً ، وَالطَّوْلُ هُوَ الْفَضْلُ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّعَةُ وَالْغِنَى كَمَا فِي الْقَامُوسِ ، وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَنْ يَتَزَوَّجُ أَمَةً أَنْ يَكُونَ عَاجِزاً عَنِ الزَّوْجِ مِنَ الْحُرَّةِ الْمُسْلِمَةِ لِحَرَصِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَجَنُّبِ اسْتِرْقَاقِ الْحُرِّ الْمُسْلِمِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ الْحُرَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَزَوَّجَ الْأَمَةَ يَصِيرُ أَبْنَاؤُهُ

منها عبيداً لسيدها ، إذ الأولاد يتبعون أمهم حريةً ورقاً ويتبعون خير الأبوين ديناً ، فالإسلام يحرص على سدّ كل طريق يؤدي إلى استرقاق الحرّ المسلم ويعمل على تحرير الأرقاء ، ولما كان قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ قد يفهم منه مَنْ لا خبرة له بأسرار وحكم التشريع الإسلامي أن ذلك تمييزٌ عنصري دفع ذلك الوهم وأبعد ذلك الخاطر حيث عقب بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أي ولا تشككوا في إيمان أحد بسبب لونه أو عنصره فعليكم أن تكتفوا بما يظهر لكم من انقياد الشخص لتعاليم الإسلام ، وكلّوا السرائر إلى الله وحده فإنه هو وحده علام الغيوب ، ورُبَّ أمةٍ مؤمنة تفضّل الحرة المؤمنة في إيمانها ، وبعضكم من جنس بعض في النسب والدين ، فلا يترفع الحرّ عن نكاح الأمة مادام يخشى على نفسه الوقوع في العنت وارتكاب ما حرّم الله عز وجل من الفاحشة وما أحسن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفأ أبوهُمُوا آدَمَ وَالْأُمَّ حَوَاءُ

ولذلك قال عز وجل في خواتيم المسك من سورة آل عمران : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامِلٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ وقال عز وجل في مطلع سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ولم تعرف الإنسانية في تاريخها الطويل ديناً أو نظاماً حارب التمييز العنصري كما حاربه دينُ الإسلام الذي بعث الله به النبي الهاشمي القرشيّ الأميَّ محمداً ﷺ ، واعتبر التمييز باللون أو الجنس من عمل الجاهلية ولذلك نبه رسول الله ﷺ أبا ذر لما عَيَّرَ عَبْدًا لَهُ بِأَمِهِ حيث قال له : يَا ابْنَ السُّودَاءِ : فقال له رسول الله ﷺ : إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ، فقد روى البخاري ومسلم

عن المَعْرُورِ بنِ سُوَيْدٍ قال : رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه مثلُها ، فسألته عن ذلك ، فذكر أنه ساءَ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فَعَيَّرَهُ بأمه فقال النبي ﷺ : إنك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ ، هم إخوانكم وخوَلُكُمْ ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسُه مما يلبسُ ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ ، فإن كَلَفْتُمُوهُمْ فاعينُوهُمْ . بل جعل الإسلام لمن كانت له أمةٌ فأدبها وأعتقها وتزوجها أن له أجرَين فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة لهم أجران : رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبية وآمنَ بمحمد والعبْدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه ، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدبها فأحسنَ تأديبها ، وعَلَّمَهَا فأحسنَ تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَانكِحُوهُمْ بِإِذْنِ أَهْلِهِمْ وَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى الشرط الأول من شروط جواز نكاح الأمة المؤمنة وهو العجز عن نكاح الحرة المسلمة ، ذكر هنا بقية الشروط التي تبيح نكاح الأمة المؤمنة وهي أن يكون الزواج بإذن سيدها وأن يعطيها الزوج مهرأً بالمعروف ، وأن تكون الأمة معروفةً بالعفاف وحسن السيرة والسلوك ، ففي قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَانكِحُوهُمْ بِإِذْنِ أَهْلِهِمْ ﴾ بيانٌ على أن السيد هو وليُّ أمتِه ، لا تزوجُ إلا بإذنه ، وكذلك هو وليُّ عبده فليس للعبد أن يتزوج بغير إذن سيده ، وقد أجمع على ذلك علماء الإسلام ، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال : حديث حسنٌ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أيما عبدٍ تزوجَ بغير إذن سيده فهو عاهر ، وقد أخرجه أيضاً ابن حبان والحاكم وصححاه . وإذا كان مالكُ الأمة امرأةً فإنه يزوج الأمة من يُزَوِّجُ سيدتها بإذنها وقد روى ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ: لا تُزَوِّجُ المرأةَ المرأةَ، ولا تُزَوِّجُ المرأةَ نَفْسَهَا. قال الحافظ ابن حجر في
 بلوغ المرام: ورجاله ثقات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي وادفعوا مُهورَهُنَّ بالمعروف أي عن
 طيب نفس منكم، ولا تَبَخَّسُوا منه شيئاً استهانةً بهن لكونهن إماءً مملوكات
 اهـ. وقوله عز وجل: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾
 تأكيدٌ على وجوب الحرص على أن تكون الأمة التي يرغب الحر في الزواج منها
 معروفةً بالعفاف وحسن السيرة والسلوك وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى قال
 في شأن التزويج من الخرائر المسلمات: ﴿مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وقال في
 شأن تزويج الحر المسلم من الأمة المسلمة: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا
 مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ وهذا يشعر بأن وقوع الزنا من الحرة المسلمة أمرٌ يكاد
 يكون نادراً، ولذلك قالت هند رضي الله عنها لما بايعت رسول الله ﷺ، وقال
 في البيعة: «ولا يزينن» قالت: أو تُزْنِي الحرة؟ أما الإماء فكان العفاف فيهن
 قليلاً، لأنهن لا يحتجن، وتخرج الأمة إلى كل موضع يرسلها أهلها إليه وهي
 متبذلة، وقد تعجز عن الامتناع، وقد كان بعض أهل الجاهلية يُقَدِّمُ أمته
 لضيوفه على أنه نوع تكريم عندهم، حتى ولو كرهت الأمة ذلك كما قال عز
 وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ مُحْصَنَاتٍ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا﴾ وكان آخرُ من فعل ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين
 لعنه الله. وكانت بعضُ الإماء تعلن ذلك وتتخذ رايات تنصّبها عند دارها
 ولا تمنع أحداً من نفسها، كما كان بعضُ الإماء يتخذن الأخدان فلا تُبيحُ
 نفسها إلا لصديق واحد سرّاً، ولا تجهز بذلك، ولذلك أفرد الله تبارك وتعالى
 كلّ واحد من هذين القسمين بالذكر، ونصّ على تحريمهما معاً، وأن من
 كانت من الإماء على أحد هذين الوصفين لا يجوز للحر المسلم أن يتزوجها،
 حيث قال عز وجل هنا: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾

فالمراد بالمحصنات هنا العفاف وقد أكد ذلك بقوله عز وجل : ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي غير زانيات جهراً، ومعنى : ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاء يزنون بهن سراً، والأخدان جمع خدن، وهو الصاحب والصديق على الفاحشة، ويقال له أيضاً : خدين، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذين القسمين أيضاً عندما أباح للمسلم أن يتزوج كتابية حيث يقول في سورة المائدة : ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ . بعد أن بين الله تبارك وتعالى حقوق الأمة المسلمة إذا تزوجها المسلم الحر الذي لم يستطع نكاح المحصنات المؤمنات، بين هنا ما يجب في حق الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا بعد إحصانها، وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿أُحْصِنَ﴾ بفتح الهمزة والصاد وقرأ الباقر ﴿أُحْصِنَ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد، وفُسرَّت ﴿أُحْصِنَ﴾ بمعنى أسلمن، وفُسرَّت ﴿أُحْصِنَ﴾ بمعنى : تزوجن. وقد ذهب غير واحد من أئمة أهل العلم إلى أن التنصيص على جعل حد الأمة إذا أحصنت على النصف من حد الحرة، للدلالة على أن تنصيف الحد على غير المحصنة من باب أولى، وقد أورد البخاري من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال : إذا زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضعير. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهذه الآية صريحة في أن حد الأمة بعد الإحصان هو نصف عذاب الحرائر، والذي يتنصف من عذاب الحرائر هو الجلد لا الرجم فتكون هذه الآية قد أثبتت حد الأمة الزانية بعد الإحصان، ويكون حديث الشيخين قد أثبت حد الأمة الزانية قبل الإحصان، وهو عين حد الأمة

المحصنة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكْ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي إن نكاح الحر المسلم للأمة كما يشترط فيه ألا يكون الراغب في الزواج قادراً على التزوج من الحرة المؤمنة كذلك يشترط فيه أن يخشى على نفسه العنت أي الوقوع في الزنا ، وأصل العنت هو الضرر الشديد الشاق ، والمقصود به هنا الشبق الشديد والغلبة العظيمة التي قد تؤدي بالإنسان إذا لم يُنقِّس لها إلى الأمراض الشديدة فربما حمله ذلك على الزنا فَيَعْرِضُ نفسه للعذاب الشديد ، ومعنى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي وصبركم على بقائكم عُرَّاباً مع صيانتكم أنفسكم عن الوقوع في الحرام خير لكم من نكاح الأمة ، لأنه يُفْضِي إلى استرقاق أولادكم ، والتذييل بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لإشعار من اضطر إلى نكاح الأمة مع ما فيه من خشية استرقاق الولد بأنه أهل لمغفرة الله ورحمته مادام قصده إعفاف نفسه .

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ • وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا • يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا • وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا •﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة في خاتمة تشريع جواز أن ينكح الحر المسلم الأمة المسلمة أنه شرع هذا لمن خَشِيَ العنت منكم مما يفيد أنه عز وجل يُحِبُّ رَفْعَ الْعَنْتِ وَالْحَرَجِ والمشقة عن المسلمين حيث بعث رسوله محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة وبالدين اليُسْر كما قال عز وجل: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ •﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ •﴾ شرع هنا يقرر هذه الحقيقة ويؤكد بها بجملة تأكيدات لتكون ماثلة دائماً أمام عقول المسلمين ليشكروا نعمة الله عليهم وليجتنبوا التنطع في الدين الذي أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ حيث شَدُّوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، وهذه الآيات الست التي سيقَّت بين ما سبقها من الآيات التي تقرر حقوق النساء وما يليها مما يتعلق بالنساء أيضاً للفت الانتباه إلى معرفة نعم الله على عباده، وشكره على جميع ما يَسِّرُه لنا وسَهَّلَه علينا إحساناً منه وجوداً وكرماً وفضلاً، والتحذير من مخالفة أمره وارتكاب معاصيه . والحذر من دعاة الضلالة الذين يريدون صرف المسلمين عن دينهم، واجتنابِ أكل أموال الناس بالباطل، وقتل النفس، والبُغْدِ عن كبار السيئات، ولاشك أن تربية النفس الإنسانية على هذا السلوك السَّوِيِّ مما يُمَكِّنُهَا من إدراك تيسير شرع الله، الداعي إلى تحريم الاعتداء على الأموال

والأنفس ، وأنه لا يحل لأحد أن ينتهك حرمة النفس سواء كانت لذكر أو أنثى أو حرّاً أو عبد ، ولا أن ينتهك حرمة المال الذي قرّنه الله عز وجل بين تحريمه وتحريم قتل النفس في آية واحدة ، والإرادة في قوله عز وجل : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وفي قوله : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وفي قوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ هي الإرادة الشرعية التي هي بمعنى المحبة لا الإرادة الكونية القَدَرِيَّةُ ، واللام في قوله عز وجل : ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بمعنى أنّ ، لأنها جاءت بعد قوله عز وجل : ﴿يريد الله﴾ والعرب قد استعملت في أساليبها الفصيحة التعاقب بين لام كي وبين أن بعد أمرت وأردت فتقول : أردت أن تفعل ، وأردت لتفعل وأمرت أن تفعل وأمرت لتفعل بمعنى واحد كما قال عز وجل : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وقال عز وجل : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال عز وجل : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أُسْلِمَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وأمرت أن أعدل بينكم ، وكما قال عز وجل : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ، والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ أي يُحِبُّ اللَّهُ عز وجل أن يُوَضِّحَ لَكُمْ سَبِيلَ سَعَادَتِكُمْ وَمَنْهَجَ رُشْدِكُمْ بما شرعه لكم من الشريعة السمحة المشتملة على خير ما يَنْفَعُكُمْ في دينكم ودنياكم ، حيث حرّم عليكم ما حرّم من المفاسد وأذن لكم فيما يعود عليكم بالجليل من المصالح والمنافع والفوائد ، كما أنه عز وجل يُحِبُّ أَنْ يُعَرِّفَكُمْ طَرِيقَ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ لَتَعْرِفُوا فَضْلَ اللَّهِ عز وجل عليكم حيث هداكم إلى صراطه المستقيم الذي بعث به الأنبياء والمرسلين ، وكيف كان عاقبة الذين انحرفوا عن دين أنبيائهم ورسولهم ، كما أنه عز وجل يُحِبُّ أَنْ

يتوب عليكم إذ رَسَمَ لكم المنهج الذي يوصلكم إلى مرضاة الله ، ويُسهِّلُ عليكم الابتعاد عن المعاصي والمحارم ، والله عز وجل ذو علم بما يُصلِحُ عباده في معاشهم ومعادهم ، حكيم في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي والله عز وجل يحب أن تستقيموا على شرعه ، فيرضى عنكم ويتجاوز لكم عن هفواتكم ، ويحبُّ عبَادَ الهوى المنغمسون في الشهواتِ المحرَّمةِ ، المنحرفون عن منهج الهداية والرُّشد أن تنحرفوا انحرافاً كبيراً لتكونوا مثلهم كما قال عز وجل : ﴿وَدُّوا لو تكفرون كما كَفَرُوا فتكونون سواء﴾ وكما قال عز وجل عن إبليس لعنه الله : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي يحب الله تبارك وتعالى التخفيف على أمة محمد ﷺ ، ولذلك رفع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على مَنْ قبلهم ، وجعل عز وجل التخفيف على المسلمين من القواعد الشرعية الأساسية التي تنبني عليها الأحكام الشرعية ، ولذلك جعل الصلاة الرباعية للمسافر ركعتين ، وأجاز لمن كان على جَنَاحِ السفر أن يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، وجعل التيمم بالصعيد الطاهر لمن لا يقدر على استعمال الماء في الوضوء أو الغسل ، وأجاز للمريض أن يصلي قاعداً أو على جنب ، وقال عز وجل : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ وقال عز وجل : ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ وأباح الغنائم لأمة محمد ﷺ ولم يبيحها لأحد قبلهم ، وخفف فريضة الصلاة على المسلمين فجعلها حَمْسًا بَدَلَ خمسين

وقال رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج : فلما جاوزتُ نَادَى مُنَادٍ : أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي ، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي كَمَا جَاءَ فِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ . ومن أقرب صور التخفيف لهذه الآية في كتاب الله عز وجل أنه أباح للحر المسلم العاجز عن الزواج من الحرة المسلمة أن يتزوج أمة عفيفة مسلمة حيث قال قبل هذا المقام مباشرة في كتاب الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية . وقوله عز وجل : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ أي أنشأ الله عز وجل الإنسان على جِبِلَّةٍ يَسْتَمِيلُهُ الْهَوَى والشهوة ، وَيَسْتَشِيطُهُ الْخَوْفُ والحزن ، وتؤله الشوكة إذا شاكته ، ولا يتمالك نفسه أمام الْمُغْرِيَّاتِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ الله عز وجل فاعتصم بحبل الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : لما صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرَكَهُ ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ ، يَنْظُرُ مَا هُوَ ؟ فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّاكَ . قال النووي في شرح مسلم : الأَجُوفُ صَاحِبُ الْجُوفِ وقيل : هو الذي دَاخِلُهُ خَالٍ ، ومعنى لَا يَتِمَّاكَ : لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيُحْبِسُهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ . وقيل : لَا يَمْلِكُ دَفْعَ الْوَسْوَاسِ عَنْهُ ، وقيل : لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، والمراد : جنس بني آدم اهـ . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنا عبد الصمد ثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل آدم تركه ما شاء الله أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر إليه ، فلما رآه أجوف عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ لَا يَتِمَّاكَ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ أي يامعشر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ لَا تَسْتَحِلُّوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَتَأْكُلُوهَا بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَتَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا بِطَرَقٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ كَالرِّبَا والقمار والغصب والرشوة وسائر

المكاسب التي نهت عنها شريعة الإسلام، وقد وسَّع الله عز وجل عليكم حيث أباح لكم الحصول على الأموال بطريق التجارة وتبَادُلِ السِّلَع التي تحصل لكم وتتمُّ بين المتعاقدين عن تراض وطيب نفس منهما في إطار ما رسمته الشريعة الإسلامية لكم، فلو حصل التراضي بين المتعاقدين على صفقة محرمة كالربا ونحوه فإن هذا العقد باطل، وإضافة الأموال للمخاطبين بقوله عز وجل: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم﴾ لِيَعْمَ التحريم أكل مال نفسه بالباطل كبذله في المعاصي، كما يعم التحريم أكل مال غيره بالباطل، وقد تقدم أكثر من مرة أن التنصيص على تحريم الأكل بغير حق لا يبيح أخذ أموال الناس بغير حق لغير الأكل، إذ أن تخصيص الأكل بالذكر لأنه هو المقصود الغالب من الاستيلاء على الأموال، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا يقتل بعضكم بعضاً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله جل ثناؤه: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيمًا بخلقه، ومن رحمته بكم كفُّ بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظرِ أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتكم وأهلك بعضكم بعضاً قتلاً وسلَباً وغَضَباً اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾، وكان ذلك على الله يسيراً أي ومن يقع في جريمة من هاتين الجريمتين العظيمتين وهي أكل الأموال بالباطل أو قتل النفس مُتَّهِكًا حرماً الله، متجاسراً على حدوده فسوف نورده نارا، يَصْلَى بها فيَحْتَرِقُ فيها، وكان إضلاء هذا المجرم النار وإحراقه سهلاً على الله يسيراً؛ لأنه لا يعجز عن شيء ولا يفوته شيء، لأنه إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون، وجميع خلقه في قبضته يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد لا راداً لقضائه

ولا معقب لحكمه . وقد تقدم أن نُصُوَصَ الوعيد إن وردت في حق من يشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهي تحت مشيئة الله عز وجل ، إن شاء
عَذَّب وإن شاء عَفَا لقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ في آيتين من كتاب الله عز وجل في هذه السورة
المباركة .

قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى من ارتكاب بعض الكبائر كأكل أموال اليتامى ظلماً، وانتهاك حدود الله وفرائضه التي حدّها وفرضها في الموارث للرجال والنساء، وارتكاب الفاحشة، وتعدي الزوج على الزوجة بأخذ مهرها أو بعضه ظلماً عند طلاقها، وتزوّج الابن بزوجة الأب، ثم أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس يعني بغير حق، وقُدّم في الآية السابقة الوعيد الشديد لمن فعل ذلك عدواناً وظلماً ترهيباً، وعَدَ تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من اجتناب الكبائر بأن الله عز وجل يغفر له ما دونها من السيئات ويُدْخِلُهُ الجنة ترغيباً، على طريقة الأسلوب القرآني العظيم في الترغيب والترهيب، الذي يسلك بالنفس الإنسانية الرشيدة صراط الله المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي إن تبتعدوا عن كبائر الإثم والفواحش، وتَصُونُوا أَنْفُسَكُمْ عن الاقتراب منها، فلا تتركبوا شيئاً منها، ولا تُضَيِّعُوا شيئاً من فرائض الله التي فرضها عليكم، ونهاكم عن تضيعها، فلكم وَعْدٌ من الله عز وجل بتكفير ما دون الكبائر من المعاصي واللّمَمِ، وإدخالكم جنات النعيم. وقد ورد في القرآن العظيم ما يفيد أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر كما في هذه الآية الكريمة، وكما قال عز وجل في سورة النجم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ، وبهذا يتضح أن

ترك الكبائر واجتنابها يُكْفَرُ الصغائر كما أن المحافظة على الصلوات الخمس والجمعة وصيام رمضان مكفّراتٌ للصغائر كذلك، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال الرجل: ألي هذه؟ قال: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فذكر أنه أصاب من امرأة إما قبلة، أو مساً بيده، أو شيئاً، كأنه يسأل عن كفارتها قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ قال: فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ قال: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عاجلتُ امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دُونَ أَنْ أَمْسَهَا، فَأَنَا هَذَا، فاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرُدَّ النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فَاتَّبَعَهُ النبي ﷺ رجلاً دَعَاهُ، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصّة؟ قال: بل للناس كافة. وفي لفظ لمسلم: فقال معاذٌ: يا رسول الله، هذا لهذا خاصّة أو لنا عامّة؟ قال: بل لكم عامّة. وبهذه النصوص من كتاب الله عز وجل وصحيح سنة رسول الله ﷺ يتضح أن السيئات تنقسم إلى كبائر وصغائر، وقد فرّق غير واحدٍ من أئمة أهل العلم بين الكبيرة والصغيرة بأن الكبيرة ما توعد الله عز وجل عليها بعذاب أو لعنة أو غضب أو تهديد بعقوبة عاجلة

أو آجلة، وأن الصغيرة ما سواها، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الكبائر أكبر من بعض، ولا شك أن الشرك بالله هو أكبر الكبائر، ويليه بقية السبع الموبقات، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قيل: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلَّى يوم الزَّحْفِ، وقذف المحصنات الغافلاتِ المؤمناتِ. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سُئِلَ عن الكبائر، فقال: الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، — وقال — ألا أُنبئكم بأ أكبر الكبائر؟ قلنا: بلى، قال: الإِشْرَاقُ بالله وقول الزُّورِ — أو شهادة الزُّور. كما أخرج البخاري ومسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: ألا أُنبئكم بأ أكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإِشْرَاقُ بالله وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس فقال —: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزُّور، فما زال يُكْرِرُهَا حتى قلنا: ليته سَكَتَ. كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسولَ الله أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ — وفي رواية — أَكْبَرُ؟ قال: أنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قلت: ثم أيُّ؟ قال: أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أنْ يَطْعَمَ معكَ. قلت: ثم أيُّ؟ قال: أنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ كما روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: الكبائر الإِشْرَاقُ بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس، واليمينُ الغموسُ. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ:

من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلُ أباهُ الرجلِ فيَسُبُّ أباهُ، وَيَسُبُّ أمَّهُ فيَسُبُّ أمَّهُ اهـ. ومن الكبائر اليأس من رَوْحِ الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وسوء الظن بالله، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَالِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ومن الكبائر الزنا وعمل قوم لوط وشرب الخمر والمخدرات وأكل لحم الخنزير، والسرقة والغيبة والنميمة والحسد والغش، والاعتداء على الأمين البيت الحرام، وقتال المسلمين بغير حق، وأن يقول الإنسان لأخيه المسلم ياملعون أو ياكافروا، أو ياعدوا الله، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ. كما روى البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لَا يَزِمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسْقِ أَوْ الْكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمَلَةِ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ، وَلَعَنُ الْمُؤْمِنُ كَقَتْلِهِ. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا

أن يكون كما قال . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن
 رسول الله ﷺ قال : اثنتان في الناس هُما بِهِم كُفْرٌ : الطعن في النسب والنياحة
 على الميت . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
 ﷺ قال : مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا . كما روى
 البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله
 ﷺ قال : لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة ، يقال : هذه غَدْرُهُ فلان . كما روى
 البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة أنا
 خَصْمُهُمْ يوم القيامة : رجلٌ أُعْطِيَ بي ثم غَدَرَ ، ورجلٌ باع حُرًّا فأَكَلَ ثَمَنَهُ ،
 ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِهِ أَجْرَهُ . كما روى مسلم من حديث
 أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ،
 ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ، ولهم عذابٌ أليم . قال : فقرأها رسولُ الله ﷺ
 ثلاثَ مرارٍ ، قال أبو ذر : خابوا ، وخَسِرُوا ، مَنْ هُمْ يا رسول الله ؟ قال :
 المُسْبِلُ ، والمَنَانُ ، والمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الكاذب . وقد ثبت في الصحيح أن
 رسول الله ﷺ قال : لَعَنَ الله الواصلة والمستوصلة ، وأنه قال : لَعَنَ الله مَنْ
 غَيَّرَ مَنَارَ الأرض ، وأنه قال : لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله ، وأنه ﷺ قال عن
 المدينة : مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس
 أجمعين . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة المشيرة إلى أنواع
 شتى من الكبائر . وليس لقائل أن يقول : إذا كان اجتنابُ الكبائر يكفر
 الصغائر ألا يكون في ذلك إغراءٌ بارتكاب الصغائر وأنها تصير كالإباح ؟ لأننا
 نقول : إن استحلال الصغيرة أو الإصرارَ عليها يجعلها كبيرةً من الكبائر ،
 وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ أي وندخلكم الجنة إدخالاً
 كريماً طيباً حيث يحشر الله المتقين إلى الرحمن وفداً تستقبلهم الملائكة مهتئين
 مُسْلِمِينَ يقولون لهم : سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . ويقولون

لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحْبَرُونَ ، ويقولون لهم : ادخلوها بسلام
آمنين . كما قال عز وجل : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ
الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً﴾ وكما قال عز وجل في حشر أعدائه إلى النار :
﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُفًّا مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا
خَبَّتْ زُنُوجُهُمْ لَمَنَاجِيَهُنَّ قَالَ ابْنَ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا الْمُدْخَلُ الْكَرِيمُ فَهُوَ
الطَّيِّبُ الْحَسَنُ الْمُكْرَّمُ بِنَفِي الْآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ عَنْهُ ، وَبَارْتِفَاعِ الْهَمُومِ وَالْأَحْزَانِ
وَدُخُولِ الْكَدْرِ فِي عَيْشٍ مَنْ دَخَلَهُ ، فَلِذَلِكَ سَمَاهُ اللَّهُ مُدْخَلًا كَرِيمًا هـ .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

بعد أن نهى الله عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل ، وحرّم عليهم قتل أنفسهم ، وتوعّد من فعل ذلك عدواناً وظلماً بأنه سوف يصلية ناراً ، وبشر المؤمنين بأن اجتناب الكبائر يُكفّر الله به الصغائر ، حذّر هنا من داءٍ وبيل كان سبباً لأول ذنب عُصِي الله عز وجل به وهذا الداء الوبيلُ والمرض الفتاك هو الحسد الذي حمّل إبليس لعنه الله على التكبر والامتناع عن السجود لآدم ، كما كان سبباً لأول قتل نفس وقع على الأرض حيث قتل أحدُ ابني آدم أخاه ، إذ قرّبا قرْبَاناً فَتَقَبَّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلَ من الآخر ، فَقَتَلَ الذي لم يُتَقَبَّلَ قُرْبَانُهُ أخاه الذي تُقَبَّلَ قُرْبَانُهُ حَسَدًا له ، وفي هذا التحذير هنا يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي ولا تشهّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض ، وارضوا بما قَسَمَ الله عز وجل لكم من رزق ، وأيقنوا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها الذي قضاه الله عز وجل لها ، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم في الرزق ، وانظروا إلى من هو دونكم حتى تعرفوا نعمة الله عليكم ، ولا تَزِدُّوها فَتَصَابُوا بداء الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطب . واعلم أن تَمَنَّى الإنسان ما منحه الله لغيره ينقسم إلى قسمين : قسم مذموم وقسم ممدوح ، فالمذموم هو أن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن غيره وانتقالها إليه سواء كانت نعمة دنيوية أو دينية ، وهذا هو الحسدُ الذي ذمه الله عز وجل في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل : ﴿أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وأشار إلى شره وضرره حيث

يقول: ﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسقٍ إذا وَقَبَ. ومن شر النفاثات في العُقَد. ومن شر حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾ كما حذّر منه رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تذابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. كما روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إياكم والحسد، فإنَّ الحسدَ يأكل الحسنات كما تأكلُ النار الحطبَ أو قال: العُشبَ، وتمنى زوال النعمة عن الغير هو المقصود بالنهي هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أما القسم الثاني من تمنى الإنسان ما منحه الله لغيره فهو الغبطة وهو ممدوح وقد يطلق عليه اسم الحسد تجوزاً وتوسعاً، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي أنعم الله بها على الغير دون زوالها عن صاحبها، ويكون هذا من باب التنافس في أعمال الخير والبر، وقد أرشد رسولُ الله ﷺ إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمة أنعم الله عز وجل عليه بها ويتمنى مثلها لنفسه دون زوالها عن صاحبها إلا في خصلتين اثنتين، الأولى: أن يرى إنساناً قد منحه الله مالا وسلطه على إنفاقه في الحق فهو يتمنى أن يكون مثله، والثانية أن يرى إنساناً قد منحه الله علماً فهو يقوم به آناء الليل والنهار عملاً وتعليماً، فهو يتمنى أن يكون مثله، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطَهُ على هَلَكَةٍ في الحق، ورجلٌ آتاه الله حِكْمَةً فهو يقضي بها ويعلمها. والمراد بقوله ﷺ: لا حسد أي لا غبطة، كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، كما روى الترمذي

وقال : حديث حسن صحيح عن أبي كبشة عمرو بن سعد الأنباري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ثلاثة أُقْسِمُ عليهن ، وأُحَدِّثُكُمْ حديثاً فاحفظوه : ما نقص مَالُ عَبْدٍ من صدقة ، ولا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللهُ عليه بابَ فقرٍ ، أو كلمةً نحوها ، وأُحَدِّثُكُمْ حديثاً فاحفظوه ، قال : إنما الدنيا لأربعة نفرٍ : عبدٌ رزقه الله مالا وعِلماً فهو يتقي فيه ربّه ، ويصل فيه رَحْمَةً ، وَيَعْلَمُ اللهُ فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مَالاً ، فهو صادقُ النية يقول : لو أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فلان فهو يَنْتِيهِ ، فأجرهما سواءٌ ، وعبدٌ رزقه الله مَالاً ولم يرزقه علماً فهو يَخْطِئُ في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٌ لم يرزقه الله مَالاً ولا علماً فهو يقول : لو أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فيه بعمل فلان ، فهو يَنْتِيهِ فَوَزَرُهُمَا سواءٌ ، وقد قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية : اعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية ، أو بدنية ، أو خارجية ، أما السعادات النفسية فَنَوْعَانِ : أحدهما ما يتعلق بالقوة النظرية ، وهو الذكاء التامُّ والحَدْسُ الكاملُ والمعارفُ الزائدةُ على معارف الغير بالكمية والكيفية ، وثانيهما : ما يتعلق بالقوة العملية ، وهي العِفَّةُ التي هي وَسْطٌ بين الخمود والفجور ، والشجاعة التي هي وسط بين التهور والجُبْن . واستعمالُ الحكمة العملية الذي هو تَوْسُطٌ بين البَلَّةِ والجَزْبَةِ ، ومجموع هذه الأحوال هو العدالةُ ، وأما السعادات البدنيةُ : فالصحةُ والجمالُ والعمرُ الطويلُ في ذلك مع اللذة والبهجة ، وأما السعادات الخارجية : فهي كثرةُ الأولاد الصالحاءِ ، وكثرةُ العشائر ، وكثرةُ الأصدقاءِ والأعوانِ ، والرياسةُ التامةُ ، ونفاذُ القولِ ، وكونُهُ محبوباً للخلق حَسَنَ الذِّكْرِ فيهم ، مُطَاعَ الأمرِ فيهم ، فهذا هو الإشارةُ إلى مجامع السعادات ، وبعضُها فِطْرِيَّةٌ لا سبيلَ للكسبِ فيه ، وبعضُها كَسْبِيَّةٌ ،

وهذا الذي يكون كَسْباً متى تأمل العاقل فيه يَجِدُهُ أيضاً مَحْضَ عطاءِ الله ، فإنه لا ترجيحَ للدواعي وإزالة العوائق وتحصيل المُوجبات ، وإلا فيكون سببُ السَّعي والجِد مشتركاً فيه ، ويكون الفوزُ بالسعادة والوصولُ إلى المطلوب غيرَ مشتركٍ فيه ، فهذا هو أقسام السعادات التي يفضل الله بعضهم على بعض فيها ، ثم قال الفخر الرازي رحمه الله : إن الإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل حاصلةً لإنسان ، ووجد نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثرها ، فحينئذ يتألم قلبه ويتشوش خاطره ، ثم يعرض ههنا حالتان : إحداهما : أن يتمنى زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان ، والأخرى : أن لا يتمنى ذلك ، بل يتمنى حصول مثلها له ، أما الأول فهو الحسد المذموم ؛ لأن المقصود الأول للمدبر العالم وخالقه الإحسان إلى عبده ، والجود إليهم ، وإفاضة أنواع الكرم عليهم ، فمتى تمنى زوال ذلك فكأنه اعترض على الله تعالى فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين ، وأيضاً ربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الإنسان ، فيكون هذا اعتراضاً على الله وقدحاً في حكمته ، وكل ذلك مما يُلقِيه في الكفر وظلمات البدعة ، ويُزيل عن قلبه نور الإيمان ، وكما أن الحسد سبب للفساد في الدين فكذلك هو السبب للفساد في الدنيا ، فإنه يقطع المودة والمحبة والموالة ، ويقلب كل ذلك إلى أضدادها ، فلهذا السبب نهى الله عباده عنه فقال : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ اهـ وقوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ أي للرجال حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقابه على ما اكتسبوه وعملوه من أعمال الخير أو الشر وللنساء حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقابه على ما اكتسبته وعملته من أعمال الخير أو الشر ، كما قال عز وجل في خواتيم السورة السابقة : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو

أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿ فَعَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يَسْعَوْا إِلَى اِكْتِسَابِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلِيَجْتَنِبُوا ارْتِكَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَلِيَحْذَرُوا الْحَسَدَ فَإِنَّهُ يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ عَنِ الْحَسَدِ : مَا أَعْدَلَهُ بَدَأُ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

اصبر على كيد الحسوة د فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتَلَهُ
فالنارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَحْجِزْ مَا تَأْكُلُهُ

وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى الطريق السوي الذي يحميهم من أن يتحاسدوا وهو أن ينظروا إلى مَنْ دُونَهُمْ فِي الرِّزْقِ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : انظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ ، كَمَا أَرَشَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ إِذَا رَأَوْا فَضَّلَ اللَّهُ وَنِعْمَهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ أَلَّا يَتَمَنَّوْا زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إِرْشَادَ مَنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ أَلَّا تَتَعَلَّقَ نَفُوسُهُمْ بِمَا فِي أَيْدِي الْخَلْقِ ، وَأَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ لِيُعْطِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَمْنَحَهُمْ مِنْ خَزَائِنِهِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ ، فَلْيَسْأَلُوهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيَضْرَعُوا إِلَيْهِ وَلْيَطْلُبُوا مِنْهُ وَلْيُلِحُّوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا يُهَيِّئُ لَهُمُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ ، وَيَقُولُوا : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَسْتَجِيبُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا

حديث حسن صحيح اهـ كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار كما روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، كما روى مسلم من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني ، وقوله : «إن الله كان بكل شيء عليا» ترغيب وترهيب .

قال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا. الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِأَنفُقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ، وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِن أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

بعد أن نهى الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات أن يَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ به بعضهم على بعض ، تحذيراً لهم من داء الحسد الويليل ، وأنه من عمل عملاً من ذكر أو أنثى فله جزاؤه عند الله عز وجل ، وحضَّهم على التماس الفضل وطلبه من الله عز وجل العليم بكل شيء ، بيّن هنا أنه شرع لكل ذي حق حقه من تركة الوالدين والأقربين ومن ملكت أيديهم فلا يحل لأحد أن يَتَعَدَّى على ما شرع الله عز وجل الشهيد على كل شيء ، وأشار إلى قوامه الرجال على النساء بما فضل الله عز وجل به الرجال على النساء في تكوينهم وبسبب ما أنفقوا من أموالهم ، حيث يقول عز وجل : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قال البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من صحيحه : باب قوله : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ مَوْلَى : أولياء ورثة ، عاقدت : هو مولى اليمين ، وهو الحليف ، والمولى أيضاً : ابن العم ، والمولى : المنعم المُعْتَق ، والمولى : المليك ، والمولى : مولى في الدين . حدثني الصَّلْتُ بن محمد حدثنا أبو أسامة عن إدريس عن طلحة بن مُصَرِّف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي

الله عنهما : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال : ورثة ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قَدِمُوا المدينة يرث المهاجر الأنصاري ، دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم . فلما نزلت : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نُسَخَتْ ، ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصي له ، سمع أبو أسامة إدريس ، وسمع إدريس طلحة . وقال البخاري في كتاب الفرائض : باب ذوي الأرحام حدثني إسحاق بن إبراهيم قال : قلت لأبي أسامة : حدثكُم إدريس حدثنا طلحة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاريُّ المهاجريُّ دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال : نسختها : ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ اهـ . واستعمال كلمة «موالي» بمعنى الورثة والعصبة شائع عند العرب ، ومنه قول الفضل بن العباس :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تَنْشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
ومن استعمال الموالى بمعنى العصبة قولُ زكريا عليه السلام : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وقد تَقَرَّرَ نسخُ الميراثِ بالحلف ، وبالتبنيِّ وبالمؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار كما قال عز وجل : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ كان ذلك في الكتاب مسطوراً وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ

عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿١﴾ إشعار بسبب زيادة إرث الرجال على النساء في غير الإخوة لأم وتفضيل الرجال على النساء حيث كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الإمامة العظمى ومناصب القضاء والإمامة الصغرى في الصلاة، والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق وكذلك تَحْمُلُ الدية التي على العاقلة، والولاية في النكاح، والطلاق والرجعة، وتعدُّ الزوجات، وانتساب الأبناء، وهذا هو السبب الأول من أسباب قوامة الرجال على النساء الذي ذكره عز وجل بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أما السبب الثاني من أسباب قوامة الرجال على النساء فهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي وبما ساقوا إليهنَّ من صداق، وأنفقوا عليهن من نفقة. وقوامون جمع قَوَامٌ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب والحفظ والصيانة والحماية والرعاية، فقد جعل الله عز وجل الزوج أميراً على بيت الزوجية، والطبع والشرع يقتضيان أن يكون لكل رعيّة راع يسوس أمرها ويُدبر شأنها، حتى حضَّ رسول الله ﷺ الرفقة المسافرين أن يُؤمِّروا عليهم واحدا منهم، فقد روى أبو داود بإسناد حسن من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم. وليست قوامة الرجل على المرأة قوامة استبداد وإهانةٍ وحَجْرٍ وتسلُّط، فقد حضَّ رسول الله ﷺ مَنْ وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً أن يرفق بهم وألا يشقَّ عليهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئولٌ عن رعيته، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ومسئولٌ عن رعيته. كما روى مسلم

من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : اللهم مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمِّي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمِّي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ . وقد كان رسول الله ﷺ يوصي الرجال بزوجاتهم خيراً فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِي جَارَهُ ، وَاسْتَوْصَا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَالرَّجُلُ هُوَ الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ فِي الْبَيْتِ وَلَهُ الْقَوَامَةُ فِيهِ ، وَعَلَيْهِ تَبَعَاتُ هَذِهِ الْقَوَامَةِ ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ حَيْثُ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ هذا بيان من الله عز وجل للأزواج يُوضَّح لهم فيه أحسن سُبُل القوامَةِ على النساء حيث قسم النساء إلى قسمين : نساء صالحات ، ونساء غير صالحات ، فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حَفِظَ اللَّهُ ، ووصف غير الصالحات بالناشزات ، وأشار إلى أن نشوزَ النساء على أنواع ، وأنه ينبغي للزوج أن يعالج كلَّ نوع من أنواع النشوز بالعلاج الملائم له ، فلا يشتد في موضع اللين ، ولا يلين في موضع الشدة ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أي فالنساء الصالحات هن المطيعات لأزواجهن ، الخائفات من الله عز وجل ، الصائبات لأعراضهن وحقوق أزواجهن في الغيب ، كما يصنَّ أعراضهن وحقوق أزواجهنَّ عند وجودهم معهن ، والمرأة إذا كانت بهذه المثابة كانت

خيراً من كل كنوز الدنيا، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحةُ. وقال أبو داودَ في سننه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا يحيى بن يعلى المحاربي ثنا أبي ثنا غيلان عن جعفر بن إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال: كَبُرَ ذلك على المسلمين فقال عمرُ رضي الله عنه: أنا أُفَرِّجُ عنكم، فانطلق، فقال: يانبي الله، إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يفرض الزكاة إلا لِيُطَيَّبَ ما بَقِيَ من أموالكم، وإنما فَرَضَ الموارِث لتكون لمن بَعْدَكُمْ، فكَبُرَ عمرُ، ثم قال له: أَلَا أُخْبِرُكَ بخير ما يَكُنْزُ المرأةُ الصالحةُ، إذا نظَرَ إليها سَرَّتُهُ، وإذا أَمَرَهَا أطاعته، وإذا غَابَ عنها حَفِظَتْهُ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ أي ومن خشيتهم من زوجاتكم أن تُسَيِّئَ صحبتكم وتكُدِّرَ صفاء حياتكم الزوجية بسبب ما يبدُرُ منها من بوادر الجنوح إلى النشوز حيث بدأت تترفع عليكم ولا تسارع إلى طاعتكم، وتحاولُ تنغيص معيشتكم فهذه آمارات نشوزها — يقال: نشزت المرأة إذا استعصت على زوجها وأبغضته، وحينئذ فاسلكوا أيسر السبل لتقويم اعوجاجها، وابدأوا بوعظها وتخويفها من الله عز وجل، وتعريفها بحق الزوج على زوجته، وذكروها بما أعدَّ الله عز وجل للصالحات، وما توعَّد به الناشزات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأت، فبات غضبان عليها، لَعَنَتْهَا الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية لهما: وإذا باتت المرأة هاجرةً فِرَاشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في

السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها . فإذا أصرت على النشوز بعد الوعظ ولم تتعظ فعند ذلك يهجرها في المضجع . فإن أصرت على النشوز ولم يُقَدْ فيها الهَجْرُ فقد أبيح له أن يضربها ضرباً خفيفاً لعله يُفِيدُها فترجع عن نشوزها ، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ضرب الزوجة لا يكون إلا للضرورة وأن الأولى تركه فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن إياس بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تضربوا إماء الله ، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ذَرْنِ النساءَ على أزواجهن ، فَرَخَّصَ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءً كثير يشكُون أزواجهنَّ فقال رسول الله ﷺ : ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءً كثير يشكُون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم . ومعنى : ذَرْنِ أي اجترأ ، ولاشك أن من أعظم طرق التربية الحديثة أن تُعَلَّقَ عصاك حيث يراها ولدك ، وليس ذلك حَصّاً على الضرب ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيرًا ﴾ أي فإن انقذن لكم وتركن النشوز فخافوا الله فيهن ، وتناسوا ما يكون قد بدر منهن من إساءة لكم ، واعلموا أن الله فوقكم وهو رقيب عليكم ، وهو منتقم ممن ظلم زوجته وبغى عليها ، وهو يحب العافين عن الناس .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا. وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل ما ينبغي للزوج أن يُعالج ما يخافه من نشوز زوجته عندما تبدو بوادر جنوحها واستعصائها عليه، وأنه ينبغي له أن يبدأ بوعظها، فإن لم تستجب للوعظ عالجها بالهجران، فإن لم يؤثر فيها الهجران ولم ترجع عن غيها، عالجها بالضرب غير المبرح لعله يفيدها، فإن استقامت وَجَبَ عليه خوفُ الله فيها، وعدم تذكيرها بما سلفَ منها، وهذا كله إذا كان الزوج راغباً في الزوجة حريصاً على الإحسان إليها، أما إذا كان كلُّ واحد من الزوجين يشكي من سوء معاملة الزوج الآخر له وأنها في شقاق مُفسدٍ لذاتِ البين، ولم يتضح مصدرُ هذا الشقاق، فقد أرشد الله عز وجل هنا من يهيمه أمرهما من الحكام أو ذوي الحل والعقد من المسلمين، أو أهل الخير العاملين على إصلاح ذات البين بين الناس أن يبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها لدراسة أحوالهما، ومحاولة معرفة سرِّ نزاعهما وشقاقهما، وبذل الجهد للإصلاح بينهما، حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وإن علمتم أيها الناس ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وذلك مشاقة كل واحد منهما صاحبه، وهو إتيانه ما يشقُّ عليه من الأمور، فأما من المرأة فالنشوز وتركها أداء حقِّ الله عليها الذي ألزمها الله لزوجها، وأما من الزوج،

فَتَرَكُهُ إِمْسَاكُهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ تَسْرِيحُهَا بِإِحْسَانٍ ، وَالشَّقَاقُ مُصَدِّرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : شَاقٌّ فَلَانٌ فَلَانًا ، إِذَا أَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ ، فَهُوَ يُشَاقُّهُ مُشَاقَّةً وَشَقَاقًا ، وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عِدَاوَةً أَوْ عَزًّا وَجَلًّا : ﴿ شَقَاقٌ بَيْنَهُمَا ﴾ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى ظَرْفِهِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وَكَقَوْلِكَ : يُعْجِبُنِي صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ . وَإِضَافَةِ الْمَصَادِرِ إِلَى الظُّرُوفِ جَائِزَةٌ لِحَصُولِهَا فِيهَا وَالْأَصْلُ : وَإِنْ خِفْتُمْ شَقَاقًا بَيْنَهُمَا . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أَيَّ فَاخْتَارُوا رَجُلًا صَالِحًا عَدْلًا ثِقَةً ذَا خُبْرَةٍ بِالْحُكْمِ ، وَدَقَائِقِ الْأُمُورِ يَرْضِيهِ الزَّوْجُ ، وَرَجُلًا صَالِحًا عَدْلًا ثِقَةً ذَا خُبْرَةٍ بِالْحُكْمِ وَدَقَائِقِ الْأُمُورِ تَرْضِيهِ الزَّوْجَةَ وَأَرْسَلُوهُمَا لِدَرَسَةِ مَشَاكِلِ الزَّوْجَيْنِ الْحَاصِلِ بَيْنَهُمَا الشَّقَاقُ وَمَحَاوَلَةُ رَأْبِ الصَّدْعِ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنَهُمَا ، بِتَخْوِيفِهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيَانِ حَقُوقِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَالزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا ، فَإِنْ تَمَكَّنَا مِنَ الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا وَإِزَالَةِ أَسْبَابِ نِزَاعِهِمَا فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ ، وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُمَا أَنَّ الْأَمْرَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَعْضَلٌ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ لِلْآخَرِ وَأَنَّهُمَا لَنْ يَقِيَا حُدُودَ اللَّهِ الَّتِي فَرَضَهَا لِلزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَلِلزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا وَاتَّضَحَ لِلْحَكَمِيِّينَ أَنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا هُوَ السَّبِيلُ الْأَقْوَمُ فَرَّقَا بَيْنَهُمَا ، وَالتَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ حَكَمًا ﴾ لِإِفَادَةِ نَفُوذِ رَأْيِهِ وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِقَوْلِهِ عِنْدَ اتِّفَاقِهِ مَعَ الْحُكْمِ الْآخَرِ ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَكَمِيِّينَ إِذَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا فَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الْآخَرِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمَا نَافِذٌ فِي الْجَمْعِ وَإِنْ لَمْ يُوَكِّلْهُمَا الزَّوْجَانِ أَوْ هَذَا . وَقَدْ رَوَى الدَّارِقُطْنِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ ثَابِتٍ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ عَبِيدَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شَقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَتَأَمَّلَ مِنْ النَّاسِ ،

فَأَمَرُهُمْ فَبَعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا وَقَالَ لِلْحَكَمَيْنِ : هَلْ تَذَرِيَانِ مَا عَلَيْكُمَا؟ عَلَيْكُمَا إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تُفَرَّقَا فَرَقْتُمَا، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : رَضِيتُ بِكِتَابِ اللَّهِ بِمَا عَلَيَّ فِيهِ وَلِي، وَقَالَ الزَّوْجُ : أَمَا الْفُرْقَةُ فَلَا، فَقَالَ عَلِيٌّ : كَذَبْتَ، وَاللَّهِ لَا تَبْرَحُ حَتَّى تُقَرَّرَ بِمِثْلِ الَّذِي أَقَرَّتْ بِهِ . وَالتَّقْيِيدُ بِكَوْنِ أَحَدِ الْحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ الزَّوْجِ وَالْحَكْمِ الثَّانِي مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَةِ لِأَنَّ أَقَارِبَهُمَا أَعْرَفُ بِحَالِهِمَا مِنَ الْأَجَانِبِ وَأَشَدُّ طَلِبًا لِإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمَا، فَإِنْ لَمْ يَوْجَدْ مِنْ أَهْلِهِمَا مَنْ يَصْلَحُ لِلذَلِكَ جَازَ بَعَثُ حَكَمَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِمَا، وَفَائِدَةُ بَعَثِ الْحَكَمَيْنِ أَنْ يَخْلُو كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالطَّرْفِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ، وَيَسْتَكْشِفُ حَقِيقَةَ حَالِهِ، لِيَعْرِفَ مِنْهُ سَبَبَ الْمَشَاقَّةِ، وَيَسْتَنْبِطَ مِنْهُ مَا يَبْنِي عَلَيْهِ حُكْمَهُ مِنْ بَقَاءِ النِّكَاحِ أَوْ التَّفْرِيقِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ هَذَا إِرْشَادٌ لِلْحَكَمَيْنِ بِأَنْ يَحْرِصَا عَلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَتَحْذِيرٌ لِهَئِلِهِمَا مِنْ أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الْحَكْمِ الْإِنْتِقَارَ لِلطَّرْفِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ، بَلْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَكَمَيْنِ أَنْ تَكُونَ نِيَّتُهُ صَحِيحَةً، وَأَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ نَاصِحًا خَالصًا لَوَجْهِ اللَّهِ سَاعِيًا فِي الْخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ، دُونَ انْحِيَازٍ إِلَّا إِلَى الْحَقِّ، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمَا صِدْقَ نِيَّتِهِمَا، وَأَنَّهُمَا يَرِيدَانِ الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَاعَا إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُؤَيِّدُهُمَا، وَيُسَدِّدُهُمَا، وَيُوفِّقُهُمَا إِلَى الرَّأْيِ السَّيِّدِ، وَالْحَكْمِ الرَّشِيدِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هُوَ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ، وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ لِكُلِّ مِنَ الْحَكَمَيْنِ وَالزَّوْجَيْنِ، بِأَنْ يَحْرِصُوا عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ، وَيَجْتَنِبُوا مَا يَغْضِبُهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، اسْتِثْنَاءٌ لِبَيَانِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ وَحَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقَارِبِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجِيرَانِ وَالْأَصْحَابِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْتَ يَدِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ أَوْ خَدَمٍ، بَعْدَ بَيَانِ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَقُوقِ الزَّوْجَيْنِ، وَقَدْ صَدَّرَ هَذِهِ الْحَقُوقَ

ببيان حق الله عز وجل على عباده؛ لأن حق الله تبارك وتعالى هو أعظم الحقوق وآكدّها، وأهمّها، إذ جميع الأعمال الصالحة لا تقبل إلا من أدى هذا الحق لله عز وجل، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي ابدلوا أقصى الحبّ وغاية الذلّ والخشوع والقنوت والإخبات والخوف والرغبة والرغبة والطاعة لله وحده، ولا تجعلوا لله أندادا، ولا تبدّلوا شيئا من العبادة لغيره فإنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم على منهج رسوله العظيم ﷺ، أما الحق الثاني من هذه الحقوق فهو حق الوالدين بپرّهما ولين الجانب لهما والإحسان إليهما وفي هذا الحق يقول عز وجل: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أي وأحسنوا بالوالدين إحسانا يقال: أحسنتُ بفلان وأحسنتُ إلى فلان كما قال كثير عزة:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدَيْنَا ولا مقلية إن تقلت

وقد قرّن الله عز وجل حق الوالدين بحقه تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم تنبيهاً على وجوب برّهما وتعظيم حقهما حيث قال عز وجل هنا: ﴿واعبدوا الله ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إحسانا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحسانا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفّض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أن اشكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير﴾ وأما الحق الثالث فهو حق الأقارب والأرحام وجعله عز وجل بعد مرتبة حق الوالدين حيث قال عز وجل: ﴿وبذي القربى﴾ لأن القرابة إنما تكون في الغالب من جهة أحد الأبوين وبالتبعية لهما، وأما الحق الرابع والخامس فهو حق اليتامى والمساكين حيث يقول عز وجل: ﴿واليتامى والمساكين﴾ أي واستوصوا

باليتامى والمساكين وأحسنوا إليهم وتعطفوا عليهم ، وأما الحق السادس فهو
 حق الجار ذي القربى حيث يقول عز وجل : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ أي الجار
 الجامع بين الجوار في الدار والقربة في النسب ، وأما الحق السابع فهو حق
 الجار الذي لا يربطك به نسب حيث يقول عز وجل : ﴿ وَالْجَارِ الْجُنْبِ ﴾ أي
 والجار البعيد الذي لا قرابة بينك وبينه ، وقد أكد رسول الله ﷺ على حق
 الجار تأكيداً شديداً فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة وابن عمر
 رضي الله عنهم قالاً : قال رسول الله ﷺ : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى
 ظننت أنه سيورثه . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله
 عنه أن النبي ﷺ قال : والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل :
 مَنْ يارسول الله ؟ قال : الذي لا يأمنُ جاره بوائقه . والمراد بالبوائق الغوائل
 والشور . وفي رواية لمسلم : لا يدخل الجنة مَنْ لا يأمنُ جاره بوائقه . وفي
 رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ
 قال : من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره الحديث . كما روى
 مسلم من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : من
 كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره . الحديث . وأرشد رسول الله
 ﷺ أن الجار الأقرب باباً أحق بالإكرام فقد روى البخاري من حديث عائشة
 رضي الله عنها قالت : قلت : يارسول الله إن لي جارين ، فإلى أيهما أهدي ؟
 قال : إلى أقربهما منك باباً . أما الحق الثامن فهو حق صاحب الجنب والمراد
 بالصاحب بالجنب هو من التآمت بينك وبينه صحبة وصار بجنبك في سفر
 أو حضر أو رافقك في تجارة أو طلب علم أو أي عمل من الأعمال قال ابن
 جرير : حدثني المثني قال حدثنا سويد بن نصر قال أخبرنا ابن المبارك عن
 حيوة قال حدثني شرحبيل بن شريك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما
 عن النبي ﷺ قال : إن خير الأصحاب عند الله تبارك وتعالى خيرُهم

لصاحبه ، وَخَيْرَ الْجِرَانِ خَيْرُهُمْ لجاره اهـ . وقد أخرجه الترمذي من طريق ابن المبارك وهذا الحديث صحيح الإسناد . أما الحق التاسع فهو حق ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن المال ، ولو كان غنياً في بلده والسبيل الطريق وسمي المسافر ابن سبيل لملازمته الطريق . أما الحق العاشر من هذه الحقوق التي تضمنتها هذه الآية الكريمة فهو ما خَوَّلَكَ الله عز وجل وجعله تحت تصرفك وسُلْطَتِكَ من حيوان أو إنسان ، وقد روى مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قُوَّتَهُمْ . كما روى أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جعل يُوصي أُمته في مرض الموت يقول : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم ، فجعل يُردِّدُهَا حتى ما يفيض بها لسانه . قال في الزوائد : إسناده صحيح على شرط الشيخين . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مِنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي إن الله يبغي المتكبر المُعْجَبَ بنفسه المفتخر المتطاول على خلقه المتباهي بمنصبه وحَسَبه ونسبه على من دونه من عباد الله ، وقد روى مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا . وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى في الآية السابقة إلى قواعد البرِّ، وأصول مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، وأُسُس التكافل الاجتماعي، وَنَدَّدَ بِذَوِي الكبر والعُجبِ والحِيلاء المتعالين على خلق الله، الذين لا يقومون بحق الله عز وجل أو بحقوق خلقه عليهم، الذي يأنفون من أقاربهم إذا كانوا فقراء، ومن جيرانهم إذا كانوا ضعفاء، أتبع ذلك هنا بالتنديد بالبُخلاء المتأعين للخير الحريصين على الشح حتى بالكلمة النافعة، كما نَدَّدَ بالمرائين الكافرين بالله واليوم الآخر حيث يقول عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى ذامًا الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانهم من الأرقاء، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأْمُرُونَ الناس بالبخل أيضا، وقد قال رسول الله ﷺ : «أَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟» وقال : إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُم بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا، وَأَمَرَهُم بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا. اهـ، والبُخْلُ داء يصيب الإنسان يمنعه من البذل والجود والكرم والعطاء، ويحمله على الشح وشدة الحرص على عدم الإنفاق مما يملك، وأَسْوَأُ الْبُخْلِ الشُّحُّ بالكلمة الطيبة وعدم نفع الناس ولو بإرشادهم إلى الطريق السَّوِيِّ. ولذلك

أشار الله عز وجل إلى أنه لا يفلح إلا مَنْ سلم من الشُّحِّ، حيث يقول عز وجل في وصف الأنصار رضي الله عنهم الباذلين ما في أيديهم، المصونين من الشح: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقال عز وجل في نصيحة عباده: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن الشح يَحْمِلُ صَاحِبَهُ على ارتكاب كل شر واجتناب كل خير فقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ. كما روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: لو قد جاء مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أُعْطَيْتَكَ هَذَا وَهَذَا ثَلَاثًا، فلم يَقْدَمْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فلما قَدِمَ على أَبِي بَكْرٍ أَمَرَ مُنَادِيًا، فَنَادَى: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ دِينَ أَوْ عِدَّةٌ فَلْيَأْتِنِي، قال جابر: فَجِئْتُ أَبَا بَكْرٍ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لو جاء مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطَيْتُكَ هَذَا وَهَذَا ثَلَاثًا، قال: فَأَعْطَانِي، قال جابر: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتُهُ الثَّالِثَةَ فَلَمْ يُعْطِنِي، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أَتَيْتَكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتَكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، ثُمَّ أَتَيْتَكَ فَلَمْ تُعْطِنِي، فإِمَّا أَنْ تُعْطِنِي وَإِمَّا أَنْ تُبْخَلَ عَنِّي، فَقَالَ: أَقُلْتُ: تُبْخَلُ عَنِّي؟ وَآيُّ دَاءٍ أَدَوُا مِنَ الْبُخْلِ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا، مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَكَ أَه. ومع أن الْبُخْلَ هو أَدَوُ الْأَدْوَاءِ وَعِلَّةُ الْعِلَلِ، فإن الله عز وجل أشار هنا إلى أن بعض الناس لا يكتفي من الشر بكونه بخيلًا، بل يدعو غيره إلى البخل ويحض عليه، وأن بعضهم يَزْدَادُ شَرَّهُ وبخله فلا يقتصر على

البخل بالمال بل يبخل بالكلمة الطيبة، ويكتُم ما يعرفه من الخير أو العلم النافع عن عباد الله حتى لا يستفيدوا منه، وقد جمع الله هذه الأوصاف الثلاثة المذمومة البالغة أقصى درجات الحقد على الإنسانية وبُغض الخير لها، المناقضة لما اقتضته الآية السابقة من وجوب الإحسان والبذل والجود والكرم والوفاء لكل ذي حق بحقه حيث يقول عز وجل هنا: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذه الخصال الكريهة الممقوتة هي أخصُّ صفات اليهود قبحهم الله، وإن كانت قد توجد في غيرهم، وهذا المقام في هذه السورة شبيهٌ بما ذكره الله عز وجل في سورة الحديد حيث يقول عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنعم بها عليهم من المعرفة بنبوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد علمهم به، الكاتمين نعمة وصِفته مَنْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِبَيَانِهِ لَه مِنَ النَّاسِ ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ يعني العقاب المذلَّ مَنْ عُدِّبَ بِخُلُودِهِ فِيهِ، عَتَادًا لَهُ فِي آخِرَتِهِ، إِذَا قَدِمَ عَلَى رَبِّهِ وَجَدَهُ، بِمَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ جُحُودِهِ فَرَضَ اللَّهُ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِ اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هذا هو القسم الثالث من المنحرفين عن منهج الرشد وهم الذين ينفقون أموالهم رِثَاءَ النَّاسِ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، إذ أنه تبارك وتعالى لما ذكر أهل البرِّ والإحسان السالكين منهج الرشد ذكر ثلاثة أصناف من أضدادهم، فالصنف الأول هو كل مختال فخور، والصنف الثاني هم البخلاء الذين يأمرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، والصنف الثالث هم من ينفقون أموالهم لا لوجه الله عز وجل ولكن ينفقونها

رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الذين ينفقون أموالهم رثاء الناس طلباً للسمعة والجاه لا رغبة فيما عند الله عز وجل ولا ابتغاء وجهه يكونون في أول من تُسَجَرُ بهم نارُ جهنم يوم القيامة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ ، فَأَتَى بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا . قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ ، قَالَ كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَتَى بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعْمَةً ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ، قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأَتَى بِهِ ، فَعَرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ، قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ .** وقوله عز وجل : ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ بيان للسبب الذي نشأت عنه هذه الخصال المذمومة التي ذكرها الله عز وجل بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فُخُورًا . الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وأنهم صاروا إلى هذه الأوصاف الخبيثة بسبب مصاحبتهم للشيطان والانقياد له والاقتران به ومخالطته وملازمته ، وقد قضى الله عز وجل وكتب أن مَنْ صار ولياً للشيطان وقريناً له فإنه لا يهتدي إلى الخير ، ولا يسلك سبيل

الرشاد، وأن الشيطان يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير كما قال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَعْتُشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ومعنى : ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي ومن يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس صاحب وبئس الخليل الشيطان، ولا شك أن مصاحبة الشرير لا تأتي بخير، وأن الإنسان على دين خليله، وقد حَذَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من جلساء السوء فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إنما مثلُ المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحْدِثَكَ ، وإما أن تبتاعَ منه ، وإما أن تَجِدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخ الكير إما أن يُحْرِقَ ثيابَكَ وإما أن تَجِدَ منه ريحاً مُنْتِنَةً . وما أَحَسَّنَ قول عديّ بن زيد :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه
فإن القرين بالمقارن مُقتد
وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي وأيُّ ضرر يُصيبهم لو تركوا طاعة الشيطان واستجابوا للرحمن وصدّقوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي نصب لعباده أدلة ألوهيته وربوبيته في كل شيء في السموات والأرض كما قال الشاعر :

فيا عجباً كيف يُغصّي الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد
وماذا يضرهم لو آمنوا بأنهم مبعوثون بعد الموت ومجزئون بأعمالهم وقد

قامت البراهين على أن الذي خلقهم أول مرة من العدم المحض لن يعجز عن إعادتهم بعد الموت ليحزي الذين أساءوا بما عملوا ويحزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وماذا يضرهم لو بذلوا شيئاً يسيراً مما خولهم الله عز وجل من المال في الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانهم علماً بأن كل ما يُبذل في أبواب الخير يخلفه الله عز وجل العليم بنوايا خلقه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلَفُهُ وهو خير الرازقين ﴾ ولا خلاف عند عقلاء البشر أن الإحسان إلى الخلق خيرٌ من الإساءة إليهم ، وأن نفع الناس ليس كالحاق الأذى بهم ، ولا ينافي ذلك إلا الشيطان وقرناؤه ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا . يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا .﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له وبالإحسان للوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما تحت يد الإنسان من حيوان أو إنسان ثم أعقب ذلك بدم المختال الفخور والبخلاء ومن يأمر الناس بالبخل ، ومن يكتم ما أتاه الله من فضله ، والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . وبين أن هؤلاء المذمومين هم قرناء الشياطين ثم حض على الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزق الله عز وجل ووبَّخ من لم يؤمن ولم ينفق في طاعة الله أعلن عز وجل هنا أنه تبارك وتعالى هو الحكم العدل ذو الإحسان والجود والفضل حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وهذا بيان لكمال عدله ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .﴾ وهذا بيان لواسع جوده وفضله . فمن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فهو عز وجل لا يبخس مثقال ذرة من أعمال المؤمنين ، ولا يحملُ مُسيئاً أكثر من إساءته كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وكما قال عز وجل عن العبد الصالح لقمان أنه قال : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . ﴾ والمقصود من نفي الظلم عن ذاته المقدسة هو إثبات كمال عدله ، ومعنى ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي وزن ذرة وتطلق على أصغر النمل كما تطلق على الجزء الذي لا يقبل الانقسام ، كما تطلق على الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس النافذ من ثقب في حجرة مظلمة . وقال في القاموس المحيط : الذرُّ صغار النمل ومائة منها زنة حبة شعير ، الواحدة ذرة اهـ . وقد ضرب الله عز وجل مثلاً بالذرة وبحبة الخردل لأنها أصغر وأدق ما يؤزن فلا شيء أصغر من الذرة أو حبة الخردل ، وأصل : ﴿ تَكُ ﴾ تَكُنْ قال الزجاج : الأصل في تك تكون فسقطت الضمة للجزم ، والواو لسكونها وسكون النون ، وأما سقوط النون فلكثر استعمال تشبيهها بحروف اللين لأنها ساكنة فحُذِفَتْ استخفافاً اهـ . وقوله : استخفافاً أي طلباً للتخفيف . وقد تَضَمَّنَ قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا ﴾ أَنَّ ما يفعله الإنسان من شر لو كان وزن ذرة فإنه لا يجازيه إلا به ، وأن ما يفعله الإنسان من خير ولو كان وزن ذرة فإن الله عز وجل يضاعفه له من فضله وجوده وإحسانه وأنه لا يضيع عند الله شيء مهمل كان . وقوله عز وجل : ﴿ وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ويعط من عنده الأجر العظيم وهو الجنة ، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل ، أن الله تعالى يقول للشافعين : اذهبوا فممن وجدت في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا . قال أبو سعيد : فإن لم تُصَدِّقُونِي فاقرءوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا ﴾ وقد أخرج مسلم هذا الحديث أيضاً من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري : وفيه : ثم يقول : ارجعوا

فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: ربنا لم نذَر فيها خيراً، وكان أبو سعيد الخدريُّ يقول: إن لم تُصَدِّقُونِي بهذا الحديث فاقْرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ بعد أن ذكر عز وجل أنه لا يظلم الناس يوم مجازاتهم بأعمالهم، وأشار إلى أن من جاء بالسيئة ولو كانت مثقال ذرة لا يُجزى إلا بمثلها، ومن جاء بالحسنة ولو كانت مثقال ذرة ضاعف الله عز وجل ثبوته عليها، وأنه عز وجل يعطي الجنة التي عرضها السموات والأرض والتي ذكر رسول الله ﷺ أن مقدار قوس فيها خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ، ذكر عز وجل هنا مَشْهَدًا من مشاهد القيامة حيث يشهد كلُّ رسول على أمته، ويشهد محمد ﷺ للأنبياء بالتبليغ وعلى الأمم المكذبة بالتكذيب، وفي هذا ترهيب للمكذبين وترغيب للمستجيبين لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام. وكما قال عز وجل: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدريُّ قال: قال رسول الله ﷺ: يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فيقول: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيقول: نَعَمْ، فيقال لأُمته: هَلْ بَلَغْكُمْ؟ فيقولون: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فيقول: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيقول: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وَالْوَسْطُ: الْعَدْلُ اهـ. وكما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ

شهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ ﴿١٠﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ ﴿١١﴾ وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : أَقْرَأْ عَلَيَّ ، قُلْتُ : أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ . ﴿١٢﴾ قَالَ : أَمْسِكْ ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ . وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ، فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ : ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ . ﴿١٣﴾ رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ . وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَقْرَأْ عَلَيَّ ، قَالَ : قُلْتُ : أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ، قَالَ : فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ : ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ . ﴿١٤﴾ قَالَ لِي : كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ ؛ فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذَرِفَانِ . أَهْدَ وَبَكَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ يُشْعِرُ بِمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ ، وَشِدَّةِ الْأَمْرِ ، وَعَظِيمِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ وَحَبِيْبِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ يَنْصَبُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَهِيداً فِي الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، وَيَرْفَعُهُ عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَهَذِهِ دَرَجَةٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ الَّتِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ ، الْمَشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الْآيَةِ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ هَوْلِ مَا يَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، يَبْخُلُ بِمَالِهِ وَيَأْمُرُ

الناس بالبخل ويكتُم ما آتاه الله من فضله ، والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قرناء الشياطين : أي فكيف حال هؤلاء يوم القيامة الذي يجعل الولدان شيبا ، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وقوله عز وجل : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ . بيان لما يصيب الكافرين المكذبين لله ورسوله ﷺ من الهول والفرع الأكبر ، وتفسير للحال المستول عنها بقوله : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ . كأنه قيل : فكيف حال هؤلاء يوم القيامة ؟ فكان الجواب : يكونون بحال مُحزنة مُفجعة يودُّون ويتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا وليس العطف في قوله عز وجل : ﴿الذين كفروا وعَصَوُا الرسول﴾ للمغايرة بل هو من عطف الخاص على العام لمزية في الخاص إذ أن المقصود من معصيتهم الرسول هنا هو تكذيبهم له ، وجحودهم رسالته ، وكتماهم ما عرفوه من صفاته التي وصفت لأُمم الأنبياء السابقين حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، وفائدة ذكر معصية الرسول بعد قوله : كفروا لشدة تفجيعهم بأن هذا الرسول العظيم ﷺ سيشهد عليهم يوم الحسرة والندامة والفرع الأكبر بأنهم عَصَوْه وكذَّبُوهُ ، فأفاد عطفُ الخاص على العام هنا التنديد والتحذير لعلهم يتوبون ويذكَّرون ويرجعون عن غيهم وضلالهم قبل فوات الفرصة عليهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يصيرون ترابا كما تصير البهائم على حد قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ فهم لشدة ما يصيبهم من الخوف والخزي والهلع يتمنون أن تنشق الأرض بهم وتبتلعهم ، وقوله عز وجل : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي إنهم يوم القيامة يعترفون بجرائمهم ولا يكتُمون من الله شيئا ويقرُّون بأن الله عز

وجل لم يظلمهم مثقال ذرة، وبخاصة بعد أن يحلفوا بالله أنهم ما كانوا
مشركين، فيختم الله على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا
يعملون وأنهم كانوا مشركين، كما قال عز وجل: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم
وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اليوم نختم على
أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ وكما قال عز
وجل: ﴿ويوم يُحْشَرُ أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزَعُونَ. حتى إذا ما جاءوها
شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم
لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة
وإليه تُرْجَعُونَ. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا
جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي
ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ، إِنْ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا.﴾

بعد أن وصَّى الله عز وجل بمجامع الخير وأصول البر والإحسان في قوله عز وجل: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ إلى قوله ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ ثم حذَّر من قبائح الصفات ومجامع السوء في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ ثم حض على الإيمان بالله واليوم الآخر وبين أنه عز وجل سيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة وأنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، وحذَّر المكذبين لرسول الله ﷺ من موقف الحسرة والندامة حين ينصبُّ الله محمداً ﷺ شاهداً عليهم يوم القيامة، وأنهم يتمنَّون يومئذ أن تُسَوَّى بهم الأرض، شرع هنا يوصي بالصلاة وصيانتها، لأنها رأس العبادات بعد توحيد الله عز وجل وأهم أمور الإسلام، وأول ما يحاسب به العبد يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا هو الطور الثالث من أطوار تحريم الخمر حيث كان الطور الأول هو التنديد بشرها حيث يقول عز وجل في سورة النحل وهي مكية: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وكان الطور الثاني من أطوار تحريم الخمر هو قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ أما الطور الرابع والأخير فهو قوله عز وجل: ﴿يَا

أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿١﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي يامعشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ لا تشربوا الخمر في أوقات الصلاة ومواضعها أي المساجد لتتمكنوا من أداء الصلاة وأنتم في حال صحو تام وتمييز لكل ما تتلفظون به وعلم بما تقولونه وما تتلونه من كتاب الله ، ولا شك أن هذا خطوة ذات أثر بالغ في المنع من شرب الخمر وتدريبٌ للمدمنين على تركها ، لأن من تمكن من السيطرة على هواه فترك الخمر في أوقات الصلاة استطاع بهذا التدرّج أن يصون نفسه منها في جميع الأوقات ، ولذلك عندما نزل قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ . إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قالوا : انتهينا ، انتهينا يارب . وهذا الطريق الذي سلكه القرآن العظيم في حماية الناس من شرور الخمر هو الأسلوب الأمثل في تربية النفس الإنسانية على سلوك السبيل السويّ وحمايتها من سائر الأضرار ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوا الصلاة ومواضعها وهي المساجد حالة كونكم جُنُبًا إِلَّا مجتازين فيها حتى تغتسلوا من الجنابة ، والجُنُب المحتلم أو المقارف أهله ، ويطلق على الواحد والمثنى والجماعة وعلى الذكر والأنثى ، وقد روى أبو داود بسند صحيحه ابن خزيمة من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رسول الله ﷺ وَوُجُوهُ بَيَوتِ أَصْحَابِهِ شَارِعَةً فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ : وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ . ثم دخل رسول

الله ﷺ ولم يصنع القوم شيئاً رجاء أن ينزل فيهم رخصة، فخرج إليهم فقال :
 وَجَّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب .
 وهذا الحديث من رواية أَفَلْت بن خليفة عن جسة عن عائشة ، وأَفَلْت وثقة
 ابن حبان وقال أبو حاتم : هو شيخ ، وقال أحمد بن حنبل : لا بأس به ،
 وروى عنه سفيان الثوري وعبد الواحد بن زياد ، وقال في الكاشف :
 صدوق ، وقال في البدر المنير : بل هو مشهور ثقة ، وقال العجلي في جسة :
 تابعة ثقة ، وذكرها ابن حبان في الثقات . وقال الحافظ ابن حجر : وأما قول
 ابن الرفعة في أواخر شروط الصلاة : إِنَّ أَفَلْت متروك فمردود لأنه لم يقله أحد
 من أئمة الحديث . وأما ما رواه سعيد بن منصور في سننه قال : حدثنا عبد
 العزيز بن محمد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال
 رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يجلسون في المسجد وهم مُجْنِبُونَ إذا
 توضأوا وضوء الصلاة ، وكذلك ما رواه حنبل بن إسحاق صاحب أحمد
 قال : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال :
 كان أصحاب رسول الله ﷺ يتحدثون في المسجد وهم على غير وضوء ، وكان
 الرجل يكون جنباً فيتوضأ ثم يدخل المسجد فيتحدث . ففي كلا الإسنادين
 هشام بن سعد وهو وإن كان من رجال مسلم ، إلا أن البخاري أو مسلماً قد
 يخرج للرجل حديثاً في موضع ولا يخرج حديثه في موضع آخر لعله ، ولعل من
 علته ثبوت حديث منع الحائض والجنب من المساجد وكراهية التحدث بغير
 ذكر الله وقراءة القرآن في المسجد وقول رسول الله ﷺ للحائض « غير ألا تطوفي
 بالبيت حتى تغتسلي » في حديث عائشة المخرج في الصحيحين . وقد قال أبو
 حاتم في هشام بن سعد : إنه لا يحتج به ، وضعفه ابن معين وأحمد
 والنسائي ، وقد ثبت بهذا أن الجنب ممنوع من المكث في المسجد ، أما المجتاز
 في المسجد إما للخروج منه أو الدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد

فأجنب فيجب عليه الخروج منه ، أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه للضرورة من غير إقامة فهذا كله جائز وقد روى سعيد بن منصور في سننه من حديث جابر رضي الله عنه قال : كان أحدنا يمر في المسجد جُنُبًا مجتازا . وتأويل قوله عز وجل : ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ بالمجتازين في المسجد للخروج منه أو للدخول لأخذ الماء منه أو لكون طريقه عليه ضرورة أَوَّلَى من تأويل ذلك بالمسافرين لوجهين : الأول : أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم مع قوله ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ فيحتاج إلى إضمار شيئين : عدم الماء ، وذكر التيمم ، وأما على تأويله بالمجتاز فلا يُجْتَازُ إلى إضمار شيء ، والوجه الثاني : أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد ذلك فلا يحمل هذا على حكم مُعَادٍ في نفس الآية ، ويدل على ذلك أيضاً أن جميع القراء استحسِنوا الوقف على قوله عز وجل : ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وهو يَدُلُّ على أن حكم الجنابة باقٍ على الجنب إلى غاية هي الاغتسال . وقوله عز وجل : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ هذا بيانٌ للأسباب الداعية للتيمم وهي المرض أو السفر أو المجيء من الغائط أو ملامسة النساء . وأصل التيمم في اللغة القصدُ وفي الشرع هو القصد إلى الصعيد لمسح الوجه واليدين بنية استباحة الصلاة ونحوها ، وهو من خصائص هذه الأمة ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : أُعْطِيتُ حَسًّا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ . الحديث ، وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة : وَجَعَلْتُ تُرْبَتَهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ . وقد أذن الله عز وجل بالتيمم في آيتين من كتابه الكريم وهما هذه الآية وآية

المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ والظاهر أن آية النساء هذه متقدمة في النزول على آية المائدة إذ أن آية النساء قرئت بقوله عز وجل : ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وهو الطور الثالث من أطوار تحريم الخمر ، أما آية المائدة فقد نزلت بعد تحريم الخمر ؛ لأن صدر سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن ، ومن المعلوم أن الطور الرابع والأخير من أطوار تحريم الخمر جاء في سورة المائدة فَأَيَّةُ النِّسَاءِ حَرِيَّةٌ بَأَن تُسَمَّى آيَةُ التَّيَمُّمِ ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْدِي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا : أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسِ ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضْعُ رَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ ، فَقَالَ : حَبَسَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : فَعَاثَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي ، فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ : مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ، قَالَتْ : فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصْبَنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ اهـ . وقد أباحت هذه الآية الكريمة للمرضى والمسافرين ومن جاء من الغائط ومن لامس النساء إذا لم يجدوا ماءً أَنْ يَتَيَمَّمُوا ، وعدم وجدان

الماء قد يكون بِعَدَمِهِ جملة أو عدم بعضه أو أن يخاف بطلبه فوات رفقته أو ضياع راحلته أو يخاف لصوصاً أو سَبُعاً أو عطشاً على نفسه أو غيره إذا توضع بها معه من الماء ، أو احتاجه لطبيخ يَطْبُخُهُ أو لا يقدر على استعمال الماء أو لا يجد من يناوله ، أو أن يكون الماء في بئر لكنه لا يقدر على الوصول إليه لعدم وجود آلة لنزعه ، أو كان مريضاً يضره الماء أو يؤخر بُرَأَهُ ، والمَرَضَى جمع مريض ، والمرض خروج البدن عن حد الاعتدال بسبب علة أو جراحة أو غيرها . وقوله : ﴿أو على سفر﴾ يعني مسافرين وقوله : ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أي أو قضى أحدكم حاجته التي تنقض الوضوء من سائر الأحداث التي توجب الطهارة الصغرى وأصل الغائط المكان المنخفض ثم صار يستعمل بمعنى الكنيف وبيت الخلاء والمقصود الحدث الأصغر ، وإن كان العرف خص الغائط بالخارج من الدبر وصار يستعمل في مقابلة البول . وقوله عز وجل : ﴿أو لامستم النساء﴾ هو كناية عن الجماع ، وليس هذا تكريراً لقوله عز وجل في نفس الآية : ﴿ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ إذ أن أحد البيانين لوجوب اغتسال الجنب عند وجود الماء والثاني بيان لجواز تيممه عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله فلا تكرار في الآية . قال البخاري في صحيحه : باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم ، ويذكر أن عمرو بن العاص أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ فذكر للنبي ﷺ فلم يعنفه اهـ . وقوله عز وجل : ﴿فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أي فاقصدوا ترابا طاهرا فاضربوا عليه وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وقد أوضحت السنة كيفية التيمم وبيّنت مجمله ، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : بعثني النبي ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد

تَمَرَّغَ الدابة، ثم أتيتُ النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال : إنما كان يكفيك أن تقولَ بيدك هكذا، ثم ضَرَبَ بيديه الأرضَ ضربةً واحدةً، ثم مَسَحَ الشمالَ على اليمين وظاهرَ كَفِّهِ ووجهه . وفي رواية للبخاري : وضرب بكفيه الأرضَ ونفخَ فيهما ثم مسحَ بهما وجهه وكفيه . وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ هو بيانُ لُحْبه عز وجل للتيسير على عباده فيما يشرعه لهم من الأحكام وما يتفضل به عليهم من الرُّخَصِ ، وما يعامل به المؤمنين من العفو المغفرة .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل فضله على عباده المؤمنين بما يَسْرُهُ لهم من التشريع المَبْنِيّ على التيسير، وأباح لهم التيمم بالتراب الطاهر للعاجز عن استعمال الماء، تحقيقاً لما بشر الله به الأنبياء حيث وصف لهم رسوله محمداً ﷺ بأنه النبي الأمي الذي يحل لأمته الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وبعد أن أشار قريباً إلى بعض أخلاق اليهود المذمومة بأنهم ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله شرع هنا يعدّد بعض قبائح اليهود ويندّد بسلوكهم المشين ليزداد المسلمون استمساكاً بدينهم الذي منّ الله به عليهم وفضّلهم به على سائر الأمم، ويحذّروا من «مخططات» اليهود ومكرهم السيء حيث يبذلون كل جهد لإطفاء نور الإسلام، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا .﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين: يُخْبِرُ تعالى عن اليهود — عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة — أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويُعْرِضُونَ

عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في
 صفة محمد ﷺ لِيَشْتَرُوا به ثمنًا قليلًا من حُطَامِ الدنيا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا
 السَّبِيلَ﴾ أي يَوَدُّونَ لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم
 عليه من الهدى والعلم النافع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو أعلم بهم،
 وَيُحَذِّرُكُمْ مِنْهُمْ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا لِمَنْ
 لَجَأَ إِلَيْهِ، وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ اهـ. والخطاب في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾
 لكل مَنْ تَتَأْتَى منه الرُّؤْيَةُ من المؤمنين، وتوجيهُهُ إليه ﷺ هنا مع توجيهه في
 قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ إلى جماعة المؤمنين للإيذان بكمال شُهْرَةِ
 شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يَتَعَجَّبُ منها كُلُّ مَنْ يراها،
 ومعنى: ﴿أَوْتُوا نَصِييَا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي أُعْطُوا حَظًّا مِنَ الْمَعْرِفَةِ بَكْتَبِ
 الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي وَصَفَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفُوا مِنْهُ نَعْتَهُ ﷺ وَحَقِيقَةَ دِينِ الْإِسْلَامِ،
 فَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفْرًا، وقوله عز وجل: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ
 تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾. هذا تحذير للمؤمنين أَنْ يَسْتَنْصَحُوا أَحَدًا مِنَ الْيَهُودِ وَأَعْدَاءِ
 الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ أَوْ يَسْمَعُوا شَيْئًا مِنْ طَعْنِهِمْ فِي الدِّينِ لِأَنَّهُمْ
 جَمَعُوا فِي نَفْسِهِمْ أَخْسَ الصِّفَاتِ الْمُنْفَرَةِ عَنْ قُرْبَانِهِمْ إِذْ هُمْ ضَالُّونَ فِي
 أَنْفُسِهِمْ رَاغِبُونَ فِي إِضْلَالِ غَيْرِهِمْ، والتعبير بقوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾
 لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّةِ حَرَصِهِمْ عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمَعْوِجَةِ، وَأَنَّهُمْ يَخْتَارُونَ
 الضَّلَالَةَ بَدَلَ الْهُدَى، وَالْكَفْرَ بَدَلَ الْإِيمَانِ، وَالتَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ بَدَلَ التَّصْدِيقِ
 بِهِ، وَفِي قَوْلِهِ عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِحَذَرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
 الْوُقُوعِ فِي شِبَاكِ الْيَهُودِ وَفِخَاخِهِمُ الَّتِي يَنْصَبُونَهَا لِإِيقَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَيْرَةِ
 وَالضَّلَالِ، وَلَفَتْ الْإِنْتِبَاهَ إِلَى مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفُوسُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ مِنَ الْغِشِّ
 وَالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
 بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَبِاللَّهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَثِقُوا وَعَلَيْهِ فَتَوَكَّلُوا، وَإِلَيْهِ فَارْغَبُوا

دون غيره يَكْفِيكُمْ مُهَمَّكُمْ ، وَيَنْصُرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، ﴿وَكَفَى بِاللّٰهِ وَلِيًّا﴾
 يقول : وَكَفَاكُمْ وَحَسْبُكُمْ بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ وَلِيًّا يَلِيْكُمْ وَيَلِيْ أُمُورَكُمْ ، بالحياطة لكم
 والحراسة من أَنْ يَسْتَفْزِكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ أَوْ يَصُدُّوكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ نَبِيِّكُمْ ،
 ﴿وَكَفَى بِاللّٰهِ نَصِيرًا﴾ يقول : وَحَسْبُكُمْ بِاللّٰهِ نَاصِرًا لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَأَعْدَاءِ
 دِينِكُمْ ، وَعَلَى مَنْ بَغَاكُمْ الْعَوَائِلُ ، وَبَغَى دِينَكُمْ الْعَوَجَ اهـ . وقوله عز وجل :
 ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
 وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْأَسْتِثْمِ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ بعد أن وصف الله
 عز وجل اليهودَ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ بِأَنَّهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى الضَّلَالَةِ وَيَشْتَرُونَهَا ،
 وَأَنَّهُمْ يَجْبُونَ إِضْلَالَ الْمُسْلِمِينَ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا صُورًا أُخْرَى مِنْ قِبَائِهِمْ
 أَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَحْرِفُونَ الْكُتُبَ الَّتِي بِأَيْدِيهِمُ الْمُنْسُوبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ الْمَشْتَمَلَةَ
 عَلَى صِفَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْضَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَا يَجْبُونَهَا كَرَجْمِ الزَّانِي
 وَقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ فَاسْتَبَدَّلُوهَا بِتَحْمِيمِ الْوَجْهِ وَالتَّجْبِيهِ وَتَرَكَ إِقَامَةَ الْحُدِّ مُطْلَقًا
 عَلَى الشَّرِيفِ وَإِقَامَتِهِ عَلَى الضَّعِيفِ ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْسِرُونَ مَا فِي التَّوْرَةِ الَّتِي
 بِأَيْدِيهِمْ وَكُتِبَ الْعَهْدُ الْقَدِيمُ بِمَا يُوَافِقُ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَإِنْ خَالَفَ الْمُرَادُ
 مِنْهَا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا خَاطَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلُوا
 الْكَلَامَ الْمُحْتَمَلُ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَهُمْ يَرِيدُونَ الشَّرَّ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْخَيْرَ
 وَيَلُوبُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكَلَامِ ، فَكَانُوا إِذَا سَلَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا : السَّامُ
 عَلَيْكُمْ يَوْهَمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ : السَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَالْوَاقِعَ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ : الْمَوْتَ
 عَلَيْكُمْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّامِ الْمَوْتَ ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : رَاعِنَا وَهِيَ كَلِمَةٌ
 سَبَّ بَلَّغْتَهُمْ وَهُمْ يَوْهَمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ بِهَا : انْظُرْنَا وَرَاعِنَا سَمِعَكَ ، وَاسْتَمَعَ
 لَنَا . كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ ، يَرِيدُونَ : اسْمَعْ لَا
 سَمِعْتَ ، وَهُمْ يَظْهَرُونَ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ : اسْمَعْ لَا سَمِعْتَ مَكْرُوهًا .
 وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

مَوَاضِعِهِ ﴿ أَي من الذين صاروا يهودا قَوْمٌ أو فريق أو مَنْ يحرفون الكلم الذي يقرأونه في كتبهم أو يخاطبون به رسول الله ﷺ عن مواضعه ومقاصده التي وُضِعَ لها ، والعرب تقول : مِناً يقول كذا ومِناً لا يقوله أي منا من يقول كذا ومنا من لا يقوله ، أو منا فريق يقول كذا ومنا فريق لا يقوله . كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا مِناً إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي وما منا إلا من له مقام معلوم ، وكما قال ذو الرُّمَّة :

بَكَيْتُ عَلَى مَيِّهَا إِذْ عَرَفْتُهَا وَهَجَّتْ الْهَوَى حَتَّى بَكَى الْقَوْمُ مِنْ أَجْلِي
فَظَلُّوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ غَالِبٌ لَهُ وَآخِرُ يَثْنِي دَمْعَةَ الْعَيْنِ بِالْهَمْلِ
وَهَلْ هَمَلَانُ الْعَيْنِ رَاجِعٌ مَا مَضَى مِنْ الْوَجْدِ أَوْ مُدْنِكَ يَامِيٍّ مِنْ أَهْلِي

فقول ذي الرُّمَّة : ومنهم دَمْعُهُ أي ومنهم مَنْ دَمْعُهُ . وكما قال النابغة :
كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقْيَشٍ يُقَعِّعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنٍّ
يعني كأنك جملٌ من جمال بني أقيش . وكما قال تميم بن مُقبل :
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أُمُوتٌ وَأُخْرَى ابْتُغِيَ الْعَيْشُ أَكْدَحُ
يعني بقوله : فمنهما أُمُوتٌ أي فمنهما تارةٌ أُمُوتٌ فيها . وقد جرت العرب في أساليبها البلاغية على حذف بعض الكلام إذا كان المحذوف معلوماً حتى ولو كان ركناً من أركان الجملة كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته :

وحذف ما يعلم جائز كما تقول : زيدٌ ، بعد : مَنْ عِنْدَكُمْ

والتحريف هو التغير والتبديل والكَلِمُ جمع كلمة ، ومواضعه أي أماكنه أو مقاصده وقد جَمَعَ أحبار السوء من اليهود بين تغيير نفس الحروف أحياناً وتبديلها بما يشتهون وبين تأويلها بالتأويلات الفاسدة وصرف معانيها إلى ما يوافق أهواءهم ، وقوله عز وجل : ﴿ لَيَّاْ بِالْأَلْسِنَتِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴾ أي إن هؤلاء اليهود لعنهم الله كانوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويلوون ألسنتهم

بالكلام المحتمل للخير والشر على طريقة تُوهَم المسلمين بأنهم يريدون الخير
 وَيَعْرِفُ أتباعهم من اليهود أنها سَبَّ للإسلام والمسلمين فيمتنع رَعَاغُ اليهود
 عن الدخول في الإسلام إذ يقولون: هؤلاء أَخْبَارَنَا يَسُبُّونَ نبيهم ولا يعرف أنهم
 يَسُبُّونَهُ، ولو كان نبيا لعرف ذلك، مع أنهم لما قالوا لرسول الله ﷺ: السَّامُ
 عليكم قال: وعليكم فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من
 حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله
 ﷺ فقالوا: السَّامُ عليكم. قالت عائشة: فَفَهَّمْتُهَا فَقُلْتُ: وعليكم السَّامُ
 واللعنة، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي
 الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 قَدْ قُلْتُ: وعليكم. وقد نَبَّهَ الله عز وجل المسلمين إلى التَّقَطُّنِ لدسائس
 اليهود هذه فحذَّرَ من استعمال هذه الكلمات حتى يُعْلِقَ الباب على اليهود
 قبحهم الله فقال للمسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
 وَاسْمِعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال هنا منددًا باليهود وموبِّخًا لهم على
 سوء أدبهم ومُحذِّرًا لهم من لِيٍّ أَلَسْتَهُمْ وغمزهم في الدين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
 سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
 فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
 السَّبْتِ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
 بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولكنَّ الله تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهودَ
 الَّذِينَ يَلُؤُونَ أَلَسْتَهُمْ في مخاطبة الرسول ﷺ ويغمزون في الدين فأقصاهم
 وأبعدهم عن الرُّشْدِ وَالْهُدَى لِحُجُودِهِمْ نبوة محمد ﷺ التي كانوا يبشرون بها
 قبل مجيئه ﷺ فلا يؤمنُ منهم إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ، وقد آمن عبد الله بن سلام رضي
 الله عنه في جماعة قليلة منهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا

الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنرُدّها على
أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا. ﴿أي
يامعشر من انتسب إلى الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء سارعوا إلى الإيمان
بالكتاب المنزل على محمد ﷺ المقرر لما أنزل الله عز وجل على الأنبياء من قبل
أن نطمس وجوها فنسلب منها السمع والبصر ونزيل منها معالم الاهتداء
ونرُدّها القهقري وتصير كما وصف الله عز وجل المدبرين عن الهدى حيث
يقول: ﴿أفمن يمشي مكبًا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط
مستقيم.﴾ وأصل الطمس هو ذهاب معالم الاهتداء يقال: طريق طامس
الأعلام إذا كانت معالم الاهتداء فيه مندرسة ضائعة كما قال كعب بن زهير في
قصيدته بانت سعاد:

مِنْ كُلِّ نَضَاحَةِ الدُّفْرِى إِذَا عَرَقْتُ غُرَضَتْهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُوْلُ
قال في القاموس: الطموس الدروس والإنحاء يطمس ويطمس وطمسته
طمسا محوته والشيء استأصلت أثره، ومنه ﴿وإذا النجوم طمست﴾
﴿واطمس على أموالهم﴾ أهلكها اه ومعنى: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب
السبت وكان أمر الله مفعولا﴾ أي أو نطرُدّهم من رحمتنا كما طردنا الذين
اعتدوا في السبت والله يفعل ما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وكما
قال عز وجل: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله
وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر
مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾.

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا.﴾

قال أبو السعود العمادى في تفسير قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ : كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لتقرير ما قبله من الوعيد ، وتأكيده وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ، ويطمعون في المغفرة ، كما في قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَصَ هَذَا الْأَذْنَى (أي على التحريف) ويقولون سَيَغْفِرُ لَنَا﴾ والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً ، فإنَّ الشرع قد نصَّ على إشراك أهل الكتاب قاطبةً ، وقضى بخُلُودِ أصناف الكُفَرَةِ في النار اهـ . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ دليل قطعي الدلالة لصحة مذهب أهل السنة والجماعة في أن جميع المعاصي تحت مشيئة الله إن شاء عذب عليها وإن شاء غفر لصاحبها حتى لو مات ولم يتب منها إلا الشرك بالله سواء كان شركاً أصغر أو كان شركاً أكبر فإنَّ مَنْ مات على الشرك لا يغفر الله له أبداً ولا بد من تعذيبه بنار جهنم إلا أن الشرك الأكبر يُخَلَّدُ صاحبه في النار بخلاف الشرك الأصغر فإن صاحبه لا يُخَلَّدُ في النار . وقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي الأسود الدَّيْلِيِّ أن أبا ذر حَدَّثَهُ ، قال : أتيتُ النبي ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضٌ وهو نائم ، ثم أتيتُه وقد استيقظ . فقال : ما مِنْ عَبْدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دَخَلَ الجنة ، قلتُ : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلتُ : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن

سَرَقَ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ : وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ أَه. فَمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَارْتَكَبَ كَبِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ فَإِنْ تَابَ مِنْهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنْ أَخَذَ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ، وَإِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذِبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِدْرِيسَ عَائِدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّ عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ شَهِيدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : بَايَعُونِي عَلَى أَلَّا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ : وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا يَعْنِي غَيْرَ الشَّرِكِ بِدَلِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ وَمَنْ يَجْعَلُ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ نِدًّا فَقَدْ اخْتَلَقَ جُرْمًا كَبِيرًا بَلْ قَدْ ارْتَكَبَ أَكْبَرَ الْجَرَائِمِ وَأَعْظَمَ الذُّنُوبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ : أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ : إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ : ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ : ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مَنْ أَشْرَكَ مُفْتَرِيًّا لِأَنَّهُ قَالَ زُورًا وَإِفْكًَا كَبِيرًا بِجُحُودِهِ وَحِدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِقْرَارِهِ بِأَنَّ اللَّهَ شَرِيكًا أَوْ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا، وَمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ كَانَ مُفْتَرِيًّا، كَمَا أَنَّ كُلَّ كَاذِبٍ فِي دَعْوَى يَدَّعِيهَا فَهُوَ مُفْتَرٍ فِي كَذِبِهِ مَخْتَلِقٌ لَهُ. وَقَدْ حَذَرَتِ الشَّرِيعَةُ

الإسلامية من الشرك ووسائله أشد التحذير سواء كان شركاً أصغر أو شركاً أكبر، والفرق بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر؛ أن الشرك الأصغر لا يُخْرِجُ من الملة، ولا تَبِينُ به الزوجة، ولا يُخَلِّدُ صاحبه في النار لو مات من غير توبة منه، ومن الشرك الأصغر الحلفُ بغير الله كالحلف بالنبي أو الولي أو البلد أو الولد أو غير ذلك مما سوى الله تعالى فقد روى الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد أشرك. قال الترمذي: هذا حديث حسن اهـ. ولذلك كان الحلفُ بغير الله أكبر من قتل النفس ومن الزنا وشرب الخمر والسرقة؛ لأن الشرك بنوعيه لا يغفره الله عز وجل إلا بتوبة منه بخلاف سائر المعاصي التي دون الشرك كما قال عز وجل هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَمَا قَسَمُ الله عز وجل بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل؛ لأن الله تعالى له أن يقسم بما شاء، ولا يدخُلُ في شيء من القياس مع خلقه تبارك وتعالى، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمرٌ يحلف بأبيه فناداهم رسولُ الله ﷺ: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمُت. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بالطواغي ولا بأبائكم. ومن الشرك الأصغر قول الإنسان: ما شاء الله وشئت يافلان. أو لولا الله وأنت لكان كذا، وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ وقال في الآية السادسة عشرة بعد المائة من هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأن الآية الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم عِلْمٌ بصحة نبوته، وأن

شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، ومع ذلك فقد كَابَرُوا في ذلك وافْتَرَوْا على الله ، أما الآية الثانية فهي في شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم فَنَاسَبَ وصفهم بالضلّال ، وقولُهُ عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض جرائم أهل الكتاب وأنهم مع جرائمهم يطمعون في المغفرة وَبَيَّنَّ عز وجل استحالة المغفرة مع الشرك أشار هنا إلى غرورهم بتزكيتهم أَنْفُسَهُمْ حيث يزعمون أنهم لن تَمَسَّهُمُ النَّارُ إلا أياما معدودات لأنهم أبناء الله وأَحِبَّاءُهُ ، وقالوا : لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هُودًا أو نصارى ، وَتَعَلَّقُوا بِالْأَمَانِي الكاذبة وفي هذا تنديدٌ بِمَنْ يَمْدَحُ نفسه ويزكيها وأن مَنْ زَكَّاهُ اللهُ واستعمله في طاعته فاستجاب الله ولسوله ﷺ وإذا عمل عملاً صالحاً لا يَغْتَرُّ به فهذا هو الزاكي الْمَزْكِيُّ ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَا حَسَدَ . أُولَئِكَ سَابِقُونَ . وَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُزَكُّوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . ﴾ وكما نَهَى الْإِسْلَامُ الْإِنْسَانَ عَنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ فَقَدْ نَهَاهُ أَلَا يُزَكِّيَ عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِمَنْعِ الْغُرُورِ وَالْإِغْتِرَارِ ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيقُهُ فِي الْمَدْحِ فَقَالَ : أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهَرَ الرَّجُلِ . كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَثْنَى عَلَيْهِ

رجلٌ خيراً، فقال النبي ﷺ: وَيَحْكُ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» يقوله مراراً «إن كان أحدكم مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فليقل: أَخَسِبُ كَذَا وكَذَا إن كان يرى أنه كذلك وَحَسْبِيهِ اللهُ وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدٌ» كما روى مسلم من حديث المقداد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التَّرَابَ. كما روى مسلم من طريق محمد بن عمرو بن عطاء قال سَمِعْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الْإِسْمِ، وَسُمِّيَتْ بَرَّةَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ، فقالوا: بِمِ نُسَمِّيْهَا؟ قال: سَمُّوْهَا زَيْنَبَ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي وَلَا يَبْخَسُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِينَ مقدار فتيل كما لَا يُحْمَلُ الْعَاصِينَ إِلَّا مَا عَمَلُوهُ وَلَا يُظْلَمُهُمْ مِثْقَالُ فَتِيلٍ أَوْ مقدار فتيل كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والفتيلُ: هو الخيط الدقيق الرقيق الذي يكون في شق النواة، ولا يكاد يزن شيئاً لحقارته وتفاهته، وقد جعل الله تبارك وتعالى في نواة التمرة ثلاثة أشياء يَضْرِبُ الْعَرَبُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا الْمَثَلَ لِلشَّيْءِ التَّافِهِ الْحَقِيرِ، وهي الْفَتِيلُ وَالنَّقِيرُ وَالْقَطْمِيرُ، وقد ضربها القرآن كذلك مثلاً للشَّيْءِ التَّافِهِ الْحَقِيرِ فقال عز وجل هنا: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فهو عز وجل منزّه عن ظلم عباده ولو بمقدار فتيل أو ذرة، وَالْقَطْمِيرُ هو القشرة الرقيقة التي في ظهر النواة وقد ضرب الله عز وجل بها مثلاً على أن مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِمَّا كَانَ تَافِهَا وَلَوْ كَانَ قَطْمِيرًا حَيْثُ يَقُولُ عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال عز وجل في بيان شح اليهود وأنهم لو كان لهم نصيبٌ من

الْمَلِكُ مَا أَعْطَوْا أَحَدًا نَقِيرًا: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ
 نَقِيرًا.﴾ وَالنَّقِيرُ هُوَ النَّكْتَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ كَالنَّقَرَةِ وَالنَّقْطَةِ، وَهِيَ لَا
 تَسَاوِي شَيْئًا، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى
 بِهِ إِثْمًا مَبِينًا.﴾ هَذَا تَعَجِيبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَبْحِ سُلُوكِ الْيَهُودِ وَجَرَائِمِهِمْ فِي
 الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ أَشَدُّ خَلْقٌ اللَّهُ
 نَجَاسَةٌ وَأَبْعَدُ بَنِي آدَمَ عَنِ الطَّهَارَةِ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ وَأَنَّهُمْ لَنْ
 تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَرِيمَةٌ سِوَى الْإِفْتِرَاءِ
 وَاخْتِلَاقِ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَكَفَاهُمْ بِذَلِكَ إِثْمًا وَجُزْمًا فَمَا بِالْكَذِبِ وَهُمْ
 غَارِقُونَ فِي بَحَارِ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ الَّتِي لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، وَلَا يُحْصِيهَا الْعَدُّ.
 وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ كَالْكَذِبِ عَلَى غَيْرِهِ فَهُوَ أَقْبَحُ
 الْكَذِبِ وَأَعْظَمُهُ إِثْمًا وَجُزْمًا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:
 ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الْمَجْرِمُونَ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أُولَئِكَ
 يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ
 عَلَى الظَّالِمِينَ.﴾ كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ كَالْكَذِبِ عَلَى غَيْرِهِ
 مِنَ الْبَشَرِ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:
 إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أَحْدِثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ تَعَمَّدَ عَلَى كَذِبٍ
 فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ. وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ عَنْ حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ كَذِبًا عَلَى لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ
 كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنَ نَجِدْ لَهُ نَصِيرًا . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ
فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ
آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ
وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾

هذا بيان لنوع آخر من جرائم اليهود وفضائحهم المناقضة لكل كتاب
سماوي ، حيث آمنوا بالجبت والطاغوت وفضلوا عبدة الأوثان على عبادة
الرحمن ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب﴾
تأكيد لتعجيب النبي ﷺ وكل من يتأتى له أن يتعجب من قبائح أفعال
هؤلاء اليهود الذين لا تنتهي قبائحهم ومخازيهم حيث كرر الله عز وجل ذلك
في هذه المقامات المتتابعة التي ساقها ههنا في سورة النساء ، إذ بدأ الحديث
عنهم بقوله عز وجل : ﴿ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب يشترون
الضلالة ويريدون أن تضلُّوا السبيل﴾ ثم قال هنا : ﴿ألم تر إلى الذين أُوتوا
نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء
أهدى من الذين آمنوا سبيلا .﴾ مع أن الله عز وجل قد وصَّى جميع الأنبياء
أن يؤصوا أممهم بالكفر بالطاغوت حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ولقد بعثنا في
كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وبيَّن أن دعوى الإيمان دون
الكفر بالطاغوت لا تفيد مُدَّعِيها حيث يقول عز وجل : ﴿فمن يكفر
بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ والجبت
يطلق على الصنم والسحر والكهانة والطيرة والعيافة والطرق قال الجوهري في
الصحاح : الجبُّ كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك ، وفي

الحديث : الطَّيْرَةُ والعيافة والطَّرْقُ من الجَبْتِ اهـ . وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط : الجَبْتُ بالكسر الصَّنَمُ والكاهنُ والساحرُ ، والسحرُ والذي لا خير فيه وكلُّ ما عُبدَ من دون الله تعالى اهـ والحديث الذي أشار إليه الجوهري قد أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد جيد حيث قال : حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حيَّان بن العلاء ثنا قَطَنُ بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال : إن العيافة والطَّرْقَ والطَّيْرَةَ من الجَبْتِ . قال في القاموس : وَعِفْتُ الطَّيْرَ أَعِيفُهَا عِيَافَةً زَجَرْتَهَا وهو أن تَعْتَبِرَ بأسمائها وَمَسَاقِطِهَا وأنوائها فَتَتَسَعَّدَ أو تَتَشَاءَمَ والعائفُ المتكهنُ بالطير أو غيرها اهـ . والطَّرْقُ هو ضَرْبُ الكاهن بالحَصَى ، والطَّيْرَةُ هي التشاؤم وكان أهل الجاهلية إذا أراد الواحد منهم سَفَرًا أو عقد نكاح أو غيره أرسل طائرا أو نظرا في جوِّ السماء إلى طائر فإن وجده اتجه إلى جهة يمينه استبشر وتفاءلَ وتيمَّنَ به ، ومضى في طريقه واعتقد نجاح حُطته . وإن اتجه الطير إلى جهة الشمال تشاءم وتطيَّرَ ورجع عن قصده ، واعتقد أنه لن تنجح خطته إذا مضى فيها ، وكانوا يسمون الطير إذا تيامن بالسانح ، ويسمُّون الطير إذا اتجه إلى جهة شماله بالبارح ، فهو يَتِيَمُّونُ بالسانح ويتشاءمون بالبارح ، وقد أنكر بعض عقلاء أهل الجاهلية هذه العقيدة المنكرة ، وأعلن أنها لا تضر ولا تنفع وفي ذلك يقول :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا أَغْدُو عَلَى وَاكِ وَحَاتِمِ
فَإِذَا الْأَشْيَاءُ كَالْأَيِّامِ مِنْ وَالْأَيِّامِ كَالْأَشْيَاءِ نَمِ

وقال آخر :

الرَّجَسُ وَالطَّيْرُ وَالْكُھَّانُ كُلُّهُمْ مَوَا مُضَلَّلُونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْقَالُ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا تَذَرِي الطَّوَارِقُ بِالْحَصَى وَلَا رَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

وقال آخر

وَمَا عَاجِلَاتُ الطَّيْرِ تُذْنِي مِنَ الْفَتَى نَجَاحًا وَلَا عَنْ رَيْثِهِنَّ قُصُورُ
وقال آخر:

تَخَبَّرَ طَـــــــــــــــــــــــيْرَةً فِيهَا زِيَادٌ لِيُخْبِرَهُ وَمَا فِيهَا خَيْرٌ
تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مُتَطَيَّرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يُؤَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ أَحَايِينَا وَبَاطِلُهُ كَثِيرٌ

وقد أبطل الإسلام هذه العقيدة القبيحة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ . كما عدَّ الإسلام التطيُّر شركاً فقد روى أبو داود والترمذي وصححه هو وابن حبان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه رفعه : الطَّيْرَةُ شِرْكٌ . والطاغوتُ مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّغْيَانِ ، وهو مجاوزة الحد ، قال ابن القيم رحمه الله : الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته اهـ . ولاشك أن الطواغيت كثيرة لا تكاد تحصى ، وعلى رأسها الشيطان ، ومن دعا الناس إلى عبادة غير الله ، ومن رضي أن يُعبدَ من دون الله ، ومن رضي أن يحتكم إلى غير ما أنزل الله ، ومن نُصب ليحكم بغير شريعة الله . ومع أن الله عز وجل حرَّم الجبت والطاغوت في سائر الشرائع السماوية فإن اليهود قبحهم الله كانوا أشد الناس انقيادا للجبت والطاغوت كما قال عز وجل : ﴿ وَابْتَغُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ ﴾

وكما قال : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أي ويقول هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب للمشركين من قريش وغيرهم عبدة الأصنام والأوثان : إن دينكم خير من دين محمد وصحبه وسيلكم أهدى من سبيلهم مع أن الكتب التي بأيديهم المنسوبة للأنبياء تحرم الشرك وتبين أنه أكبر الكبائر وهذا من أوضح الأدلة على انغماس هؤلاء اليهود في الضلالة ، وأنهم أعدى أعداء الأنبياء والمرسلين . ولذلك أَتَبَعَ اللَّهُ عز وجل فضيحتهم هذه بقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ أي أولئك المزكون أنفسهم غرورا وافتراء ، المؤمنون بالجبت والطاغوت المفضلون دين عُبَادِ الأوثان على دين عُبَادِ الرَّحْمَنِ قد لعنهم الله وطردهم من رحمته ، وأخزاهم وأبعدهم عن رضوانه وجنته ، وخذلهم فلم يستعملهم في طاعته وأعدَّ لهم عذابا أليما ، لن يمنعهم منه مانعٌ ولن يدفعه عنهم دافع ، قال الفخر الرازي رحمه الله : واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد ؛ لأن الذي ذكره من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري مجرى المكابرة ، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالا ممن لا يرضى بمعبود غير الله ؟ ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة كيف يكون أقل حالا ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال ؟ والله أعلم اهـ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ هو بيان لتأكيد اتصاف اليهود بالبخل بعد بيان اتصافهم بالجهل والمعاندة والمكابرة ، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري أي بل ألهم حظ وقسط من الملك والتَّصَرُّف في

خزائن الله ، فلو كان لهم تصرفٌ في خزائن الله لبخلوا على الناس بأنفه شيء وأحقره ولم يعطوا أحدا مقدار النقرة أو وزن النقرة التي في ظهر النواة بخلاً وشحاً . وقوله عز وجل : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ هو بيانٌ لتأكيد اتصافهم بالحسد وتمني زوال النعمة عن الناس ، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام التوبيخي وهي تفيد الانتقال من وصفهم بالبخل إلى وصفهم بالحسد ، والاستفهام لتوبيخهم على هذا الخلق الذميمة الدال على خسة نفوسهم ولؤم طباعهم ، فهم لا يبذلون لأحد خيراً مهما كان تافها حقيراً حتى ولو كان فقيراً ، ويتمنون زوال النعمة عن الغير ويريدون ألا يُعْطَى الله عز وجل أحداً خيراً ، فالبخل والحسد يشتركان في الحرص على منع الخير عن الناس وكراهية إنزال رحمة من الله على عباده ، وقد قدّم الله عز وجل وصفهم بالجهل على وصفهم بالبخل والحسد ؛ لأن الجهل هو سبب البخل والحسد ، والسبب مقدّم على المسبب ، وتقديم البخل على الحسد ليكون الانتقال من وصفهم بقبيحة إلى وصفهم بأقبح منها لأن البخل منعٌ لما في أيديهم والحسد رغبتهم في منع ما عند الله وهو شرُّ الرذائل وأقبح الخصال ، وإذا كان المراد بالناس في هذه الآية هو محمد ﷺ فيكون من قبيل العام الذي أريد به الخصوص ويكون شبيهاً بقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ وكذلك إذا أريد به محمد ﷺ والمؤمنون . قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله عاتبَ اليهود الذين وَصَفَ صفتهم في هذه الآيات ، فقال لهم في قِيلِهِمْ للمشرِكِينَ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ : إِنْهُمْ أَهْدَى مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ سَبِيلًا ، عَلَى عِلْمِ مَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي قِيلِهِمْ مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ كَذِبٌ : اتَّحْسِدُونَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا : ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ لِأَنَّهُ مَا قَبْلَ قَوْلِهِ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ

الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴿ مَضَى بَذَمِ الْقَائِلِينَ مِنَ الْيَهُودِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: ﴿هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. ﴿ فإِلْحَاقُ قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ بِذَمِّهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَتَقْرِيطِ الَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ مَا قِيلَ أَشْبَهَ وَأَوَّلَى أَه. وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا. ﴿ أَيُّ فَقْدٍ جَعَلْنَا فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ وَأَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ النَّبُوَّةَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كُتُبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَصَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَتُورَةِ مُوسَى وَزَبُورِ دَاوُدَ وَإِنْجِيلِ عِيسَى وَسَائِرِ مَا أَنْزَلَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ — الَّذِينَ بَعَثْنَاهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ — مِنْ كِتَابٍ، وَمَنْحَهُمُ الْحِكْمَةَ وَالْفَقْهَ فِي الدِّينِ وَالسَّنَنِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِمَّا لَمْ يُنْزَلْ فِي الْكُتُبِ، وَمَنْحَهُمْ كَذَلِكَ مُلْكًا عَظِيمًا كَمَا تَفَضَّلَ عَلَى عَبْدِهِ دَاوُدَ وَعَبْدِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِمَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمٌ الْقَوْمُ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا، وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ. وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ. وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ. ﴿ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا فُضْلًا يَاجِبَالُ أَوَّيَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرَ. وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ

راسيات ، اعملوا آل داود شكرا ، وقليلٌ من عِبَادِي الشكور. ﴿١٠﴾ ومع ذلك
فإن بني إسرائيل منهم مَنْ آمَنَ بما منحه الله عز وجل لهؤلاء الأنبياء ومنهم من
كفر به وعدّه نوعاً من السحر ، وأسندوه إلى الشياطين ، وكفى بنار جهنم التي
تحرقهم حيث يكونون خطباً لها ووقوداً وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ كأنه
قيل : إذا كان هذا موقفهم من أنبياء بني إسرائيل فكيف بك ولست من بني
إسرائيل !! .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا. إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أن بني إسرائيل منهم من آمن بما آتاه الله عز وجل آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك العظيم، ومنهم من كفر به، وعده نوعاً من السحر، وتوعد الكافرين منهم بجحيم التي تسع بهم، ذكر هنا ما توعد به كل كافر من بني إسرائيل ومن غيرهم، على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بأسلوب اللف والنشر المشوش، حيث قال في الآية السابقة: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ فقدم ذكر من آمن على ذكر من كفر ثم ذكر هنا أمرين يعود الأول منهما على الثاني من المذكورين سابقاً، ويعود الثاني على الأول، وقدم الوعيد هنا على الوعد لارتباط الوعيد لعموم الكافرين بالوعيد بكفار بني إسرائيل الذي دُيِّلَ به الآية السابقة، ولتقديم التهيب على الترغيب، لأن النفس إذا تأثرت بالتهيب فاستجابت لله رب العالمين صارت أهلاً لما أعده الله لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت من النعيم المقيم في جنات النعيم. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: هذا وعيد من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل

وغيرهم من سائر الكفار وبرسوله ، يقول الله لهم : إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من آياتي — يعني : من آيات تنزيله ووحى كتابه ، وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ — فلم يُصدقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به — ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ يقول : سوف نُنْضِجُهُمْ في نار يُصْلُونَ فيها أي يُشَوِّنُونَ فيها — ﴿كَلِمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ يقول : كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت — ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يعني غير الجلود التي قد نضجت فانشوت اهـ . ولا يقول قائل : إن الجلود العاصية إذا احترقت ، وجعل الله جلوداً غيرها وعذبها كان هذا تعذيباً لجلد لم يعص الله ؟ لأننا نقول : إن المقصود من تبديل الجلود هو تبديل الصفة لا تبديل الذات بأن تعاد إلى حالها الأول غير محترقة ، فإذا جدد الله الجلد ، وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيباً إلا للعاصي ، وذلك نظير قول العرب للصائغ إذا استصاغته خاتماً من خاتم مصوغ بتحويله عن صياغته التي هو عليها إلى صياغة أخرى : «صغ لي من هذا الخاتم خاتماً غيره» فيكسره ويصوغ له منه خاتماً غيره ، والخاتم المصوغ بالصياغة الثانية هو الأول ، ولكنه لما أعيد بعد كسره خاتماً قيل : هو غيره ، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُغَلِّظُ جِلْدَ الكافر يوم القيامة حتى يصير غِلْظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام ، ويجعل ما بين مَنَكِبَي الكافر في النار بمقدار مسيرة ثلاثة أيام ، ويجعل ضرْس الكافر أو نَابَهُ مثل جبل أحد ، ليكون أَبْلَغَ في إيلامه ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ضِرْسُ الكافرِ أو نَابُ الكافرِ مثلُ أحد ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ ، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة يرفعه قال : ما بَيْنَ مَنَكِبَي الكافرِ في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المُسْرِع . كما أخبر الله عز وجل أن جلود الكفار تشهد عليهم يوم

القيامة حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون
* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا
يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل
شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ ومعنى : ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي
ليقاسوا شدته وليحسوا بتجدد ألمه وكربه ، والتعبير عن إدراك العذاب
بالذوق للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه وإيجاعه وشدة تأثيره وذلك لأن
القوة الذائقة هي أشد الحواس تأثراً ، ولاسيما أنهم كانوا يكذبون بعذاب
الآخرة ويحذونه كما قال عز وجل : ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما
أرادوا أن يخرجوا منها أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَكْذِبُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ونقول للذين ظلموا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ
الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي
إن الله عز وجل لم يزل ولا يزال قادراً على الانتقام من الظالمين الكافرين
الجاحدين ، لا يقدر على الامتناع منه أحد ، ولا يهرب منه هارب ، ولا يعجزه
شيء في السموات ولا في الأرض ، وهو جلت قدرته حكيم في تدبيره
وقضائه ، وهذه الجملة التذيلية تعليل لما قبلها من الإصلاء والتبديل ، وكان
مقتضى السياق أن يقال : إنه كان عزيزاً حكيماً . لكن مقتضى الحال يقتضي
وضع لفظ الجلالة موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة منه جل
وعلا . وقوله عز وجل : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرةٌ وندخلهم ظلاً
ظليلاً﴾ أي والذين أقروا بالله ورسوله وصدقوا بما أنزل الله عز وجل على
محمد ﷺ وأدّوا ما أمرهم الله عز وجل به من فرائضه ، واجتنبوا ما حرم الله عز
وجل عليهم من معاصيه ، وماتوا على التوحيد سوف يدخلهم الله عز وجل
يوم القيامة حدائق الخلد التي وعد المتقين الصالحين من عباده ، تجري من

تحت تلك الجنات أنهار من ماءٍ غير آسنٍ ، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، حالة كونهم باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع لا يريمون عنها ولا يتحولون منها ، ولهم في تلك الجنات أزواج بريئات من الأدناس والأرجاس والريب والحیض والنفاس والغائط والبول والحبل والبصاق وسائر الأقدار ، نقيات خالصات مخلصات قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جانٌ ، وسوف يسكن الله عز وجل أهل الجنة في ظل ظليل لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً ، بل هم في ظل ممدود دائم بارد كريم لا سموم معه ولا يحموم ، ولا يلحقهم حر ولا قر ، كما قال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۚ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۚ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ۚ وَظِلٍّ نَمُودٍ ۚ ﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة شجرةً يسير الراكبُ الجوادِ المضمر السَّريعَ مائةَ عامٍ ما يَقْطَعُهَا . وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة لَشَجَرَةً يسير الراكبُ في ظلها مائةَ سنةٍ لا يَقْطَعُهَا . وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث سهل ابن سعد عن رسول الله ﷺ قال : إنَّ في الجنة لَشَجَرَةً يسير الراكبُ في ظلها مائةَ عامٍ لا يَقْطَعُهَا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ۚ ﴾ مناسبتة لما قبله أنه عز وجل بعد أن كشف بعض جرائم اليهود وبخاصة ما كتموه من صفات رسول الله ﷺ التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم وضيَّعُوا أمانة الله وعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم بتأييد النبي الكريم ﷺ ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا في الضلال

إلى أبعد من ذلك حيث جعلوا دين المشركين الذين يعبدون الأصنام أهدي من دين النبي ﷺ الحامي لجناب التوحيد من كل شوائب الشرك وتوعدهم هم وسائر الكفار بالعذاب الأبدي السرمدي في نار جهنم، ووعد المؤمنين بالنعيم الأبدي السرمدي في جنات ذات ظل ظليل، ولهم فيها أزواج مطهرة، وَجَّهَ الخطاب هنا إلى جميع المكلفين حيث أمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، ولاشك أنه لو حافظ كل مكلف على الأمانة التي في عنقه سواء كانت دينية أو دنيوية وسواء أكانت للأبرار أو للفجار وأذاها كما تحملها ولم يخن فيها ما تورط اليهود فيما تورطوا فيه، ولسلمت المجتمعات من كثير من الشرور والآثام، وفي تصدير هذه الآية الكريمة المعدودة من أمهات آيات الأحكام المتضمنة لجميع الشرع والدين بكلمة التحقيق والتوكيد وإظهار الاسم الجليل بدل الضمير، والتعبير بقوله عز وجل: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ في كل ذلك تفخيم وتوكيد على وجوب رعاية الأمانة والتحذير الشديد من خيانتها، وتنقسم الأمانات إلى ثلاثة أقسام، الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله بإخلاص توحيده والمحافظة على شريعته، وصيانتها من التضييع، وأدائها على الوجه المشروع، الثاني: رعاية الأمانة مع نفسه بصيانة ما أنعم الله عليه به من الأعضاء فيحفظ لسانه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وسائر آفات اللسان، ويحفظ عينه عن النظر إلى ما حرم الله، ويحفظ يده ورجله وسائر أعضائه عن أن يرتكب بها معصية من معاصي الله، الثالث: رعاية الأمانة مع سائر عباد الله من المؤمنين والكافرين وما تحت يده من الحيوانات والبهائم وسائر ما ولاه الله عز وجل عليه وقد عظم الله تبارك وتعالى شأن الأمانة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وقال عز وجل:

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ . ﴿ في سورة المؤمنون وفي سورة المعارج وقال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ . ﴿ كما أشار رسول الله ﷺ إلى عِظَم شأن الأمانة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أُوْتِمِن خان . وجاء في الصحيحين من حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال . . الحديث ، كما أخرج مسلم من حديث حذيفة وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة : فيأتون محمدا ﷺ فيقوم فيؤذن له ، وتُرسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا . الحديث . وقوله تعالى : ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أي وإن الله يأمركم إذا قضيت بين الناس أن تقضوا بالقسطاس المستقيم وأن يكون أكبر همكم إيصال الحق إلى مستحقه مهما كان ، كما قال عز وجل : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ وكما قال : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾ ولا شك أن العدل هو أساس عز الأمم والدول والشعوب وسبب بقائها وازدهارها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إن الله نعماء يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا﴾ . ﴿ هو ثناء من الله عز وجل على ما يشرعه لعباده من أصول السلوك والمعاملات والقضاء وأن نعم الموعظة ما يعظ الله عز وجل بها خلقه وهو السميع البصير .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

بعد أن أمر الله عز وجل جميع المكلفين سواء كانوا رعاة أو رعيةً بأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، أمر عز وجل هنا الرعية بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة من ولاه الله عز وجل أمرهم منهم ، وهذه الآية الكريمة مع الآية السابقة تنتظم بهما السياسة الشرعية الرشيدة ، التي تُسعد البلاد والعباد ، ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار ، وقد أَلَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالته المعروفة باسم «السياسة الشرعية» وجعل منهاها على هاتين الآيتين الكريمتين حيث قال في صدرها : هذه رسالةٌ مُختصرةٌ ، فيها جوامعُ من السياسة الإلهية والآيات النبوية ، لا يستغني عنها الراعي والرعية ، اقتضاها مَنْ أَوْجَبَ اللَّهُ نُصْحَهُ مِنْ وُلاَةِ الْأُمُورِ ، كما قال النبي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه في صحيح مسلم وغيره : «إِنْ اللَّهُ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تَنَاصِحُوا مَنْ وُلاَهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ ، وهذه الرسالة مبنية على آيتين في كتاب الله ، وهي قوله تعالى : ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنْ اللَّهُ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ . اهـ . وقد نزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن

عباس رضي الله عنهما ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ قال :
نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية .
كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه قال :
بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن
يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال : اجتمعوا لي خطبا، فجمعوا
له، ثم قال : أوقدوا نارا، فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن
تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا : بلى، قال : فادخلوها، قال : فنظر بعضهم إلى
بعض، فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك وسكن
غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال : لو دخلوها
ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف . ومعنى : ﴿أطيعوا الله﴾ أي انقادوا
لتعاليم كتابه، ومعنى : ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي واتبعوا سنته ﷺ، ومعنى :
﴿وأولي الأمر منكم﴾ أي وأطيعوا أمراءكم وعلماءكم الذين يستنبطون
الأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن أصول الدين وقواعده،
وقد حُضِرَ رسول الله ﷺ على طاعة ولي الأمر وحذر أشد التحذير من
معصيته مادام لم يأمر بمعصية الله عز وجل، واعتبر رسول الله ﷺ طاعة
الأمير من طاعة رسول الله ﷺ، ومعصيته من معصية رسول الله ﷺ فقد روى
البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال : من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن
أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني . وفي لفظ
للبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله
ﷺ يقول : من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن
يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني . وفي لفظ لمسلم من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من أطاعني فقد أطاع

الله، ومن يَعِصَنِي فَقَدْ عَصَى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، وَمَنْ يَعِصُ الأميرَ فَقَدْ عَصَانِي. وبهذا يتأكد وجوب طاعة الأمير مادام لم يأمرك بمعصية الله فإن أمرك بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق تبارك وتعالى. ولذلك روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: على المرء المسلم السَّمْعُ والطاعةُ فيما أَحَبَّ وَكَرِهَ إلا أن يُؤْمَرَ بمعصية، فإن أَمَرَ بمعصية فلا سَمْعَ ولا طاعة. كما روى البخاري ومسلم من طريق جُنَادَةَ بن أَبِي أُمِيَةَ قال: دخلنا على عُبَادَةَ بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حَدَّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ سَمْعَتَهُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ، قال: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعَنَا، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَأَلَا تُنَازَعُ الْأُمُورَ أَهْلَهُ، إلا أن تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ، كما روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَيْبَةٌ. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ، كما روى مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي أوصاني أن أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ. وفي لفظ: وإن كان عبدا حبشيا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ كما روى مسلم في صحيحه من حديث أم الحُصَيْنِ رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يَخْطُبُ في حجة الوداع وهو يقول: ولو اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. وقد أوجب الإسلام طاعة وليِّ الأمر حتى لو ضرب ظهرك وأخذ مالك بغير حق، وأن من خرج على وليِّ الأمر فمات على ذلك فميتته ميتة جاهلية، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ رَأَى

من أميره شيئاً يكرهه فَلْيَصْبِرْ عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلامات
ميتة جاهلية ، وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن
عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : مَنْ كَرِهَ من أميره شيئاً فَلْيَصْبِرْ ،
فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية ، كما روى البخاري
ومسلم من طريق أبي إدريس الخولاني قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول :
كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن
يُذِرَكْنِي ، فقلت : يا رسول الله إنا كُنَّا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ،
فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نَعَمْ ، قلتُ : وهل بعد ذلك الشر من
خير؟ قال : نعم ، وفيه دَخَنٌ ، قلتُ : وما دَخَنُهُ؟ قال : قومٌ يَهْدُونَ بغير
هَدْيِي ، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ ، قلتُ : فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال :
نَعَمْ ، دُعَاةٌ على أبواب جَهَنَّمَ من أجابهم إليها قَدَفُوهُ فيها ، قلتُ : يا رسول
الله صِفْهُمْ لَنَا ، قال : هم من جِلْدَتِنَا ، ويتكلمون بألْسِنَتِنَا ، قلتُ : فما
تَأْمُرُنِي أن أدركني ذلك؟ قال : تَلْزِمُ جماعة المسلمين وإِمَامَهُمْ ، قلتُ : فإن لم
يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال : فاعْتَزِلْ تلكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، ولو أن تَعْصُ
بأصل شجرة ، حتى يُذَرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك . وفي لفظ لمسلم من
طريق أبي سلام قال : قال حذيفة بن اليمان : قلتُ : يا رسول الله إنا كنا بِشَرٍّ
فجاء الله بخير فنحن فيه ، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال : نعم ، قلتُ :
هل وراء ذلك الشر خير؟ قال : نعم ، قلتُ : فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال
نعم ، قلتُ : كيف؟ قال : يكونُ بَعْدِي أئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ ، وَلَا يَسْتَنُونَ
بِسُنَّتِي ، وسيقوم فيهم رجالٌ ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشياطين في جُثَمَانِ إِنْسٍ ، قال :
قلتُ : كيف أَضْنَعُ يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال : تَسْمَعُ وتُطِيعُ للأمر ،
وإن ضَرَبَ ظَهْرُكَ وَأَخِذْ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ بعد أن بين الله تبارك وتعالى الأساس

الأول للنظام في الإسلام ، وأنه مَبْنِيٌّ على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من المسلمين المتقادين لأمر الله وأمر رسوله ﷺ الدائرين في فَلَكِ الإسلام ، ذكر هنا قاعدة كلية تضبط نظام المسلمين وتحميمهم من التنافر والتشتت والتفرق وتندرج تحتها جميع الجزئيات من الحوادث التي تحدث للمسلمين والتي قد تثير بينهم نزاعاً واختلافاً تختلف بسببه قلوبهم وتختل به وحدتهم ، وتفرق به كلمتهم وأمرهم ، حيث بين عز وجل أنه يتحتم على المسلمين إذا اختلفوا في مسألة من المسائل ألا يقولوا فيها قولاً أو يحكموا فيها بحكم من تلقاء أنفسهم أو اتباعاً لشهواتهم بل عليهم أن يرجعوا في كل مسألة أو فتوى أو حكم إلى كتاب الله عز وجل إن كان حكم المسألة منصوباً فيه ، فإن لم يكن حكم المسألة منصوباً فيه وجب عليهم أن يرجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ إن كان الحكم منصوباً فيها فإن لم يجدوا الحكم منصوباً في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ ردوه إلى القواعد التي دل عليها كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو إلى ما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ أو إلى أهل الحل والعقد من المسلمين القادرين على استنباط الأحكام من أصول الإسلام وقواعده العامة ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ وعليهم أن يضرعوا إلى الله عند الاختلاف ويسألوه أن يهديهم إلى الحق ، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : اللهم ربَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطْرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . وقد وصف الله عز وجل الذين يرجعون

عند الاختلاف إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ بأنهم هم المؤمنون بالله
واليوم الآخر وأنهم سيحمدون العاقبة حيث يقول : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
واليوم الآخر، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي إن التحاكم إلى كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ هو أفضل منهج تنهجه الإنسانية وهو أحسن عاقبة ومآلًا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا.﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى العباد إلى قواعد السياسة الشرعية الرشيدة التي تُسعد البلاد والعباد ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار، حيث يكون مرجعهم في جميع قضاياهم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ مع طاعة ولي الأمر الذي يقودهم بكتاب الله ويسلك بهم هدى النبي ﷺ، وأنهم إن تنازعوا في شيء رُدُّوه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وقد ذكر عز وجل أن هذا المنهج هو خير المناهج على الإطلاق وأنه أحسن الأنظمة في الحال والمآل، شرع هنا في التنديد والتوبيخ والتعجيب ممن يرغب عن هذا المنهج القويم والصراط المستقيم، ويتمرد ويعدل عن شرع الله الحكيم العليم الخبير، ويرغب في التحاكم إلى غير الكتاب والسنة، ويرضى بالانقياد للطاغوت والشيطان، ولو كان هذا المنحرف إلى الطاغوت مبارزاً بالعداوة لله ورسوله مظهرًا للكفر والتكذيب لهان الأمر، لأنه يصير كما قيل في المثل «شَيْشَنَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ أَخْزَمٍ» لكن العجب العجيب أن يصدر هذا ممن يدعي الإيمان بالله وما نُزل على محمد ﷺ من القرآن وما نزل على الأنبياء السابقين. وهذا من أبرز أدلة جهلهم وتناقضاتهم، وأظهر أمارات نفاقهم وتذبذبهم. وظاهر قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

أُنزِلَ من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴿يعم جميع من عدل عن الحكم أو التحاكم بالكتاب والسنة إلى ما سواهما، سواء كان عربياً أو أعجمياً، وسواء كان ما يحكم به أو يتحاكم إليه قانوناً وضعياً، أو شخصاً معيناً أو غير معين، فإن الحكم والتحاكم بالكتاب أو السنة هو الحق وماذا بعد الحق إلا الباطل والضلال، وهو المراد بالطاغوت، فمن حكم أو احتكم إلى غير شرع الله فهو كافر بالله مؤمن بالطاغوت، وقد أمر الله عز وجل جميع المكلفين أن يؤمنوا بالله ويكفروا بالطاغوت وبعث بذلك جميع رسله وسائر أنبيائه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ولا شك أن من لم يرض بحكم الله يكون منقاداً للشیطان، ولذلك ذیل الله عز وجل هذه الآية بقوله تبارك وتعالى: ﴿ويريدُ الشيطان أن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ويحرص الشيطان عدوُّ الناس على إلقاءهم في المهالك، وإبعادهم عن صراط الله المستقيم، وحرمانهم من أسباب هداهم، وصدِّهم عما يسعدهم في العاجلة والآجلة، ومعنى: يزعمون أي يدَّعون زوراً وكذباً، وأكثر ما يستعمل في القول الذي لا تتحقق صحته، والتعبير بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ إشعارٌ بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلاً؟ فذلك لا شك أقبح وأبشع وأعظم جُرمًا وأشدُّ كفرًا، وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُونَ عنك صدودًا﴾ زيادةٌ في بشاعتهم ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى شرع الله بعد بيان إعراضهم عن ذلك برغبتهم في التحاكم إلى الطاغوت وكان مقتضى السياق أن يقال: رأيتهم يصدون عنك صدوداً، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهر حيث قال: ﴿رأيت المنافقين﴾ بدل الضمير لتسجيل صفة النفاق عليهم، وأنهم كذبةٌ في دعوى

الإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله ﷺ، وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا ينحرف عن التحاكم إلى شرع الله إلا الظالمون الذين في قلوبهم مرض، أو المرتابون، أو الذين يسيئون الظن بالله ورسوله ويخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله حيث يقول عز وجل في سورة النور: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ* وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وبهذا يتقرر أشد التقرير أن من يُعرض عن الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يُعرض بسبب عيب في هذا النظام المحكم المتقن الدقيق السوافي الشافي الكافي الصالح لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، وإنما يُعرض بسبب علة في نفسه، ومرض في قلبه، وسوء ظن بالله ورسوله، ولذلك وصفهم الله عز وجل بأنهم الكافرون الظالمون الفاسقون حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كما وصفهم بأنهم يُحبُّون حكم الجاهلية العمياء وأهواءها، ويفضلونها على شرعة ومنهاج أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين حيث يقول عز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْتَعُونَ. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أن الإعراض عن منهاج الله وشرعته يَجْلِبُ للمعرضين مصائب وبلايا ونكبات في العاجلة كما يؤدي بهم إلى عذاب الجحيم في الآجلة حيث يقول هنا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴿١﴾ وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ويُعرضون عن شرعة الله ومنهاجه كيف يكون حال هؤلاء المجرمين إذا أنزل الله بهم بعض العقوبات العاجلة، بسبب إعراضهم عن شرعة الله ومنهاجه، وأحل بهم الذلّة والهوان وجعل للمسلمين العزة والسلطان ثم جاءوك بعد أن أيقنوا أنهم لا طاقة لهم بمعارضة شريعتك، وإظهار العداوة لك، واضطرارهم لمصانعتك، وأخذوا يحلفون بالله كذباً وزوراً أنهم ما يرغبون عن شريعتك تكديماً لك وأنهم إنما تحاكموا إلى ما تحاكموا إليه إحساناً منهم ومداراةً ومصانعةً وتجميعاً للقلوب، وهؤلاء المنافقون الذين يحلفون بهذه الأيمان الكاذبة يحكمون على أنفسهم بأنهم لم تَرُدَّ عَنْهُمْ النَّقْمُ التي حلت بهم، وأنهم مستمرّون على نفاقهم وخبث طويتهم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يَرُدُّ عَنْهُمْ عن النفاق العِبرُ والنَّقْمُ، وأنهم إن تأتاهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم يُنِيبُوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجُرْأَةً على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكمنا فيه إليه اهـ. ولاشك أن عموم المعاصي تجلب على مرتكبيها المصائب والنكبات كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وقد تكون المعصية خاصةً وتصيب أوضاعها العامة كما قال عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تُصِيبَنَّ

الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴿ لكن تهديد الله عز وجل للذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت بما تهّددهم به من إصابتهم بالمصائب والنكبات إشعار للناس بخطورة التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله وبيان لغائلة هذه الجريمة ووخامة عاقبتها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . ﴾ قد تضمنت هذه الآية الكريمة جملة اسمية وثلاث جمل فعلية وقد اشتملت الجملة الاسمية وهي قوله عز وجل : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ على لون من الوعيد الشديد لأولئك المنافقين أي هؤلاء الأبعاد المجرمون لا يخفى على الله عز وجل شيء مما اشتملت عليه قلوبهم من الكفر والكذب والنفاق وسوء الأخلاق والزيغ والضلال وفنون الشر والفساد ولن يفلتوا من عذاب الله إن استمروا على ما هم عليه ولم يُغيّروا ما في قلوبهم ، أما الجمل الفعلية الثلاث وهي قوله عز وجل : ﴿ فأعرض عنهم ، وعظّمهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ فقد رسمت لرسول الله ﷺ أحسن المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين ، فالجملة الأولى وهي قوله عز وجل : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ تطلب من رسول الله ﷺ ألا يعبأ بانحرافهم ونفاقهم وألا ينزعج لما يشاهده من سوء سلوكهم وألا يحزن لما يسمعه منهم وما يراه من إقبالهم على الطاغوت وإعراضهم عن شرعة الله كما قال عز وجل : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ فأعرض عن مَنْ تولى عن ذكرنا ولم يردْ إلا الحياة الدنيا ﴾ أما الجملة الفعلية الثانية فهي قوله عز وجل : ﴿ وعِظْهُمْ ﴾ أي وذكّرهم بما يلين قلوبهم على طريق الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وأنذرهم وخوفهم بأس الله وعقوبته ، ورجبهم فيما أعد الله عز وجل للتائبين

من ذنوبهم الراجعين عن غيهم وضلالهم ، أما الجملة الثالثة من الجمل الفعلية التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة فهي قوله عز وجل : ﴿وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ أي وليكن حديثك معهم ووعظك لهم بالكلام المؤثر الذي يخالط نفوسهم ويستولى على مشاعرهم ، ويأخذ بألبابهم ، والخطاب وإن كان موجهاً لإمام البلغاء وسيد الفصحاء ، من أوتي جوامع الكلم محمد ﷺ فهو إرشاد لجميع الواعظين ، أن يختاروا أبلغ الكلام وأفصحه وأن يتعدوا عن المستهجن الركيك . والبلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، أو هي حُسن العبارة مع صحة المعنى ، من غير إطناب ممل ولا إيجاز مُخل ولذلك قيل : خير الكلام ما قل ودل .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

بعد أن ندد الله عز وجل بمن يدعي الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء ثم يرغب في التحاكم إلى الطاغوت ، وأنذر هؤلاء بمصائب تصيبهم وبلايا تلحق بهم وبكل من يتحاكم إلى الطاغوت إلى يوم القيامة ، وتوعدهم بأنه عز وجل لا تخفى عليه ما انطوت عليه قلوبهم من الشر والفساد ، وأرشد حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ إلى أفضل المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين ، أعلن هنا أنه ما أرسل أحداً من رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم إلا لتحكم أمهم إلى مناهجهم ، وأنه يتحتم على كل من يدعي الإيمان أن يلتزم بطاعة الرسول الذي يكون حظه من الأنبياء ، ثم أشار تبارك وتعالى إلى أنه يفتح باب التوبة أمام من ظلم نفسه بأي نوع من الظلم وبخاصة من أراد التحاكم إلى الطاغوت ، بعد أن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم وأنزل عليه أعظم نظام عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل دقة وعدلاً وشمولاً ووفاء بجميع ما يحتاجه الناس في كل عصر ومصر وجيل وقبيل . وحضَّ عز وجل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بأن يجيئوا إلى رسول الله ﷺ ويُعلنوا توبتهم من الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت ، ويطلبوا من الله عز وجل أن يغفر لهم جريمتهم وأن يتوب عليهم ، ولو فعلوا ذلك لاستغفر لهم رسول الله ﷺ ولوجدوا الله تواباً رحيماً يقبل توبة التائبين وهو أرحم الراحمين . وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية . وإذن الله تبارك وتعالى ينقسم إلى إذن كوني وإذن

ديني شرعي فالإذن الكوني بمعنى قضائه وقدره ومشئته وقدرته ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أي بمشيئته وقدرته وقضائه وقدره . وأما الإذن الديني الشرعي فهو بمعنى ما أذن الله عز وجل به وأباحه وشرعه وأمر به وذلك كقوله عز وجل : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي ما لم يشرعه عز وجل ، وكقوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه ﴾ أي بأمره عز وجل ، وكذلك قوله تبارك وتعالى هنا : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ أي وما بعثنا في أمة من نذير إلا وجبت طاعته على أمته بأمر الله تبارك وتعالى . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لَوْجَدُوا الله تَوَاباً رَحِيماً ﴾ ترغيب وإرشاد وحض لمن ظلم نفسه حيث رَغِبَ في التحاكم إلى الطاغوت أن يتوب من هذه الجريمة وأن يجيء معتذرا عما بَدَرَ منه ويستغفر الله عز وجل من هذه المعصية الموبقة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ واستغفر لهم الرسول ﴾ إذن من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالاستغفار لمن جاءه معتذراً من خطيئته ، ولا شك أن من حصل منه هذا المجيء والاعتذار صادقاً واستغفر له رسول الله ﷺ كان حرياً بتوبة الله عز وجل عليه وعفوه تبارك وتعالى عنه ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ﴾ الآية ، إشعار لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بتقصيرهم في حق رسول الله ﷺ حيث لم يرضوا بالتحاكم إليه ، وصدوا عنه صدوداً ، بأن من جملة توبتهم أن يجيئوا إلى رسول الله ﷺ معتذرين عما بدر منهم في حقه ﷺ ، وفي ذلك كسر لشهوات جموحهم ، وإعزاز لرسول الله ﷺ ، وقد فهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ أن هذا المجيء إلى رسول الله ﷺ خاص بحال حياته صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لا يجيء أحد إلى قبره ليطلب منه الاستغفار له ، ولذلك لم يؤثر بسند

صحيح عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك ، وأما الحكاية المكدوبة المنسوبة إلى العتبي الأخباري المتوفى ٢٢٨ هـ فهي رواية عن أعرابي مجهول ، بنيت على منام ، ومثلها لو كان حديثاً أو أثراً عن صحابي لم يحز الاحتجاج به وبناء الأحكام عليه ولا سيما في الأبواب المؤدية إلى الشرك بالله عز وجل ، على أن الله تبارك وتعالى قد أخبر عن المنافقين الذين كانوا يحيئون إلى رسول الله ﷺ معتذرين عن تخلفهم عن الغزو معه ويطلبون من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم بأنهم لن ينفعهم استغفار رسول الله ﷺ لهم حيث يقول : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ على أن العتبي وهو محمد بن عبيد الله بن عمرو الأموي من ذرية عتبة بن أبي سفيان بن حرب كان أحد شعراء البصرة ولم يكن معدوداً في أهل الحديث وإنما كان من رجال الأدب . وقد وصف ابن عبد الهادي في كتابه الصارم المنكي هذه الحكاية بأنها مختلقة مكذوبة حيث قال : ليست هذه الحكاية مما تقوم به حجة ، وإسنادها مظلم مختلف ، ولفظها مختلف أيضاً ، وقال أيضاً : هذه الحكاية خبر منكر موضوع وأثر مختلق مصنوع ، لا يصلح الاعتماد عليه ، ولا يحسن المصير إليه ، وإسنادها ظلمات بعضها فوق بعض ، وليست بصحيحة ولا ثابتة إلى العتبي ، وقد رُويت عن غيره بإسناد مظلم اهـ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَآ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . هذا قسم من الله عز وجل بأجلِّ مُقَسِّمٍ به وهو نفسه المقدسة بوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد مهما كان إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجاً من أي حكم من أحكامها ، بل يكون تلقّيه له بالقبول والرضى

وانشراح الصدر، وأن يُسلم بذلك تسليماً وينقاد انقياداً، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحاً وسعادة وعدلاً وإنصافاً وحقاً، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: «فلا» فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد — واستأنف القسم جل ذكره فقال: ﴿وَرَبَّكَ﴾ يا محمد — ﴿لَا يَوْمَنُونَ﴾ أي لا يصدقون بي وبك وبما أنزل إليك — ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ فيما شَجَرَ بينهم ﴿يَقُولُ﴾: حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم فيما اختَلَطَ بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه يقال: شَجَرَ شَجْرٌ شُجُورًا وشَجَرًا، وتشاجر القوم إذا اختلفوا في الكلام والأمر مُشَاجَرَةٌ وشِجَارًا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾ في أنفسهم حَرَجًا مَّا قَضَيْتَ ﴿يَقُولُ﴾: لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً مما قضيت، وإنما معناه: ثم لا تخرج أنفسهم مما قضيت — أي لا تأثم بإنكارها ما قضيت، وشكَّها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حقٌّ لا يجوز لهم خلافه اهـ. وقد ثبت في الصحاح أن هذه الآية نزلت في خصومة كانت بين الزبير بن العوام ورجلٍ من الأنصار في شَرْجٍ من شراج الحرة، والشَّرْجُ مَسِيلُ الماء من الحرة إلى السهل، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية تشمل قصة الزبير مع الأنصاري كما تشمل كل ما شجر بين المسلمين من خصومة في أي شيء إلى يوم القيامة، وقد ساقها الله عز وجل على سبيل التعميم حيث قال: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وما من أدوات العموم، وقد روى البخاري في الشَّرْبِ ومسلم في الفضائل من طريق الليث عن ابن شهاب عن عروة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سَرَّحَ الماءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عليه، فاخْتَصَمَا عند النبي ﷺ،

فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ يازبيرُ ثم أرسل الماء إلى جارك، فغَضِبَ الأنصاريُّ فقال: أُنْ كان ابن عمك؟ فَتَلَوْنَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسقِ يازبيرُ ثم احسبِ الماء حتى يَرْجِعَ إلى الجدر، فقال الزبير: والله إني لأحسبُ هذه الآية نَزَلَتْ في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يَحْكُموكَ فيما شجر بينهم﴾ وقد أخرجه البخاري في باب شربِ الأعلى إلى الكعبين من طريق ابن جريج قال: حدثني ابن شهاب عن عروة بن الزبير أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبيرَ في شِراجٍ من الحرة يسقى بها النخل، فقال رسولُ الله ﷺ: اسقِ يازبير، فأمره بالمعروف، ثم أُرْسِلَ إلى جارك، فقال الأنصاريُّ: أُنْ كان ابن عمك؟ فَتَلَوْنَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسقِ ثم احسبِ حتى يرجعَ الماءُ إلى الجدر، واستوعى له حقُّه، فقال الزبير: والله إنَّ هذه الآية أنزلت في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يَحْكُموكَ فيما شجر بينهم﴾، قال لي ابن شهاب: فَقَدَرْتُ الأنصارُ والناسُ قولَ النبي ﷺ: اسقِ ثم احسبِ حتى يرجعَ إلى الجدر، وكان ذلك إلى الكعبين. الجدرُ هو الأصل. كما أخرجه البخاري في الصلح في باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حَكَمَ عليه بالحكم البين من طريق شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير أنَّ الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بداراً إلى رسول الله ﷺ في شراجٍ من الحرة كانا يسقيان به كِلَاهُما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ يازبير ثم أُرْسِلَ إلى جارك، فغَضِبَ الأنصاريُّ، فقال: يارسولَ الله أُنْ كان ابن عمك؟ فَتَلَوْنَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسقِ ثم احسبِ حتى يبلغَ الجدر، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴿ الآية . وأخرجه البخاري في التفسير من طريق مَعْمَرٍ عن الزهري عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شريح من الحرة فقال النبي ﷺ : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال الأنصاري يارسول الله أن كان ابن عمك فتلون وجهه ثم قال : اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر ثم أرسل الماء إلى جارك ، واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة ، الحديث وقد صرح البخاري في التاريخ الكبير ومسلم في كتاب التمييز بسماع عروة من أبيه . وقد أشرت أنفاً إلى أن نزول هذه الآية في خصومة الزبير والأنصاري رضي الله عنهما لا يمنع من أن حكمها عام ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيَّتًا. وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا.﴾

بعد أن أقسم عز وجل بذاته المقدسة مُعْنُونًا بربوبيته لسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ أنه لن يؤمن أحدٌ من المكلفين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ حتى يكون حكمه أو احتكامه محصوراً في شريعة محمد ﷺ وأن ينشرح صدره لجميع التعاليم والأحكام التي جاء بها رسول الله ﷺ، وأن ينقاد لذلك انقياداً ويسلم تسليماً، أشار هنا إلى فضله على أمة محمد ﷺ حيث لم يجعل فيما شرعه لهم إصرًا ولا أغلالاً، بل أراد بهم اليُسْر ولم يرد بهم العسر، مع أن شأن العبد أن يكون في طاعة ربه، وأن يُسارع إلى امتثال أمره، حتى لو أمره بقتل نفسه أو الخروج من داره، لأن في طاعة العبد لربه فاطر السموات والأرض سعادة لا يحيط بها وصف الواصفين من عز الدنيا ونعيم الآخرة، حيث يقول عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيَّتًا.﴾ أي ولو أننا فرضنا عليهم وأمرناهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم وأرضهم ما استجاب لذلك وسارع إلى امتثال أمر الله عز وجل إلا القليل من الناس ممن قد شرح الله صدورهم للإسلام وانقادوا لأمر الله فرخصت عليهم أنفسهم وأوطانهم في سبيل مرضاة ربهم، أما من استهواه الشيطان من الناس وهم كثير فإنه يصعب عليهم الامتثال لأمر الله ولا سيما إذا

كان الأمر شاقاً كقتل النفس أو الهجرة من الوطن ، مع أن هؤلاء لو سارعوا إلى امتثال أمر الله مهما كان ، وفعلوا ما يوعظون به من متابعة محمد رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهراً وباطناً لكان ذلك خيراً لهم في عاجلتهم وآجلتهم وديناهم وأخراهم حيث يكتسبون الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحيث يؤدي رضاهم بشريعة محمد ﷺ إلى أمنهم واستقرارهم في ديارهم وأرضهم وما يُسبب ذلك لهم من رغد العيش والحياة الطيبة كما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيئاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النِّعَمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَالْوَلِيُّ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا . ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ الآية إشعار بفضل الله على أمة محمد ﷺ حيث لم يأمرهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم بل كُلُّ أوامر الله عز وجل لأمة محمد ﷺ جاءت بالتيسير ولم تأت بالتعسير ، وَرَفَعَ عز وجل عن هذه الأمة الإصرَ والأغلال التي كانت على الأمم السابقة ، فكيف يليق بعاقل أن يعدل عن التحاكم إلى هذه الشريعة العظيمة المشتملة على خير الدنيا والآخرة ويرغب في التحاكم إلى الطاغوت؟ وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا

مُسْتَقِيمًا . ﴿ هذا بيان لمزيد فضل من الله عز وجل لمن فعل ما يوعظ به ، فانقاد واستجاب لأمر الله ونهيه ، وأقر بوعده ووعيده والتزم بأحكام الشريعة الإسلامية وكَفَرَ بالطاغوت ، وأيقن أن منهج الله هو خير المناهج ، وأن تشريعه الذي بعث به خاتم أنبيائه وأفضل رسله هو أفضل تشريع وأكمله وأتمه وأصدقه ، فبعد أن أخبرهم بأن الانقياد لأمر الله وأمر رسوله ﷺ سبب لخيرهم في دينهم ودنياهم وأشد تثبيتاً لهم على الحق وتحقيقاً لإيمانهم ، وقوة لعزائمهم وإراداتهم ، وثباتاً لقلوبهم عند مقارعة جيوش الباطل ، وورود الشبهات والشهوات المضلة ، ودسائس الشيطان المردية ، مما يضيء للسالكين إلى الله عز وجل سبيل سلوكهم ، ويضع لهم منارات على طريق مسيرتهم ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحُ المصباحُ في زجاجة الزُّجَاجَةِ كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، نور على نور ، يَهْدِي اللهُ نوره مَنْ يشاء ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناس ، والله بكل شيء عليم . ﴾ فطاعةُ الله وطاعة رسوله ﷺ هي سببُ ثباتِ القلبِ وقوةُ إرادته ونفاذ بصيرته . بعد ذلك كله أخبرهم تبارك وتعالى بقوله عز وجل : ﴿ وإذا لأتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً . ﴾ فَبَيَّنَ عز وجل بذلك أنه زادهم من فضله ثوابين آخرين على الانقياد لأمر الله وأمر رسوله ﷺ وهما حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة ، وهدايتُهُم الصراط المستقيم حيث يجعل الله لهم على الصراط يوم القيامة نوراً ويُيسر لهم الورد والعبور من فوق الجسر المضروب على ظهر جهنم بعد انتهائهم من الموقف العظيم ، ويمرون عليه بقدر نورهم ، فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطي دون ذلك

حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة حيث يعطى كل إنسان نوره على قدر عمله، والصراط كحد السيف، دحض مَزَلَّةٌ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري في سؤالهم رسول الله ﷺ: هل نرى ربَّنَا يوم القيامة. الحديث، وفيه: ثم يؤتى بالجسر، فيُجعل بين ظَهْرِيْ جَهَنَّمَ، قلنا يارسول الله، وما الجسر؟ قال: مَدْحَصَةٌ مَزَلَّةٌ، عليه خطا طيفٌ وكلايبٌ وحسكةٌ مُفْلَطْحَةٌ لها شوكَةٌ عَقِيفَاءُ تكون بنجد يقال لها: السَّعْدَانُ، المؤمنُ عليها كالطَّرْفِ، وكالْبَرْقِ، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فتأج مُسَلَّمٌ، ونأج مخدوشٌ، ومكدوشٌ في نار جهنم، حتى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا. الحديث. وفي لفظ لمسلم: قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.﴾ هذا بيان لمزيد فضل الله تبارك وتعالى على من أطاع الله وأطاع رسوله محمدا ﷺ حيث بشرهم عز وجل هنا ببشارة عظمى وفرحة كبرى وهي أن يجعلهم في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من نبي يَمْرُضُ إلا خَيْرٌ بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قُبِضَ فيه أخذته بُحَّةٌ شديدةٌ فَسَمِعْتُهُ يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فعلمتُ أنه خَيْرٌ. وهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل السعادة الكاملة التي يجب على كل من يحب الخير لنفسه أن يضرع إلى الله أن يحشره في زمرة، ولذلك كان بعض أصحاب محمد رسول الله ﷺ يلحُّ على رسول الله ﷺ في أن يسأل الله له أن يجعله رفيقاً

له في الجنة فقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي سلمة قال : حدثني ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بِوُضُوئِهِ وحاجته ، فقال لي : سَلْ ، فقلت : أسألك مُرَافَقَتَكَ في الجنة ، قال : أو غير ذلك قلتُ : هُوَ ذاك ، قال : فَأَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود ، وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد ابن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا عبد الله بن عمران حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي ، وأحبُّ إليَّ من أهلي ، وأحبُّ إليَّ من ولدي ، وإني لأكونُ في البيت فأذكركَ فما أَصْبِرُ حتى آتيكَ فأنظرَ إليك ، وإذا ذكرتُ موتي وموتَكَ عرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة خَشِيتُ ألا أراك ، فلم يَرُدُّ عليه النبي ﷺ حتى نَزَلَتْ عليه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقا . ﴾ وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمران العابدي به ، ثم قال : لا أرى بإسناده بأسا ، والله أعلم اهـ . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال : متى الساعة ؟ قال : وماذا أعددت لها ؟ قال : لا شيء إلا أني أحبُّ الله ورسوله ﷺ ، فقال : أنت مع من أُحِبُّ ، قال أنس : فما فَرِحْنَا بشيءٍ فَرَحْنَا بقول النبي ﷺ : أنت مع من أُحِبُّ ، قال أنس : فأنا أحبُّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء

رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : كيف تقول في رجل أَحَبَّ قومًا، ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ : المرء مع من أَحَبَّ . كما روى البخاري من حديث أبي موسى قال : قيل للنبي ﷺ : الرجلُ يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال : المرء مع من أَحَبَّ . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، متى الساعة؟ قال : ما أعددت لها؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاةٍ ولا صوم ولا صدقة ولكني أَحَبُّ الله ورسوله ، قال : أنت مع من أَحَبَّ . ومعنى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ أي ونعمت الصحبة والرفقة مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة بالاستمتاع فيها برؤيتهم وزيارتهم وإن كان مقرهم في الدرجات العلى بالنسبة إلى غيرهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي إن هذا الأجر الجزيل والثواب الجميل هو من محض فضل الله وجوده على هؤلاء وهو عليم بنوايا عباده وأعمالهم ، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخَلُ أحدًا الجنة عملُهُ ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا . وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا . فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .﴾

بعد أن مهد الله تبارك وتعالى ببيان أن شأن المؤمن أن يسارع إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مهما كان الأمر الشرعي الموجه إليه حتى ولو كان هذا الأمر يطلب منه أن يقتل نفسه أو يخرج من داره وأرضه ، وذكر الأجر الجزيل والثواب الجميل الذي يثيب الله تبارك وتعالى به من أطاع الله وأطاع رسوله ﷺ في المنشط والمكره والعسر واليسر، أمر المؤمنين هنا بأن يأخذوا حذرهم ويتأهبوا لعدوهم المجاهر المبرز بالعداوة ، ولعدوهم المنافق الذي يدعي الإيمان ، ويبطن الكفر والعداوة لله ولرسوله وللمؤمنين حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا .﴾ أي يا أيها المستجيبون لله ولرسوله ﷺ احترزوا من عدوكم وتأهبوا له وكونوا على استعداد لملاقاته ، متيقظين لتحركاته ، وانفضوا لقتال عدوكم واخرجوا لحربه إما ثبات أي جماعات متفرقة سرية بعد سرية وفرقة بعد فرقة وإما جميعاً أي مجتمعين كوكبة واحدة وجيشاً كثيفاً على الوجه الذي يستنفركم إمام المسلمين به كما قال عز وجل : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال البخاري في صحيحه : باب وجوب النفير ، وما يجب من الجهاد والنية ،

وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. لو كان عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وسيحلفون بالله﴾ الآية، وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ.﴾ إلى قوله: ﴿على كل شيء قدير﴾ ويذكر عن ابن عباس: ﴿انْفِرُوا ثَبَاتٍ﴾ سرايا متفرقين، يقال أحْدُ الثَّبَاتِ ثُبَّةٌ أهـ والمقصود هو حض المسلمين على المبادرة إلى طاعة الإمام والخروج لقتال العدو على الوجه الذي يرى فيه الإمام مصلحة للمسلمين حتى ولو أمر الواحد منهم بالخروج وحده وجب عليه المبادرة إلى طاعته كما قال قريط بن أنيف العنبري:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهْم طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانًا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النابات على ما قال برهانا
وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَأْلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا.﴾ بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين في الآية السابقة بأن يأخذوا حذرهم حذرهم هنا ونبههم إلى وجود أشخاص بينهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ويندسون في جماعة المسلمين وهم منافقون يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وسوء الظن بالله ورسوله ﷺ التماساً للحصول على بعض المغانم العاجلة فقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإن من الموجودين في جماعتكم أيها المسلمون لمن ليتأخرون عن الجهاد وليتأقلن عن الخروج للقتال، وليحضن غيره من ينقاد له ويستجيب لرأيه على التباطؤ والتأخر والتخلف عن الخروج معكم لملاقاة عدوكم كما فعل عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول رأس

المنافقين يوم أحد، ثم بين الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين يتذبذبون بين الشهادة بكم إن أصابتكم مصيبة وكانت الدولة في المعركة لعدوكم، وتباهوا بأن الله قد أنعم عليهم حيث لم يشهدوا المعركة، وجهلوا أن من شهد المعركة من المؤمنين إن عاش عاش حميداً وإن مات مات شهيداً أما هؤلاء المنافقون فمن عاش منهم عاش خائفاً مذعوراً يحسبون كل صيحة عليهم، ومن مات منهم على نفاقه فإنه يكون في الدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيراً، أما في حالة انتصاركم في المعركة وصيرورة الدولة لكم على أعدائكم فإن هؤلاء المنافقين يعضّون عليكم الأنامل من الغيظ، ويلعنون المرء من الندم، ويتحسرون على فوات فرصة مشاركتهم لكم في الغنائم، ويعتبرون أن الحصول على الغنيمة هو الفوز الأكبر والحظ العظيم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شُهَدَاءَ وَلَوْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كُنْتُمْ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. ومعنى: ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي إذ لم أحضر المعركة وأشهداها مع المؤمنين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جملة اعتراضية بين القول ومقوله لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم على عدوهم، وإنما تمنى معية المؤمنين لشدة حرصه على حطام الدنيا والحصول على المال الذي هو أكبر همه وغاية قصده ومنتهى أمنيته. والمراد بالمودة هنا ما يتزلف به المنافقون للمؤمنين في وقت السلم، وما يقولونه لهم من معسول الكلام ويحلفون لهم بالله إنهم منهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾. بعد أن ندّد عز وجل بالمنافقين الذين ليس لهم هم إلا حطام الحياة الدنيا، وأن هذا هو السبب الذي يحملهم على التخلف عن رسول الله ﷺ، حصّ المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله على الجهاد في سبيل الله

وقتل أعداء الله لإعلاء كلمة الله ، وبيّن أن الذين يشرون الحياة الدنيا أي يبيعونها لله عز وجل ويشترون الجنة من ملك الدنيا والآخرة هم الذين يحرصون على القتال في سبيل الله كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . ﴾ وفي التعبير بقوله : ﴿ يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ إشعاراً بأن المؤمن الحق قد تعلقت همته بنصرة دين الله سواء كانت الدولة في المعركة له أو كانت عليه ، ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم لا يتباهون بالنصر ولا يذلّون عند الهزيمة ، كما قال كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» :

إن الرسولَ لنورٍ يستضاء به	مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلّو
في عصبة من قريش قال قائلهم	بيطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشفٌ	عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل
شُمُ العرانيين أبطالٌ لبؤسهمو	من نسج داود في الهيجا سرايل
بيضُ سوابغٍ قد شكَتْ لها حِلَقُ	كأنها حِلَقُ الفُفْعَاءِ مَجْدُولُ
ليسوا مفاريحٍ إن نالت رماحهمو	قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وكما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

نَسْمُو إذا الحربُ نَالَتْنا مَخَالِبُهَا	إذا الزعانفُ من أظفارها خَشَعُوا
لا يَفْخَرُونَ إذا نَالُوا عَدُوَّهُمْو	وإن أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا هلع

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ومن يجاهد أعداء الله لإعلاء كلمة الله فإن له عند الله أجراً عظيماً سواء انتصر على أعدائه ، وفاز بالغنيمة مع هذا الأجر العظيم أو

جرح أو قتل في سبيل الله فقد روى البخاري ومسلم من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخْرِجْهُ إِلَّا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع مال من أجر أو غنيمة. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تَضَمَّنَ اللَّهُ مَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، والذي نفس محمد بيده ما مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمٍ، لَوْهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، والذي نفس محمد بيده لولا أَنْ يُشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدَتْ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَخْلِيهِمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيُشَقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. كما روى البخاري من حديث عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَا اغْبَرَّتْ قَدَمًا عَبْدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ.

قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا . الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا .﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيله وأشار إلى أن طُلاب الجنة الزاهدين في الدنيا هم الذين من دأبهم وديدهم الحرص على المسارعة لقتال أعداء الله ، وذكر ما أعدّه لمن خرج مجاهدًا في سبيل الله من جزيل الأجر وعظيم الثواب ، وجّه الخطاب بطريق التعجيب والتأنيب والإنكار والتوبيخ لمن لم يسارع إلى الانخراط في سلك جند الله ، بأسلوب يتضمن الحُصّ الشديد والتوكيد البالغ على وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله واستنقاذ المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والصبيان الذين حُبسوا بمكة ولم يتمكنوا من الهجرة والخروج منها إما لصد المشركين لهم وتضييقهم عليهم وإما لضعفهم عن الهجرة ، وكأنه عز وجل يقول : أي عذر لكم في ترك القتال؟ وكيف لا تسارعون إلى تخليص ضعفة المسلمين من أذى المشركين؟ وهل يرضي مسلمٌ صادقُ الإيمان أن ينام قرير العين وإخوانه من رجال ونساء وأطفال يتعرضون للأذى والقهر من أعداء الله بمكة شرفها الله؟ وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا .﴾ أي لا عذر لكم في ترك مقاتلة المشركين لإعلاء كلمة الله ولترفعوا الضيم عن المسلمين المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان الذين يسومهم مشركو مكة

سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدين، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَمَالِكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَا تَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وفي ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ يقول: عن المستضعفين منكم ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، فأما من ﴿الرِّجَالِ﴾ فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فغلبتهم عشائهم على أنفسهم بالقهر لهم، وأذوهم، ونالوهم بالعذاب والمكارة في أبدانهم ليفتنوهم عن دينهم، فَحَضَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اسْتِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَيْدِي مَنْ قَدْ غَلِبَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصددهم عن دينهم؟ ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ جمع ولد، وهم الصبيان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضعفهم من المشركين: ياربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، والعرب تسمى كل مدينة «قرية» اهـ. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بهذه القرية هنا مكة شرفها الله، والموصوف بالظلم في الحقيقة هنا هم أهل مكة المشركون لا مكة قدسها الله، لأنهم ارتكبوا أفحش الظلم وأعظمه وهو الشرك بالله الذي وصفه الله عز وجل بأنه ظلم عظيم حيث قال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، كما أنهم ارتكبوا ظلماً بشعاً كذلك حيث يؤذون ويظلمون الرجال والنساء والصبيان الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وذكر الولدان بعد الرجال والنساء لتهييج المؤمنين وحثهم الشديد على المسارعة لتخليصهم من أيدي الكفرة الفجرة وللتقبيح والتشنيع على المشركين الذين بلغ أذاهم وظلمهم الأطفال غير المكلفين إرغاماً لأبائهم وأمهاتهم، وجر لفظ «الظالم» تبعاً للقرية على القاعدة المعروفة عند علماء

قواعد اللغة العربية بالنعى السببي وقد أخبر ابن عباس رضي الله عنهما أنه هو وأمه كانا من المستضعفين المقصودين في هذه الآية الكريمة فقد قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء﴾ الآية حدثني عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن عبيد الله قال : سمعتُ ابن عباس قال : كنتُ أنا وأمي من المستضعفين . حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مُليكة أن ابن عباس تَلَا : ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال : كنتُ أنا وأمي ممن عَذَرَ الله اهـ وقد سَمَى رسول الله ﷺ جملة من المستضعفين بمكة حيث كان يدعو على قريش ويقنت لتخليص المستضعفين من أيدي المشركين فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال قبل أن يسجد : اللهم نَجِّ عِيَّاشَ بن أبي ربيعة ، اللهم نَجِّ سَلَمَةَ بن هشام ، اللهم نَجِّ الوليدَ بن الوليد ، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مَضَرَ ، اللهم اجعلها سنينَ كَسِينِي يُوسُفَ . وفي رواية لمسلم من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف أنهما سمعا أبا هريرة يقول : كان رسول الله ﷺ يقول حين يَفْرُغُ من صلاة الفجر من القراءة وَيُكَبِّرُ ويرفع رأسه : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ثم يقول هو قائم : اللهم أَنْجِ الوليدَ بن الوليد وسلمة ابن هشام وعِيَّاشَ بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مَضَرَ واجعلها عليهم سنينَ كَسِينِي يوسف ، الحديث . وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة أن أبا هريرة حَدَّثَهُم أن النبي ﷺ قنت بعد الركعة في صلاة شهر إذا قال : سمع الله لمن حمده يقول في قنوته : اللهم أَنْجِ الوليدَ ابنَ الوليد ، اللهم نَجِّ سلمة بن هشام ، اللهم نَجِّ عِيَّاشَ بن أبي ربيعة ،

اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم
 اجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف . الحديث . وفي رواية للبخاري من
 طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي سلمة بن عبد الرحمن
 قالا: وقال أبو هريرة رضي الله عنه : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه
 يقول : سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، يدعو لِرَجَالٍ فَيُسَمِّيهِمْ
 بأسمائهم فيقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي
 ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر واجعلها
 عليهم سنين كسني يوسف، وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له، وفي
 لفظ للبخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه
 من الركعة الآخرة يقول : اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة
 ابن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من
 المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كَسِني
 يوسف . وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد عن أبي هريرة قال : لما رفع النبي
 ﷺ رأسه من الركعة قال : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام
 وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدّد وطأتك على مضر،
 اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وفي لفظ للبخاري من طريق أبي
 سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا قال : سمع الله لمن حمده في الركعة
 الآخرة من صلاة العشاء قنت : اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج
 الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج المستضعفين من
 المؤمنين، اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِني
 يوسف . وفي قوله عز وجل : ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية
 الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ إشعارٌ
 ببيان تبرم المستضعفين من المقام بين ظهرائي المشركين، وحرصهم على الخروج

من مكة مادام أهلها ظالمين ، وتضرّعهم إلى الله عز وجل أن ييسّر لهم ولاية صالحين يصونون لهم حرمتهم وكرامتهم ، ويتمكنون في ظلهم من إقامة شعائر دينهم ، ولا شك أن هذه الصفات التي وصف الله عز وجل بها هؤلاء المستضعفين تفيد أنهم معذورون في ترك الهجرة وأنهم ليسوا ظالمين في مقامهم بمكة تحت ولاية المشركين ، لأنهم لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا كما قال عز وجل : ﴿ إِن الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُرَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فَقاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ هذا تهيج آخر للمؤمنين وحض لهم على القتال في سبيل الله ببيان أنهم يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، وأن أعداءهم يقاتلون في طاعة الشيطان ، وإن الله مؤيدٌ حزبه وناصرهم وإن الشيطان ليعجز أن يقاوم كيد الله وتدبيره ، فهو يهرب لمجرد سماعه ذكر الله ويخنس ، ومن أمثلة هربه من أوليائه ما حدث يوم بدر إذ أخذ يمني أوليائه ويعددهم فلما تراء الجمعان خذل أوليائه وفر عنهم ، كما قال عز وجل ﴿ وَإِذْ زَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِي آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ﴾ دليل على أن كل من قاتل في غير سبيل الله فهو مقاتل في سبيل الطاغوت وأن كل من قاتل في سبيل الطاغوت فهو مقاتلٌ تحت لواء الشيطان المقهور

المدحور عياذاً بالله منه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونِ يُفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . ﴿

بعد أن حرّض الله تبارك وتعالى المؤمنين على القتال في سبيل الله وهوّن عليهم لقاء أولياء الشيطان أشار هنا إلى ما كان يتمناه المؤمنون من فرض القتال قبل أن يُفرض عليهم ، ويطلبون من رسول الله ﷺ وهم بمكة أن يأذن لهم بالميل على أعدائهم بالسيوف ، وأن رسول الله ﷺ كان ينهاهم عن ذلك ويقول : لم نؤمر بقتال ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وكان ذلك لحكمة سديدة رشيدة حيث لم يكن القتال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم . ومنها أنهم كانوا في البلد الحرام الذي حرّم الله القتال فيه منذ خلق السموات والأرض ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار للمسلمين دولة وأنصار ومنعة أذن الله عز وجل لهم بالقتال ، فلما فرضه الله تبارك وتعالى انزعج لذلك المنافقون الذين في قلوبهم مرض وكرهوا ذلك كراهة شديدة ، كما قال عز وجل : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

معروف ﴿١﴾ وقد قال ابن إسحاق حدثني معبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن
 كعب حدثه أن أباه كعب بن مالك حدثه في قصة بيعة العقبة الثانية قال :
 فلما بايعنا رسول الله صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته
 قط : يا أهل الجبابب — والجبابب : المنازل هل لكم في مُذَمَّم والصُّبَاة
 معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم ، قال : فقال رسول الله ﷺ : هذا أرب
 العقبة ، هذا ابنُ أَرْيَب ، أسمع يا عدو الله ، أما والله لأفرغنَّ لك ، قال : ثم
 قال رسول الله ﷺ : ارفضوا إلى رحالكُم ، فقال له العباس بن عبادَةَ بن
 نضلة : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيا فانا .
 فقال رسولُ الله ﷺ : لم نُؤمَرْ بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكُم ، ولا شك أن
 قوله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق
 منهم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ظاهرٌ في أن هذا الفريق كان
 من المنافقين لأن المؤمنين الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ لا ينطبق عليهم هذا
 الوصف بحال أبداً ، وقد جاء النص في آية سورة محمد على أن الذين في
 قلوبهم مرض هم الذين خافوا عندما فرض القتال خوفاً شديداً ، وخير ما
 يُفسَّرُ القرآن هو القرآن ثم سنة رسول الله ﷺ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ألم تر إلى
 الذين قيل لهم كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
 القتال إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ الآية ، قد
 جاء هذا النص الكريم على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع
 بالاستخدام وهو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما ثم يذكر ضميره
 أو إشارة له أو لفظه بمعناه الآخر فقد ذكر عز وجل هنا أولاً الراغبين في
 الجهاد وقد مُنعوا منه حيناً من الدهر ثم ذكر الذين كادت قلوبهم تنخلع
 جزعاً لما فُرض القتال ، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي خلقكم
 من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً

خفيفا فمرت به فلما أثقلت دَعَوْا الله رَبَّهما لئن آتيتنا صالحا لنكوننَّ من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون . أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . ﴿١﴾ إذ المراد بقوله : ﴿١﴾ خلقكم من نفس واحدة ﴿٢﴾ هو آدم ، وأن المراد بزوجه في قوله : ﴿٢﴾ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴿٣﴾ هي حواء ، أما قوله عز وجل : ﴿٤﴾ فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ﴿٥﴾ إلى آخر الآيات فهو انتقال واستطراد بعد ذكر آدم وزوجته إلى ذكر الجنس والذرية . وهو شبيه كذلك بقوله تبارك وتعالى : ﴿٦﴾ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ﴿٧﴾ فال مخلوق من الطين آدم والمخلوق من النطفة بنوه وذريته . وهو كذلك شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿٨﴾ ولقد زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . ﴿٩﴾ فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها . وهذا الأسلوب من المحسنات البلاغية البديعية المعنوية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿١٠﴾ يخشون الناس كخشية الله أو أشدَّ خشية ﴿١١﴾ إشعار بأن هذا الخلق لا يصدر من مؤمن بالله عز وجل فَإِنَّ خشية الناس كخشية الله أو أشد نظير من اتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، وإذا كان من أحبَّ غير الله كحبه لله صار وثنيا فلا شك أن من كان يخشى غير الله كخشية الله أو أشد يعتبر أعمق في الوثنية ممن أحب غير الله كحبه لله . وليس قوله عز وجل : ﴿١٢﴾ وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ﴿١٣﴾ دليلا على أنهم مؤمنون لقولهم : ﴿١٤﴾ ربنا ﴿١٥﴾ لأن الكفار والمنافقين يقولون بالله ولكنهم يشركون به كما قال عز وجل : ﴿١٦﴾ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع وربُّ العرش العظيم . سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل مَنْ بيده ملكوتُ كُلِّ شَيْءٍ وهوَّ يَجِيرُ ولا يجازُ عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى

تُسَحَّرُونَ . ﴿ ولها نظائر كثيرة في كتاب الله الكريم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . ﴾ أي وقال هؤلاء المنزعجون المذعورون بسبب فرض الجهاد : يا ربنا لم فَرَضْتَ علينا القتال هلا أخرت إيجابه علينا لنتمتع بالحياة ونموت على فرشنا ؟ فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : متاع الدنيا قليل ، فلن تخلدوا فيها ، فلو انقذتم لأمر الله ، واستجبتم لما يشرعه لكم ، ورضيتم به صرتم من جملة المتقين الذين أعد الله لهم المتاع الدائم الأبدي السرمدي الجزيل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يقاس نعيم الدنيا الزائل القليل بمتاع الآخرة الدائم الكثير ، والآخرة خير لمن اتقى ولا يظلم أحدٌ من عمله الصالح مثقال أو مقدار فتيل ، كما لا يُحْمَلُ أحدٌ غير ما عمل من السيئات مقدار أو مثقال فتيل ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أينما تكونوا يذكركم الموت ولو كنتم في بروج مُسَيَّدَةٍ ﴾ أي إن الموت الذي تفرون منه ، وتكرهون فرضية القتال خوف نزوله بكم ، وأصبحتم من أجله تخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية هو مُذْرِكُكُمْ لا محالة على الصفة التي قضاها في الأزل أحكم الحاكمين وربُّ العالمين سواء كنتم في بيوتكم أو في المعارك والحروب ، أو في جو السماء ، أو على متن الماء فلا تظنوا أن خوفكم من الموت يُبعده عنكم فلو كنتم في قصور منيعة وحصون حصينة وقلاع متقنة وبروج عالية شاهقة محكمة لا تنالها الرماح ، ولا تقدر على تدميرها آلات الحرب فإن الله عز وجل يتوفاكم على الصفة التي قضاها عليكم من موت أو قتل ، كما قال عز وجل : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ ، والله در الشاعر إذ يقول :

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وكم من الأبطال خاضوا غمار المعارك الطاحنة كسعد بن أبي وقاص وخالد ابن الوليد الذي يؤثر عنه أنه قال عند موته : لقد شهدت كذا وكذا موقعا وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا ذا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء . وقد جاء في البخاري عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد قال : لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما صبرت معي إلا صحيفة يمانية اهـ . فالحرص على الجهاد لا يُقَرَّب أجلا بعيدا ، والخوف والهرب من القتال لا يُبْعَد أجلا قريبا كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَتُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي وإن يُصِيب هؤلاء الرعايد رخاء وسلامة وصحة في أبدانهم قالوا : هذه من عند الله وإن يُصِيبْهُمْ جَدْبٌ وقحط ونقص في الثمار والزروع أو غير ذلك مما لا يفرحون به قالوا : هذه المصيبة جاءتنا بسبب انقيادنا لك واتباع دينك ، ولا شك أن هذا لا يصدر من مؤمن يؤمن بالله ورسوله . وليس قولُهُمْ : هذه من عند الله دليلاً على إيمانهم بالله إذ لو آمنوا بالله ما طعنوا على رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ وما أساءوا الظن به وما تشاءموا من بعثته ﷺ التي كانت أيمن بعثة عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل المديد ، ولكنهم نهجوا منهج من سبقهم من الكفار الذين تشاءموا من رسلهم عليهم السلام كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطِروا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ وكما ذكر عز وجل عن قوم صالح : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين : كل ما أصاب الإنسان من خير أو غيره فهو بقضاء الله وقدره ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لكن هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أدب الحديث والتأدب في نسبة الأشياء

إلى الله عز وجل ، ثم عَرَفَهُمْ فقه الحديث وأدب الخطاب فقال : ﴿ ما أصابك من حسنة فَمِنْ الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي ينبغي لمن عرف الأدب مع الله عز وجل أن يقول عندما يصيبه خير: هذا من عند الله وجوده وفضله ، وأن يقول عندما يصيبه شر: هذا بسبب تقصيري في حق الله عز وجل وبسبب سيئاتي وذنوبي ، كما قال عز وجل : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ هو مواساة لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من أذى الكافرين والمنافقين وإعلام للناس أن محمداً رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وقد أدى الرسالة على أكمل وجه ، وكفى بالله شهيداً .

قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا . وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض دسائس المنافقين وفَضَحَهُمْ في سلوكهم المعوج وأخلاقهم القبيحة التي يعاملون بها أكرم خلق الله محمداً ﷺ حيث كانوا إذا أصابتهم سيئة قالوا : هذه من عندك أي بسببك مع أن سفارته ﷺ كانت أيمن سفارة للإنسانية كلها بل كانت خيراً حتى للحيوانات العجماوات التي كَرَّرَ الوصاة بها والإحسان إليها في سكرات الموت ﷺ حيث كان يقول : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم . وقد كان هؤلاء المنافقون قد وقعوا تحت التأثير اليهودي الخبيث في التفريق بين الله ورسوله حيث قالوا نؤمن بالله ونكفر بمحمد وعيسى عليهما السلام وأراد المنافقون تقليد اليهود في ذلك حيث أظهروا أن الحسنة التي تصيبهم تكون من الله وأن السيئة التي تصيبهم تكون من الرسول ﷺ ، بين عز وجل هنا أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله عز وجل ، فمن ادَّعى الإيمان بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فهو كاذبٌ في دعوى الإيمان بالله حيث قال عز وجل هنا : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من ادَّعى الإيمان بالله وكفر بالرسول ﷺ فهو كافر حقاً وأن الله عز وجل قد أعدَّ له عذاباً مهيناً حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْتَوْنَ أَجْرًا مِمَّا يَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ فِي عَذَابٍ مُنِيرٍ﴾

بين الله ورؤسلي ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين
 ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً.
 والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحد منهم أولئك سوف يُؤْتِيهِمْ
 أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً. ﴿وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 عَلَيْهِمْ حَفِظًا. ﴿هذه مواساة لرسول الله ﷺ ووعيدٌ وتهديدٌ لهؤلاء المنافقين
 ومن سلكوا طريقهم من اليهود وسائر من أعرض عن دين محمد ﷺ ببيان أن
 رسول الله ﷺ قد بلغ البلاغ المبين وليس عليه إلا البلاغ، وليس بمصيطر
 على قلوب الناس فيهدي من أراد، بل قلوبُ العباد بيد فاطر السموات
 والأرض وهو الحفيظ على أعمال جميع عباده والمهيمن على سائر خلقه، كما
 قال عز وجل: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿لَسْتَ
 عَلَيْهِمْ بِمَصِيطِرٍ. إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ.﴾ وكما قال
 عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدٍ.﴾ ولذلك
 ذيل الله تبارك وتعالى الآية السابقة بقوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ
 رَسُولًا، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا.﴾ ثم قال: ﴿مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ
 تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث
 جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى
 يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ
 بِمُصِيطِرٍ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ
 طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الَّذِي يَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ بَيَانٌ لِقَاصِمَةٍ مِنْ قَوَاصِمِ
 ظُهُورِ الْمُنَافِقِينَ حَيْثُ كَانُوا إِذَا صَارُوا بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَظْهَرُوا أَنَّهُمْ
 مُطِيعُونَ ثَابِتُونَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اسْتَغْرَقَ فَرِيقٌ
 مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَيْلَهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْكِيدِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ

والعمل على الطعن في دين الإسلام، ولا يعلمون أن الله عز وجل لهم بالمرصاد يُحْصِي عليهم ما يَبْتَئُوهُ لرسول الله ﷺ وللإسلام وللمسلمين، وأنه عز وجل مُحِيطٌ كيدهم، وجاعلٌ تدميرهم في تدبيرهم، وفي قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ برفع ﴿طَاعَةٌ﴾ إشعارٌ بمحاولتهم إيهام المسلمين أنهم ثابتون على الطاعة مستقرون عليها، لأن العرب إذا أرادت الدلالة على مجرد الفعل نصبت، وإذا أرادت الثبات والاستقرار والدوام رفعت وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا المعنى في قصة تسليم الملائكة على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ حيث كان ردُّه عليه السلام لتحتيتهم بأحسن منها لأنهم لما نصبوا سلاماً أثبتوا مجرد التحية والسلام، فردَّ عليهم بسلام دائم ثابت مستقر فقال: سلامٌ ومعنى ﴿بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا من عندك ومعنى ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ العرب يقولون للأمر الذي يُطِيلُونَ فيه التفكير، ويستغرقون ليلهم في تأمله: هذا أمر مبيت، وقد جرت العادة أنهم لا يبيتون من أمرهم إلا ما كانوا يكرهون أن يطلع غيرهم عليه، كما قال عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: وكل عمل عُمل ليلاً فقد بَيَّتَ، ومن ذلك: بَيَّتَ العدوُّ وهو الوقوعُ بهم ليلاً، ومنه قولُ عبيدة بن همام:

وكانوا أَتَوْنِي بِشَيْءٍ نَكُرُ	أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا
وَهَلْ يُنَكِّحُ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرٍّ	لَأُنَكِّحَ أَيْمَهُمْ مُنْذِرًا

يعني بقوله: (فلم أرض ما بَيَّتُوا) ليلاً، أي ما أبرمُوهُ ليلاً وعزَّمُوا عليه، ومنه قولُ النمر بن تولب العُكَلِيُّ

هَبَّتْ لَتَعْدُلُنِي مِنَ اللَّيْلِ اسْمَعِ	سَفَهَا تُبَيِّتُكَ الْمَلَامَةُ فَاهْجَعِي اهـ
--	---

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . ﴾ أي فلا يحزنك مكرهم وسوء فعلهم ، ولا ما يدبرونه ضدك وضد الإسلام والمسلمين ، ولتكن ثقتك بالله واعتمادك عليه في إحياء كيدهم ، وإبطال مكرهم فالله عز وجل بالمرصاد لهم ، وهو عز وجل يكفيك شرهم ويرد كيدهم إلى نحورهم وقوله عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . ﴾ هذا توجيه من الله عز وجل لجميع المكلفين وبخاصة المنافقين واليهود والمشركين إلى أن يتدبروا هذا القرآن العظيم وأن يعملوا فيه فكرهم وأن ينظروا فيما اشتمل عليه من الأخبار عن الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلية ، وما احتواه من الأحكام والحكم والعلوم الكونية والإنسانية والدينية والدنيوية ، وفي أسلوبه وفصاحته وبلاغته التي فاقت كل ما وصفه البلغاء وتحدث به الفصحاء ، مع سلامته عن أي تناقض أو اضطراب أو اختلاف ، مع أنه كتاب كبير ، فلو كان من عند غير الله مهما كان هذا الغير لوجد فيه تناقض واختلاف واضطراب كثير ، وقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ وقد تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ، ومع ذلك لم ينقل عن أحد من أساطين الفصاحة والبلاغة والبيان من كفار قريش أو غيرهم أنه وجد في هذا القرآن العظيم اختلافاً قليلاً أو كثيراً بل قال بعض رؤساء المشركين : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق . ولم يدع أحد من أعداء الإسلام أنه أخبر عنه بخبر غير صحيح ، فهؤلاء الفريق من المنافقين الذين قالوا : طاعة ، فلما برزوا من عند رسول الله ﷺ يبتئوا غير الذي يقول رسول الله ﷺ ، فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بخبرهم ، فما ادّعى واحد منهم أن ما أخبر القرآن به في شأنه يختلف عما وقع منهم مع أنه إخبار بالغيب . وفي التعبير بالكثير في قوله : ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ للفت الانتباه إلى أنه لطوله

وعلموه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فكيف وهو مع ذلك لم يوجد فيه أدنى اختلاف ، فنفسُ الكثرة ليس لإثبات القلة ، بل هو على حد قوله عز وجل : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ ﴾ إذ المقصود : لا طاعة ولا شفاعاة للكافرين يوم القيامة وكما قال امرؤ القيس :

على لا حب لا يُهْتَدَى بمناره إذا سَافَهُ العَوْدُ النباطي جَزَجَرَا

إذ المقصود : لا منار ولا اهتداء ، فكذلك قوله تبارك وتعالى هنا : ﴿ لَوْ جَدُّوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ يعني أنهم لم يجدوا فيه اختلافاً كثيراً ولا قليلاً ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ هذا مثال لرعونة المنافقين وأشباههم من المرجفين الذين يبادرون إلى نشر الإشاعات وإذاعة الأخبار دون تحقق وتثبت أو دون رَوِيَّةٍ مما قد يُلْحَقُ الأذى بالأبرياء ، ويسبب بلبلة الأفكار واضطراب الأمنين ، وأن الإنسان السَّوِيَّ هو الذي إذا جاءه خبر مثير لا يتحدث به حتى يرجع إلى ذوي العلم الذين يستطيعون استنباط الأمور من مصادرها الصحيحة قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ولنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه ، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه : أطلقت نساءك؟ فقال : لا . فقلت : الله أكبر . وذكر الحديث بطوله . وعند مسلم : فقلتُ : أطلقتهن؟ قال : لا ، فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي لم يُطَلِّ رسول الله ﷺ نساءهُ . ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ أسلوب بلاغي

بديعي يعرف عند علماء البديع باسم الجناس اللاحق وهو ما اختلف فيه اللفظان في حرفين متباعدين مخرجاً كأمر وأمن . وفيه كذلك من المحسنات البديعية الأسلوب المعروف عند البلاغيين باسم الطباق وهو الجمع بين لفظين متضادين في المعنى حيث قال ﴿من الأمن أو الخوف﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا .﴾ أي ولولا جود الله عليكم وفضله بها حذرکم من عدوكم وعرفكم به من أصول سعادتكم وأمنكم لانقذتم للشيطان إلا من عصمه الله منكم وهم قليل .

قال تعالى : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا . مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا .﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيل الله وأثنى على الذين يسارعون إليه ، ونذد بالذين لا يحرصون عليه ، ووبخهم أشدَّ التوبيخ ، وفضح ما يُسرُّونه من سوء المعتقد ، وما يبيئونه من قبيح التدبير ، وأوضح أن طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله عز وجل الذي أرسله ، وأرشد رسوله ﷺ إلى الإعراض عنهم والاعتماد على الله وحده ، وحضَّ على تدبُّر القرآن العظيم ، والتثبت عند مجيء أمرٍ من الأمن أو الخوف أمر رسوله ﷺ هنا بقتال أعداء الله وألا يعبأ بتخلف المتخلفين ، وأن يحرض المؤمنين على القتال حيث يقول : ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ والفاء في قوله عز وجل : ﴿فقاتل﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا كان هؤلاء المنافقون يفعلون ما يفعلون من التشييط والتبييت والإرجاف فتقدم أنت للقتال ، فإنك غير مسئول عن تخاذلهم ، والله ناصرُك ومؤيدك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وحضَّ المؤمنين وحثهم على مقارعة أعداء الله وقتالهم ، ورغبهم في ذلك ، وبين لهم ما أعد الله عز وجل للمجاهدين في سبيله من جليل الأجر وعظيم المشوبة ، وقد سارع رسول الله ﷺ إلى امتثال أمر ربه ، وكان يحرض المؤمنين على القتال ويحضهم عليه ، ويرغبهم فيه ، ويشجعهم مما كان يحمل الواحد منهم على رمي ما بيده من تمرات حرصًا على منازل أعداء الله ، والمسارعة إلى جهاد المشركين رغبةً في الفوز بالشهادة في سبيل الله ، وكان يقول لهم ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، ويقول : إذا لقيتموهم

فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ويقول : لقاب قويس في
 الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب ، ويقول : لَعْدُوَّةٌ أَوْ رَوْحَةٌ في سبيل
 الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب . فقد روى مسلم في صحيحه من
 حديث أنس رضي الله عنه قال : انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا
 المشركين إلى بدر، وجاء المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها
 السموات والأرض ، قال عمير بن الحمام : بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما
 يحملك على قولك : بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من
 أهلها ، قال : فإنك من أهلها . قال : فأخرج تمرات من قرته فجعل يأكل
 منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة ، قال :
 فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل . كما روى البخاري ومسلم
 من حديث سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : رباطُ يوم في سبيل الله
 خير من الدنيا وما عليها . كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي
 الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لَعْدُوَّةٌ في سبيل الله أَوْ رَوْحَةٌ خير من الدنيا
 وما فيها . كما روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن أبي أوفى
 رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن
 الجنة تحت ظلال السيوف . وقد أمر الله رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على
 القتال في غير موضع من كتابه الكريم حيث قال عز وجل هنا : ﴿ وَحَرِّضِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكما قال عز وجل في سورة الأنفال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ
 عَلَى الْقِتَالِ ﴾ ولا شك أن النفس الإنسانية تتأثر بالتحريض والتذكير ، ولا سيما
 إذا كان التحريض من خير فصيح بليغ ، فإنها تنبعث فيها الهمة على مناجرة
 الأعداء ، والدفاع عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومة الأعداء ومصابرتهم ،
 ولذلك يقول عز وجل : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله تبارك
 وتعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إطماع من الله تبارك وتعالى

للمؤمنين وَوَعْدٌ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ بنصرهم وتأييدهم وإلقاء الرعب والفرع في قلوب أعدائهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي والله وحده قادر على الانتصار من الكافرين وتدميرهم وإيقاع أشد العقوبات بهم كما قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ لأنه عز وجل إذا أراد أن يأخذ أعداءه أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فهو تبارك وتعالى ذو البطش الشديد، الفعال لما يريد، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ يقول: والله أشد نكاية في عدوه من أهل الكفر به منهم فيك يا محمد وفي أصحابك، فلا تَنَكَّلَنَّ عَنْ قِتَالِهِمْ، فإني راصدهم بالبأس والنكاية والتنكيل والعقوبة لأوهن كيدهم وأضعف بأسهم، وأعلي الحق عليهم، والتنكيل مصدر من قول القائل: نَكَّلْتُ بِفُلَانٍ فَأَنَا أَنْكَلٌ بِهِ تَنْكِيلًا إذا أوجعته عقوبة أهـ. وقوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ بعد أن أمر الله عز وجل رسوله وحيبيه محمدًا ﷺ بالقتال في سبيل الله وتحريض المؤمنين على القتال ذكر هنا أن من يسارع إلى الانضمام لجند الله وتكثير حزب الله ويحرض المؤمنين على قتال أعداء الله يجعل الله تبارك وتعالى له أجرًا عظيمًا وحظًا كريمًا من ثواب الله تعالى الذي أعده للمجاهدين في سبيله، دون أن ينقص من أجورهم شيئًا، لأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله، ومن ناصر أعداء الله على أولياء الله فله من الأوزار والآثام مثل آثامهم وأوزارهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء، ومادة شفع تدور في اللغة على معنى الازدواج، والزيادة، والإعانة، فالشفع: الزوج، وهو ضد الوتر وتقول: شَفَعَ نَاطِرِي إِذَا صَارَ يَرَى الْخَطَّ خَطَيْنِ وَالشَّخْصَ

شخصين ، قال في القاموس المحيط : وعَيْنٌ شافعةٌ تنظر نظرين ، وَشَفَعْتُ لِي
الأشباح بالضم أي أَرَى الشخص شخصين لضعف بصري وانتشاره ، ثم
قال : وإنه ليشفع عليّ بالعداوة أي يُعين عليّ ويضارّني . وقوله تعالى : ﴿مَنْ
يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ أي مَنْ يزد عملاً إلى عمل ، ثم قال : وكأميرٍ صاحب
الشفاعة وصاحب الشُّفعة بالضم وهي أن تشفع فيما تطلب فتضمه إلى ما
عندك فتشفعه أي تزيده ، وعند الفقهاء حقٌ تملك الشُّقص على شريكه
المتجدّد ملكه قهراً بعوض اهـ . وإذا كان قوله عز وجل : ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً
حسنة يكن له نصيبٌ منها وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ قد
سيق للحض على المسارعة لتأييد دين الإسلام والانضمام لجند الله والتحذير
من الانضمام إلى جند الشيطان وتأييد أعداء الله فإن عموم لفظه يشمل هذا
الذي سيق من أجله ويشمل كذلك من يشفع لإنسان في باب من أبواب
الخير ويدخل عمله هذا في باب الشفاعة الحسنة كما يشمل من يعين ظالماً
على ظلمه ويتعاون على الإثم والعدوان أو يشفع لشخص ليتولى عملاً لا
يكون كفوّاً له ، ويدخل هذا في باب الشفاعة السيئة ؛ وقد حض رسول الله
ﷺ على الشفاعة للناس في أبواب الخير وحذر تحذيراً شديداً من الشفاعة
السيئة فقد روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :
كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجةٌ قال : اشفعوا تُؤَجَّرُوا
ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث
أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ
حاجةٍ أقبل على جلسائه فقال : اشفعوا فَلتُؤَجَّرُوا ، وَلَيَقْضِ الله على لسان
نبيه ما أَحَبَّ . وقال البخاري : باب الشفاعة في وضع الدّين حدثنا موسى
حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر عن جابر رضي الله عنه قال : أصيب
عبد الله وترك عيالاً وديناً فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً من دينه

فأبوا، فأتيت النبي ﷺ فاستشفعت به عليهم، فأبوا فقال: صَنَّفَ تَمْرُكَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حَدِّهِ، عِذُّقُ ابْنِ زَيْدٍ عَلَى حَدِّهِ، وَاللَّيْنُ عَلَى حَدِّهِ، وَالْعَجْوَةُ عَلَى حَدِّهِ، ثُمَّ أَحْضَرَهُمْ حَتَّى آتَيْكَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ جَاءَ ﷺ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَكَالَ لِكُلِّ رَجُلٍ حَتَّى اسْتَوْفَى، وَبَقِيَ التَّمْرُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، الْحَدِيثُ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لَحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ رَاجَعْتَهُ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرْنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ. قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ الشَّفَاعَةِ السَّيِّئَةِ الشَّفَاعَةُ فِي الْحُدُودِ إِذَا رَفَعْتَ إِلَى السُّلْطَانِ وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قَرِيشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ. الْحَدِيثُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي سَنَنِهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ السَّرْحِ ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً فَلَهَا فَجَبَلَهَا فَقَدْ أَتَى أَبَا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا. وَالْكَفْلُ وَالنَّصِيبُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾. أَيُّ وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَزَالُ مُقْتَدِرًا حَفِيزًا شَهِيدًا حَسِيْبًا لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ خَيْرًا كَانَتْ أَوْ شَرًّا، فَاجْتَنِبُوا الشَّرَّ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

بعد أن رغبَ الله عز وجل في الجهاد وقتال أعداء الله وأمر رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال ، وأشار إلى أن الناس ليسوا سواءً فمنهم من يسارع إلى داعي الخير وينضمُّ إليه ، ومنهم من يسارع إلى داعي الشر وينضم إليه ، نبّه هنا إلى أن دين الإسلام هو دين السلام ، وأنه لا يجوز لأحد أن يفهم من الحز على الجهاد أن الإسلام دينٌ دَمَوِيٌّ ، فهو عندما يأمر بالقتال إنما يأمر به لمصلحة الإنسانية ، ولذلك نبّه المسلم إلى أنه حتى لو كان في أرض المعركة ولقيه رجل من الجانب الذي فيه الكفار وسلّم عليه وجب على المسلم أن يرد عليه السلام والتحية بأحسن منها أو بمثلها وألا يلحق به أيّ أذى مادام قد سلم عليه ، وحذّر المسلم من سوء الظن بمن يسلم عليه ويحييه حيث يقول عز وجل : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ﴾ قال البخاري في صحيحه : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال : قال ابن عباس : كان رجلٌ في غُنيمةٍ له فلَحِقَهُ المسلمون ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنيمةً ، فأنزل الله في ذلك إلى قوله : ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تلك الغُنيمة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي وإذا حيّاكم أحدٌ بتحية الإسلام فأجيبوه على تحيته بأحسن منها أو بمثلها . وأصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم

استعملت في كل دعاء، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضاً في الجاهلية يقول: **حَيَّاكَ اللهُ** ثم استعملها الشرع في السلام وهي تحية الإسلام قال عز وجل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ولا شك أن تحية الإسلام خير التحيات التي يحبها الله عز وجل كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَوكَ حَيَّوكَ بِهَا لَمْ يَحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ وكما أن تحية الإسلام محبوبة إلى الله عز وجل فهي كذلك لها مزية على غيرها إذ السلام دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية، وهي مستلزمة لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة تلك السلامة، ولأن السلام من أسماء الله الحسنى فهو أعظم خيراً وبركة من جميع تحيات أهل الجاهلية التي كانوا يحیی بعضهم بعضاً بها كقولهم **حياك الله**، أو **أنعم صباحاً** أو **أنعم مساء**، أو **أنعم الله بك عينا**، أو **أبيت اللعن**، فإن تحية الإسلام أجمع وأعم وأفضل من ذلك كله، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه التحية كانت من أول ما دار من حوار بين آدم عليه السلام والملائكة وأنها تحية الملائكة والنبیین والمرسلین وسائر المؤمنین إلى يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر، وهم نفرٌ من الملائكة جلوس، فاستمع ما يُحَيُّونَكَ، فإنها تحييتُكَ وتحية ذريتكَ، فذهب، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، قال: فزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن، وقد ذكر الله تبارك وتعالى سلامه على عباده المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث قال: ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا

وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ قل الحمد لله
وسلام على عباده الذين اصطفى ﴿ وقال في أهل الجنة : ﴿ لهم فيها فاكهة
ولهم ما يَدْعُونَ . سلام قولاً من ربِّ رحيم . ﴿ وقال عز وجل : ﴿ سلام على
نوح في العالمين . ﴿ وقال عز وجل : ﴿ سلام على إبراهيم ﴿ وقال عز وجل :
﴿ سلام على موسى وهارون . ﴿ وقال عز وجل : ﴿ سلام على إلياسين . ﴿
وقال عز وجل : ﴿ سبحان ربك ربَّ العزة عما يصفون . وسلام على
المرسلين . والحمد لله رب العالمين . ﴿ وقد أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ
بالسلام على المؤمنين حيث قال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل
سلامٌ عليكم . ﴿ وقال عز وجل : ﴿ تحيتهم يوم يَلْقَوْنَهُ سلامٌ ﴿ وقال ﴿ الذين
تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴿ وقال عز وجل : ﴿ والملائكة
يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . ﴿
وقال عز وجل : ﴿ وسيق الذين اتَّقُوا رَبَّهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها
وفُتِحَتْ أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴿
وقال عز وجل في حق يحيى عليه السلام : ﴿ وسلام عليه يوم وُلِدَ ويوم يموت
ويوم يُبْعَثُ حَيًّا . ﴿ وقال في حق عيسى عليه السلام : ﴿ والسلام علىَّ يوم
ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حَيًّا . ﴿ وتخصيص هذه الأوقات الثلاثة وهي
يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث لأنها أشدُّ الأوقات حاجة إلى السلامة
والكرامة . وقد رَغِبَ الإسلام في السلام ترغيباً شديداً فقد روى البخاري
ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله
ﷺ أيُّ الإسلام خير؟ قال : تَطْعَمُ الطعام وتَقْرَأُ السلام على مَنْ عَرَفْتَ ومن لم
تعرف . كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أو
لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشُوا السلام بينكم . كما روى

الترمذي وقال حديث صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام . كما روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فردَّ عليه ، ثم جلس ، فقال : عشر ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فردَّ عليه ، فجلس ، فقال : عشرون ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردَّ ، فجلس ، فقال : ثلاثون . وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى آداب السلام وكيفيته بقوله وفعله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً . كما روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح عن أبي جُرَيْجٍ الهُجَيْمِيِّ رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلتُ : عليك السلام يا رسول الله ، فقال : لا تقل : عليك السلام فإنَّ عليك السلام تحية الموتى . كما روى أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . وقد كان رسول الله ﷺ يسلم على الصبيان فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيان فسلم عليهم وقال : كان رسول الله ﷺ يفعله ، كما أنه لو سلم الإنسان على إنسان ثم فارقه ولو قليلاً ثم رجع إليه فإنه يستحب له أن يسلم عليه مهما تكرَّر ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة المسيء صلته

أنه جاء فصلى ركعتين ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فسلم عليه ، فردَّ عليه السلام ، فقال : ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ حتى فعل ذلك ثلاث مرات . كما ينبغي الحرص على أن يسلم الرجل على زوجته وأهله إذا دخل عليهم فقد روى الترمذي وقال : حديث حسن صحيح عن أنس رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يُسَلِّمُ الراكب على الماشي والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير . وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يُسَلِّمُ الصغير على الكبير ، والمارُّ على القاعد والقليل على الكثير ، ونَبَّه الإسلام إلى الردِّ على اليهود والنصارى إذا سلَّموا على المسلم فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم . كما يجوز للمسلم إذا مرَّ على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشرِّكين أن يسلم عليهم فقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشرِّكين عبدة الأوثان واليهود فسلم عليهم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾ أي فليكن ردُّكم على من سلم عليكم بأحسن من سلامه أو بمثله على الأقل فإذا قال المسلَّم مثلاً : السلام عليكم فيكون الرد وعليكم السلام ورحمة الله . فإذا قال المسلَّم : السلام عليكم ورحمة الله فيكون الجواب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فإذا قال المسلَّم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فيكون الجواب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وأهلاً وسهلاً ومرحباً أو نحو ذلك فيكون قد حياه بأحسن من تحيته ، فإذا اقتصر على مثل تحية المسلَّم جاز ذلك . قال ابن كثير

رحمه الله : عن الحسن البصري : السلام تطوع والردُّ فريضة وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة اهـ . وقوله عز وجل : ﴿إِن الله كان على كل شيء حسيبا . الله لا إله إلا هو لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثا .﴾ أي إن الله عز وجل محاسبكم على أعمالكم ومجازيكم بها فلا تتهاونوا في تطبيق شريعة الإسلام التي شرعها الله عز وجل لسعادتكم في الدارين ، وسيجمعكم الملك الحق المبين الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، في عرصات القيامة ، ولا أحد أصدق من الله قولاً .

قال تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يِقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ، فَإِنْ اغْتَرَزُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا .﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المسلمين بأن يحييوا من حيّاهم بأحسن من تحيته أو بمثلها، ويقتضي هذا الأمر أن من ألقى إليهم السلام لا يحرصون على قتله حتى ولو كان في الجانب الذي به الكفار المحاربون، وذكرهم بأن مصير جميع الخلائق إليه وحده حيث يجمعهم في عرصات القيامة ويجزي كل عامل بما عمل، أشار هنا إلى ما كان من المؤمنين في شأن المنافقين الذين رجعوا من الطريق يوم أحد وانخذلوا عن رسول الله ﷺ وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول حيث انقسم المسلمون في شأنهم بعد غزوة أحد إلى فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم وفرقة تقول : لا نقتلهم ماداموا يظهرون أنهم مسلمون ولم يعلنوا الكفر صراحة، فذكر عز وجل هنا للمسلمين صوراً تبين للمسلمين بعض أحكام الدماء، وتحذّرهم من قتل المنافقين الذين لم يعلنوا الكفر صراحة، وتنبههم إلى الحذر من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وبدأ ذلك بقوله عز وجل : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ فقد روى البخاري في صحيحه في باب غزوة أحد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : لما خرّج النبي ﷺ إلى غزوة أحد رجع ناسٌ ممن خرّج معه،

وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين : فرقة تقول : نقاتلهم ، وفرقة تقول : لا نقاتلهم ، فنزلت : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ وقال : إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة . وأخرجه في التفسير من صحيحه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ رجع ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ من أحد وكان الناس فيهم فرقتين : فريقٌ يقول : اقتلهم ، وفريقٌ يقول : لا فنزلت : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ وقال : إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة . وقد فرّق مسلم هذا الحديث وجعله حديثين فروى في باب ذكر المنافقين في أواخر صحيحه من حديث زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد ، فرجع ناسٌ ممن كان معه ، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين قال بعضهم : نقتلهم ، وقال بعضهم : لا ، فنزلت : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ وروى في كتاب الحج من صحيحه من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال : إنها طيبة يعني المدينة وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح رواية البخاري التي أخرجها في غزوة أحد : قوله : «رجع ناسٌ ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أبي وأصحابه ، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في المغازي ، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الإقامة بالمدينة ، فلما أشار غيره بالخروج ، وأجابهم النبي ﷺ فخرج ، قال عبد الله بن أبي لأصحابه : أطاعهم وعصاني ، علام نقتل أنفسنا ، فرجع بثلاث الناس ، قال ابن إسحاق في روايته : فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام وهو والد جابر ، وكان خزرجياً كعبد الله بن أبي ، فناشدتهم أن يرجعوا ، فأبوا ، فقال : أبعدكم الله اهـ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ أي أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم ؟ ولماذا تختلفون فيهم ورسول الله ﷺ بينكم ؟ وفي هذا

رسمٌ للسياسة الإسلامية نحو المنافقين وغيرهم ، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، وأن يحذروا التنازع والاختلاف ، فإنه لا يؤدي إلى خير ، وقد علم أن رسول الله ﷺ كان لا يحب قتل المنافقين إذا بدرت منهم بوادر سوء ، حتى لا يتحدث الناس الذين لا يعلمون حقيقة نفاقهم ويقولوا : محمد يقتل أصحابه . ومعنى ﴿والله أركسهم بها كَسَبُوا﴾ أي والله عز وجل نكسهم وردّهم في كفرهم ومنعهم من القتال معكم حرماناً لهم بسبب الكفر والمعاصي ، مع أنهم لو حضروا المعركة ما زادوا المسلمين إلا خبالاً ، فكره الله عز وجل أن يشهدوا معكم المعركة فخذلهم عن شهودها ، ولم يوفقهم لحضورها . وقوله عز وجل : ﴿أتريدون أن تَهْدُوا من أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي أتحسبون أن حرصكم الشديد على هداية قلوبهم ينفعهم وقد أراد الله عز وجل إضلالهم ، ومن أراد الله عز وجل إضلاله وخذلانه وعدم توفيقه فلن يستطيع أحد مهما كان إدخال الهداية في قلبه المنكوس المركوس ، وقوله عز وجل : ﴿وَدُّوا لو تكفُّرُون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجرُوا في سبيل الله﴾ هذا بيان لما استقر في قلوب جميع أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام والمسلمين من حرصهم الشديد على ردة المسلمين عن الإسلام ورجوعهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه ، وفيه لفت انتباه الناس إلى الفرق بين قلوب المؤمنين التي تبالغ في الحرص على هداية الناس وقلوب أعدائهم التي تبالغ في الحرص على إضلالهم وردّتهم حتى يكونوا في الضلالة سواء . وقد ذكر الله عز وجل هذا الخلق الذميمة في اليهود والمشركين والمنافقين حيث قال عز وجل : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حَسَدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقال عز وجل : ﴿ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم من خير من ربكم﴾ وقال هنا : «ودّوا لو

تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ، فإن تَوَلَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولداً ولا نصيراً . ﴾ يشمل تحريم موالاة جميع أصناف الكفار سواء كانوا منافقين أو يهوداً أو نصارى أو مشركين ، وجعل تبارك وتعالى هذا التحريم مُغَيِّياً بغاية وهي هجرتهم في سبيل الله فإن هاجروا في سبيل الله صاروا أولياء للمسلمين بغض النظر عما كانوا عليه قبل الهجرة . والهجرة تُطلق على ثلاثة أوجه : هجرة وانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وكانت متحتمة من مكة إلى المدينة قبل الفتح ، وقد غلب على أصحاب هذه الهجرة اسم المهاجرين ، وهجرة من النفاق وهي داخلية في هذا المقام دخولاً أولاً لأن السياق فيها ، والمراد بها : أن يترك الشخص نفاقه ويخرج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله صابراً محتسباً لا لغرض من أغراض الدنيا ، وهجرة عن جميع المعاصي وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هَجَرَ ما نَهَى الله عنه . قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية : اعلم أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وأخرى تحصل بالانتقال من أعمال الكفار إلى أعمال المسلمين قال ﷺ : المهاجر من هجر ما نهى الله عنه . وقال المحققون : الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مآموراته وفعل منهياته ، ولما كان كلُّ هذه الأمور معتبراً لا جرم ذكر الله تعالى لفظاً عاماً يتناول الكلَّ فقال : ﴿ حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ فإنه تعالى لم يقل : حتى يهاجروا عن الكفر بل قال : ﴿ حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ومهاجرة شعار الكفر ، ثم لم يقتصر تعالى على ذكر الهجرة بل قيده بكونه في سبيل الله ، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار

الإسلام لغرض من أغراض الدنيا، إنما المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. أي فإن أعرضوا عن الانقياد لدين الله وأظهروا الكفر فأَسِرُوا من تمكنتم من أخذه منهم وأسرهم، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله أينما أصبتموهم من أرض الله ولا تتخذوا منهم خليلاً يُواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم فإنهم هم العدو لا يألونكم خبالاً، وَدُّوا عنتكم ومشقتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فإن تَوَلَّى هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سِوَى مَنْ وَصَلَ مِنْهُمْ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مُوَادَعَةٌ وَعَهْدٌ وَمِيثَاقٌ فَدَخَلُوا فِيهِمْ، وصاروا منهم ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم: أَلَا تُسَبِّى نِسَاءَهُمْ وَذُرَارِيَهُمْ وَلَا تُغْنَمُ أَمْوَالُهُمْ اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ الآية: هؤلاء قومٌ آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يحيثون إلى المصاف وهم حَصِرَ صدورهم أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ﴾

وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴿١﴾ أَيُّ الْمَسْأَلَةِ ﴿٢﴾ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . ﴿٣﴾ أَيُّ
فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ
خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ
كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ
أَهـ .

قال تعالى : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا . وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير ربة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَبَةٍ مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير ربة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله ، وكان الله عليماً حكيماً . وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا . ﴿

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية السابقة حكم من وصل من الكفار إلى قوم بينهم وبين المؤمنين موادةً وعهدٌ وميثاقٌ ودخلوا معهم في عهدهم وميثاقهم وصاروا منهم ورضوا بحكمهم وأن الله عز وجل لم يجعل للمؤمنين عليهم سبيلاً ، بيّن هنا حكم طائفة أخرى من الكفار الذين جعل الله عز وجل للمؤمنين عليهم سبيلاً وسلطاناً مبيناً ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ستجدون آخَرِينَ يريدون أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي ستجدون فريقاً آخر من الكفار بهم شبهة من بعض الوجوه بالفريق المذكور في الآية السابقة من جهة حرصهم على أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم إلا أنهم يغيرونهم في أنهم أخبث نيةً وأشدُّ ارتكاساً في الكفر ، وأعمق في العداوة لكم ، ولو تمكنوا من القضاء عليكم ما تأخروا عن ذلك ، فهم إذا كانوا بينكم أظهروا لكم أنهم معكم وإذا صاروا بين أعدائكم أظهروا الحرص على استئصالكم ، بخلاف الفريق المذكور في الآية السابقة فإنهم ما كانت تشرح

صدورهم لقتالكم بل كانوا يضيقون إذا اضطروا للوقوف ضدكم ، وقد ذكر
 الله تبارك وتعالى ثلاثة شروط إن توفرت في هذا الفريق الشرير كفَّ المسلمون
 عن قتالهم ، وإن لم تتوفر فيهم هذه الشروط الثلاثة قاتلهم المسلمون ، وهذه
 الشروط الثلاثة هي المدلول عليها بقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزْلُوكُمْ وَيُلْقُوا
 إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ فإذا أخلوا بهذه الشروط الثلاثة فإن الله تبارك
 وتعالى جعل للمسلمين عليهم حجة وسلطانا وسيلا حيث يقول :
 ﴿ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكَ جُعِلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
 مُبِينًا . ﴾ أي فإن لم يكف هؤلاء الشريريون عن التعرض لكم بوجه من الوجوه
 التي تُلحق الأذى بكم ولم يعقدوا معكم هدنةً وصلحاً ، ولم يكفوا أيديهم عن
 قتالكم ويدأبوا على مسالمتكم فقاتلوهم وأسروا من تمكنتم من أسره منهم ،
 واقتلوا من قدرتم على قتله ممن لم يستأسر لكم منهم ، وأبشروا بنصر الله لكم
 فإنه عز وجل مسلطكم عليهم . وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ
 مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ أي ما يليق بمؤمن متَّصفٍ بوصف الإيثار ولا يحل له أبداً أن
 يتعمد قتل مؤمن ؛ لأن الله عز وجل حرم دم المؤمن في جميع الشرائع السماوية
 ولا يحل دمه إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني والارتداد عن
 دين الإسلام كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد
 الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم امرئ مسلم
 يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ،
 والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة . لكن يمكن أن يقع أن
 يقتل المؤمن مؤمناً خطأً ، إذ قد يقع بسبب يتعذر الاحتراز منه أو بسبب فوق
 الطاقة البشرية ، ، والخطأ في القتل يحدث لأسباب كثيرة يجمعها عدم قصد
 القتل فقد يقصد المسلم رمي مشرك أو طائر فيصيب مسلماً ، أو يرى شخصاً
 عليه شعار الكفار في أرض المعركة فيرميه ويكون هذا القتل قد أسلم لكن

الذي رماه يحسبه كافراً، أو يضرب شخصاً مسلماً بما لا يقتل غالباً كأن يضربه بيده أو بعصا خفيفة أو نحوها مما لا يُعهد في مثله أن يقتل، أو يكون نائماً فينقلب على شخص فيقتله وهو لا يشعر بذلك وكما حدث للمسلمين في معركة أحد عندما قتلوا اليمان والد حذيفة رضي الله عنهما وهم لا يشعرون من شدة حزنهم وحذيفة رضي الله عنه يقول: أبي، أبي، فلما قتلوه قال حذيفة: يغفر الله لكم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعْتَهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتَهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أَسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَارَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مَتَعُودًا، قَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَمَا زَالَ يَكْررها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمَقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو الْكَنْدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَقِيتُ كَافِرًا فَاقْتُلْنَا فَضْرَبَ يَدِي بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَازِمْنِي بِشَجَرَةٍ وَقَالَ: أَسْلَمْتُ لَكَ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقْتُلْهُ، قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ طَرَحَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا أَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ: لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ، وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ. وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حُكْمَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.﴾ أَيِ فَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا

خطأ وأهل القتل مسلمون يجب على القاتل إعتاق نفس مسلمة وتحريرها من الرق حقاً لله عز وجل كما تجب لورثة القتل دية مؤداة لهم يقتسمونها كسائر الموارث ولا نزاع عند أهل العلم في أن الدية في قتل الخطأ إنما تجب على العاقلة ، والعاقلة هم عصابة القاتل ولورثة القتل أن يتنازلوا عنها فتسقط الدية حينئذ ، أما الكفارة فلا تسقط بحال . وهذا هو القسم الأول من الأقسام الثلاثة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية ، أما القسم الثاني فهو أن يقتل المسلم مؤمناً خطأ لكن أولياءه كفار محاربون للمسلمين فإنه لا دية لهم ، ولكن يتحتم على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . أما القسم الثالث فهو أن يكون المقتول مؤمناً وأهله كفار لكنهم أهل ذمة وهدنة وعهد فلهم دية قتلهم لكنها ليست ميراثاً لأن الكافر لا يرث المسلم ، ويتحتم على القاتل إعتاق إنسان مسلم وتحريره من الرق ، فإذا لم يجد القاتل الذي وجبت عليه الكفارة إنساناً مملوكاً لعدم وجوده أو عدم قدرة القاتل على شرائه فإنه يتحتم عليه صيام شهرين متتابعين يسرد صومهما إلى آخرهما لا يتخلل ذلك إفطار في النهار المحدد من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس فإن أفطر من غير عذر مرض أو حيض أو نفاس ابتداءً صيام الشهرين من أولهما . وقوله عز وجل : ﴿ توبه من الله وكان الله عليهما حكيماً ﴾ تنبيه إلى أن من قتل مؤمناً خطأ فرض الله عز وجل عليه ما فرض في هذه الآية لما حصل منه من التقصير فيكون هذا الإعتاق أو صيام شهرين متتابعين كفارة لما حصل منه وإن كان الله تبارك وتعالى تجاوز لمن لم يتعمد الخطأ كما تجاوز عن النسيان لكنه فرض عليه الكفارة ليحترز المسلم ويبالغ في الاحتياط حتى لا يقع في هذا الخطأ الذي يؤدي إلى إزهاق الأرواح المصونة المحترمة . وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ فتحير رقبة مؤمنة ﴾ إعلام بحرص الإسلام على تحرير الرق وفك الرقاب ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ إلا أن يصدّقوا ﴾ إشعار بأن تنازل أهل القتل عن

الدية أو بعضها يعتبر صدقة في موازين حسناتهم عند الله يوم القيامة كما أن في هذه الآية العظيمة بياناً بوجوب حفظ العهود والمواثيق ومراعاة حقوقها، والتفريق بين الكفار المسالمين وغير المسالمين وقد اشترط الإسلام في رقبة الكفارة أن تكون مؤمنة لحرص الإسلام على عزة المسلمين وحریتهم، ويكفي في إثبات إيمان الرقبة أن تكون مقرةً بالله وبرسوله محمد ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أخذ الجوانية فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: اتني بها، فأتيتها بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة. وقد أجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا عَمْدًا قَتْلَهُ مُرِيدًا إِتْلَافَ نفسه ﴿فجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ يقول: فثوابه من قتله إياه ﴿جَهَنَّمُ﴾ يعني: عذاب جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ يعني: باقياً فيها، والهاء والألف في قوله ﴿فِيهَا﴾ من ذكر ﴿جَهَنَّمُ﴾، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يقول: وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ إِيَّاهُ مُتَعَمِّدًا، ﴿وَلَعَنَهُ﴾ يقول: وأبعده من رحمته وأخزاه، ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى ذكره. ثم نقل ابن جرير رحمه الله إجماع أهل التأويل على أنه إذا ضرب رجل رجلاً بحدّ حديد يجرح بحدّه أو يبضع ويقطع فلم يُقْلَعْ عنه ضرباً به حتى أتلَفَ نفسه وهو في حال

ضربه إياه به قاصدٌ ضربه : أنه عامد قتله اهـ , ولا شك أن شريعة الإسلام عظمت أمر قتل المسلم وذكرت أنه من أكبر الكبائر وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء ، وكان مقتضى ظاهر قوله عز وجل : ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾ أن من قتل مؤمناً متعمداً فلا توبة له ، لكن الله تبارك وتعالى ذكر قبول توبته في سورة الفرقان حيث يقول : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاماً . يُضاعفُ له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً .﴾

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ، كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. ﴿

بعد أن ذكر عز وجل جملة من أحكام الدماء وحذر أشد التحذير من سفك دماء المسلمين، وبين أن المؤمن ما كان ليقتل مؤمناً إلا بطريق الخطأ، وتوعد من قتل مؤمناً متعمداً بعذاب جهنم وغضب الله ولعنته، لفت انتباه المسلمين هنا مرة أخرى إلى وجوب الثبوت حتى لا يريقوا دم امرئ مسلم بغير حق حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ومعنى : إذا ضربتم في سبيل الله أي غزوتهم وسرتم في الأرض إلى الجهاد في سبيل الله، ومعنى : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتثبتوا، كما قرأ به حمزة والكسائي، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي ولا تقولوا لمن حيَّاكم بتحية الإسلام : إنك لست من أهل الإسلام، إنما تسليمك حيلة وتعود من القتل فتقدموا عليه بالسيف لتقتلوه وتأخذوا ماله، ولكن عليكم أن تكفوا عنه وتقبلوا ما ظهر منه، فأنتم لم تشقوا عن قلبه، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ سبب نزول قوله عز وجل : ﴿وَلَا

تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا ﴿ وهو ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجل في غُنَيْمَةٍ له فلحقه المسلمون ، فقال السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَتَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل ذلك . كما تقدم في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ﴾ الآية قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما في سرية الحرقة من جهينة عندما لحق رجلاً منهم فقال الرجل : لا إله إلا الله ، وظن أسامة رضي الله عنه أن الرجل إنما قالها متعوذاً فقتله ، وما كان من رسول الله ﷺ عندما بلغه ذلك ، وكذلك حديث المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه . وفي لفظ لمسلم من طريق أبي بكر ابن أبي شيبة من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَةٍ فَصَبَّحْنَا الْحَرَقَاتِ من جهينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله فَطَعَنَتْهُ ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ أَقَالَ لا إله إلا الله وَقَتَلْتَهُ؟ قال : قلت : يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح ، قال : أَفَلَا شَقَقْتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يُكْرِرها على حتى تمت أني أسلمت يومئذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ﴾ هو تنفير من الإقدام على قتل من ألقى السلام بالإشارة إلى أن العجلة وعَدَمَ التَّأَنِّي في مثل هذه الأمور إنما تحصل ممن همُّه وقصدُه حُطَام الدنيا الفاني وعرضها الزائل ، والمؤمنون من شأنهم أنهم إنما يَرْجُونَ ثواب الله وما أعدّه لعباده الصالحين ، وما وعدهم من الحياة الطيبة ورغد العيش ، وإذا كان ذلك كذلك فعند الله عز وجل ثواب الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى في هذه السورة الكريمة : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً . ﴾ وقال عز وجل في سورة الشورى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا

وماله في الآخرة من نصيب ﴿صَانَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ جَمِيعَ أَصْحَابِ رَسُولِهِ ﷺ وَخَيْرَةَ خَلْقِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا حُطَامُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ الْكَرِيمِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْأَحْكَامَ إِنَّمَا تَنَاطُ بِالظُّوَاهِرِ، وَعِنْدَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ الْعِلْمُ بِالْبَوَاطِنِ وَالسَّرَائِرِ. وَالتَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لِتَأْكِيدِ التَّنْفِيرِ مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ هِمَّةُ الْغَازِي بِالْعَرَضِ الَّذِي لَا بَقَاءَ لَهُ وَلَا دَوَامَ، وَسُمِّيَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَرَضاً لِأَنَّهُ عَارِضٌ زَائِلٌ فَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لَهُ وَلَا دَوَامَ. فَالِدُّنْيَا كُلُّهَا عَرَضٌ زَائِلٌ، وَالْأَمْوَالُ فِيهَا عَارِيَّةٌ مُسْتَرْدَّةٌ وَلِذَلِكَ نَبَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ سَمَّى الْغَنِيمَةَ عَرَضاً أَيَّ سَرِيعَةِ الْفَنَاءِ قَرِيبَةَ الْإِنْقِضَاءِ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيكُمْ فَبَيِّتُوا﴾ أَيَّ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي أَوَّلِ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ وَأَنْتُمْ بِمَكَّةَ تُخْفُونَ إِيْمَانَكُمْ عَنْ قَوْمِكُمْ كَمَا أَخْفَى هَذَا الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ إِيْمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ بِإِعْزَازِكُمْ حَتَّى أَظْهَرْتُمْ دِينَكُمْ، فَتَشَبَّهُوا وَلَا تَعْجَلُوا بِقَتْلِ مَنْ أَرَدْتُمْ قَتْلَهُ مِنْ التَّبَسُّعِ عَلَيْكُمْ أَمْرُ إِسْلَامِهِ فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَنْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ الَّذِي قَدْ مَنْ بِهِ عَلَيْكُمْ وَهَدَاهُ لِمِثْلِ الَّذِي هَدَاكُمْ لَهُ مِنَ الْإِيْمَانِ وَقَدْ جَاءَ فِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ فِي حَدِيثِ الْمَقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو الْكَنْدِيِّ حَلِيفِ بَنِي زَهْرَةَ الَّذِي سَقَتْهُ مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عِزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو عَنْ سَعِيدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمَقْدَادِ: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ، فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ، فَقَتَلْتَهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتَ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ. وَقَوْلُهُ عِزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ هُوَ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ أَلْقَى السَّلَامَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الثَّبَتِ وَالتَّبَيُّنِ وَالتَّأْنِي فِي الْحُكْمِ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ إِذْ فِي التَّأْنِي

السلامة وفي العجلة الندامة ، وكثيراً ما تورث العجلة همّاً وإبطاءً وتخلُفاً كما في المثل : رَبِّ عَجَلَةٍ وَهَبَتْ رَيْثًا ، ولا تستحب العجلة إلا في المسارعة إلى الخيرات كما في قوله عز وجل : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هُم أولاءِ على أثري وعجلتُ إليك ربِّ لِتَرْضَى . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي لا يتعادل المتخلّفون عن القتال في سبيل الله من أهل الإيمان والتصديق بالله وبرسوله الْمُؤَثِّرُونَ لِلدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْقَعُودِ فِي مَنَازِلِهِمْ عَلَى مَقَاسَةِ صَعُوبَةِ الْأَسْفَارِ وَمَشَقَّةِ مَلَاقَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِجِهَادِهِمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَقِتَالِهِمْ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ إِلَّا أَهْلَ الْعُذْرِ مِنْهُمْ كَالْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ وَالْمَرِيضَ الَّذِينَ عَذَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَبَاحَ لَهُمُ التَّخْلُفَ وَالْقَعُودَ عَنِ الْجِهَادِ لِلضَّرَرِ الَّذِي أَصَابَهُمْ مِمَّا لَا يَتِمَكَّنُونَ مَعَهُ مِنَ الْخُرُوجِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي الْمَعَارِكِ ، لا يستوي هؤلاء القاعدون غيرُ ذوي العذر ولا يتعادلون بالمجاهدين في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام ونشر شريعته ، المستفرغين جُهدهم وطاقتهم في قتال أعداء الله وأعداء رسله ، الباذلين أنفسهم وأموالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، قال البخاري في صحيحه : باب ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتى جلستُ إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أُملي عليه « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » فجاءه ابن أمّ مكتوم وهو يُملِّها عليّ ، فقال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذُه على فخذِي ، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فِخْذِي ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ غَيْرُ

أُولِي الضَّرَرِ ﴿ حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ادْعُوا فَلَنَا ، فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللُّوْحُ أَوْ الْكِتَفُ ، فَقَالَ : اكْتُبْ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَخَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا ضَرِيرٌ ، فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى أَخْبَرَنَا هِشَامٌ أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ ح وَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الْكَرِيمِ أَنَّ مِقْسَمًا مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ أَخْبَرَهُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ بَدْرِ وَالْخَارِجُونَ إِلَى بَدْرِ . أَهْ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ أَيَّ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مَرْيَّةً وَمَنْزِلَةً وَمُرْتَبَةً وَطَبَقَةً فَوْقَ الْقَاعِدِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ ، أَمَّا أُولُو الضَّرَرِ فظَاهِرُ السِّيَاقِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ فِي دَرَجَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِحَسَبِ نِيَّاتِهِمْ وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ ، وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ، وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ ، قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴾ أَيَّ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدَّ مِنَ اللَّهِ بِالْحَسَنَى أَيَّ بِالْجَنَّةِ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا ﴾

عظيماً . درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان الله غفوراً رحيماً . ﴿ أي ومنح الله عز وجل من جوده وفضله المجاهدين وخصهم به على القاعدين ثواباً جزيلاً ، أعلى به درجاتهم في جنات النعيم وشملهم بمغفرة ورحمة منه وكان الله ولا يزال متصفاً بالمغفرة والرحمة ، ومجيء كان في مثل هذا ، ونحو قوله : ﴿ وكان الله عليهما حكيماً . ﴾ للتنبيه على أنه عز وجل متصف بهذه الصفات أزلاً ولا يزال متصفاً بها فهي من صفات ذاته . وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض . كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا سعيد من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد فقال أعدّها عليّ يا رسول الله ففعل ، ثم قال : وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا . وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . ﴾

بعد أن رغب الله تبارك وتعالى في قتال الكفار الذين يحبسون المؤمنين بمكة وَيُضَيِّقُونَ عَلَيْهِمْ وَيُسَوِّمُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ حيث قال : ﴿ وَمَالَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا . ﴾ وحُضِرَ عز وجل على الهجرة والجهاد بينَ هنا أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين رغب المسلمون وحضهم على استنقاذهم وتخليصهم من أيدي المشركين هم الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، أما من تكاسل عن الهجرة مع قدرته عليها ورضي بالعيش مع المشركين فإنه غير معذور في التخلف عن الهجرة لأن المسلمين وقتئذ في أمس الحاجة إلى مَنْ يُكْثِرُ سَوَادَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ولأن في المقام مع المشركين لغير عذر كثيرا لسواد المشركين وتقوية لهم على المسلمين مع ما يُعرض هؤلاء المتخلفين عن الهجرة للتأثر بفتنة المشركين وموالاتهم ، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة متحتمة على كل من قدر عليها حتى فتح الله عز وجل لرسوله ﷺ مكة وصارت دار إسلام فأعلن رسول الله ﷺ نسخ وجوب الهجرة من

مكة إلى المدينة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا . وقد بين الله عز وجل هنا أن دعوى الذين تكاسلوا عن الهجرة مع تمكنهم منها لو جزموا عليها وزعموا أنهم كانوا مستضعفين في الأرض هي دعوى كاذبة ، وأن عُدْرَهُمْ غيرُ مقبول حيث قال عز وجل هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ قال البخاري في صحيحه : باب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ الآية . حدثنا عبد الله ابن يزيد المقرئ حدثنا حيوة وغيره قالا : حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال : قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ ، فاكتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي ، ثم قال : أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثرون سَوَادَ المشركين على رسول الله ﷺ ، يأتي السَّهْمُ فيُرْمَى به ، فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يُضْرَب فيقتل . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآية . باب ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا المستضعفين قال : كانت أمي ممن عذر الله . باب قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ حدثنا أبو نعيم حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سَمِعَ اللهَ لِنِ حَمْدِهِ ، ثم قال قبل أن يسجد : اللهم نَجِّ عِيَّاشَ بنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللهم نَجِّ سلمةَ بنَ هشام ، اللهم نَجِّ الوليدَ بنَ الوليد ، اللهم نَجِّ المستضعفينَ من المؤمنين ، اللهم اشدِّد وطأتَكَ على مُضَر ، اللهم اجعلها سنينَ كسني يوسف اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِن الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم حيث رضوا بالقعود مع المشركين ، وبتكثيرهم سواد الكفار ، وبموالاتهم ، وتركوا الهجرة التي فرضها الله عز وجل على كل من قدر عليها وقتئذ ، وهم يعلمون أن الذين يتركون الهجرة وهم قادرون عليها تنقطع الولاية بينهم وبين المسلمين كما قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَالَكُم مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا ﴾ فأكسبوا أنفسهم بذلك غضب الله وسخطه ، وحملوها ما لا تطيق من عذاب الله ، وإن الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم ، يوبخونهم عند الموت وهم ينزعون أرواحهم من أبدانهم ويغلظون لهم القول ، ويقولون لهم : لِمَ رَضَيْتُمْ بِالْقُعُودِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَثَرْتُمْ سَوَادَهُمْ ، وَصِرْتُمْ فِي الصِّفِّ الْمَعَادِيِّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ ولم يكن لهؤلاء جوابٌ على سؤال الملائكة إلا أن يدَّعُوا كذباً وزوراً أنهم كانوا تحت وطأة الكفار ، وكان المشركون يستضعفونهم ، ويمنعونهم من الهجرة ، وقوله عز وجل : ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ أي أجابتهم الملائكة برفض قبول دعواهم وقالوا لهم : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَبِلَادُهُ فَسِيحَةً فَتَنْتَقِلُوا إِلَيْهَا ، وَتَقِيمُوا دِينَكُمْ وَشَرِيعَتَكُمْ ، وَتُرِيدُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَتُكْثِرُوا سَوَادَهُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ إِذْ يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَجِدُوا حِيلَةً فِي الْفِرَارِ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ وَالْقَهْرِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْحَبْشَةِ فَوَجَدُوا فِيهَا الْمَأْوَى وَالْأَمْنَ ، أَوِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَجَدُوا فِيهَا الْعِزَّةَ وَالْأَمْنَ

والاستقرار ونشر دين الله وإقامة شرعه، وتأيد رسوله ﷺ، ومن الثابت أن الله عز وجل قد وكل ملائكة لقبض أرواح المؤمنين، وملائكة لقبض أرواح الكافرين كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أهل الأرض فذُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّلَ به مائة، ثم سأل عن أهل الأرض فذُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم أي حكماً، فقال: قيسُوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاوسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة، وقوله عز وجل: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي فهؤلاء الذين لم يهاجروا وظلموا أنفسهم، واستمروا على ذلك إلى الموت حتى توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم مصيرهم في الآخرة جهنم وهي مسكنهم وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيراً ومسكناً ومأوى ثم يَبِّنُ عز وجل المستضعفين حقاً وصدقاً وأنهم هم المعذورون المقبول عذرهم حيث حبسهم المشركون وقهروهم على البقاء في قبضتهم فقال عز وجل: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فأولئك عسى الله أن يعفو

عنهم ، وكان الله عفوًا غفورًا . ﴿ أي وقد استثنى الله عز وجل من هذا الوعيد الشديد مَنْ حبسه العذر حقيقة من عجزه الرجال الضعاف والنساء والصبيان الذين لا يقدرّون على الهجرة ولا حيلة لهم في الخروج من بين ظهرائي المشركين لضعف أجسامهم وعدم بصرهم بالطريق ، وعجزهم عن الانفلات من قبضة المشركين فهؤلاء لعل الله عز وجل يعفو عنهم للعذر الذي هم فيه ماداموا مؤمنين بالله وبرسوله ﷺ لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام . والتعبير بقوله عز وجل : ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ للتنبيه على تأسيس من ترك الهجرة اختياراً وإيثاراً لدار الكفر على دار الإسلام . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الأرض مراعماً كثيراً وسعة ﴾ ترغيب في الهجرة في سبيل الله ، وإعلام لمن كره الهجرة من وطنه الكافر أهله بالله خوفاً على نفسه من مشقة الهجرة أو أن تصيبه فاقة وفقرٌ إن خرج من ماله وبلده بأن الله عز وجل يعده بالغنى ورغد العيش والحياة الكريمة فمن ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه ، ويسّر له تبارك وتعالى دنياه ودينه ، وأوجد له من السعة والنعم الجليلة والمراتب العظيمة في دار هجرته ما يُرغم به أنوف أعدائه . وقوله عز وجل : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً . ﴾ هذا وعدٌ كريم من الله عز وجل لمن خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله محمد ﷺ ثم أصابته مصيبة الموت قبل أن يصل إلى دار هجرته بأن الله تبارك وتعالى يمنحه أجر المهاجرين كاملاً غير منقوص فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً ، وأن الله عز وجل يُيسّره بمغفرة منه ورحمة ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا . وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل فضله على المهاجرين بإتمام نعمته عليهم وإعطائهم ثواب الهجرة غير منقوص بمجرد مفارقتهم بيوتهم مهاجرين إلى الله ورسوله ذكر عز وجل هنا فضله على جميع المؤمنين بما يسره لهم من التشريع حيث رخص لهم في قصر الصلاة الرباعية في السفر، وفيه إيلاء إلى الحظ على الهجرة إلى الله ورسوله والجهاد في سبيل الله حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي وإذا سرتهم في الأرض وصرتهم على سفر فليس عليكم حرج ولا إثم ولا وزر أن تخففوا من صلاتكم التي فرضها الله عز وجل عليكم ، وقد بين رسول الله ﷺ ما يقصر من الصلاة ومقدار قصره حيث أوضح ﷺ أنه لا قصر إلا في الصلاة الرباعية . وهي الظهر والعصر والعشاء أما الصبح والمغرب فلا قصر فيهما ، وأن قصر الرباعية يكون بجعلها ركعتين ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر وفي رواية للبخاري : ثم هاجر ففرضت أربعاً وأقرت صلاة السفر على

الأول، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، كما روى أحمد بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول ما افترض على رسول الله ﷺ الصلاة ركعتان ركعتان إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً ثم أتم الظهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً في الحضر وأقر الصلاة على فرضها الأول في السفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم الكفار بمكروه، وهذا الشرط لبيان الواقع عند نزول هذه الآية وهو ما كان يتعرض له المسلمون من أذى من المشركين إذ كان غالب أسفار المسلمين مخوفة، حيث كان المشركون حرباً للإسلام وأهله، والقاعدة عند الأصوليين أن الشرط إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا فإن قصر الصلاة لا يشترط فيه خوف فتنة الذين كفروا ولذلك روى مسلم في صحيحه من طريق يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب ﴿ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبأنا أبو إسحاق سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، آمن ما كان، بمنى ركعتين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾. تذكير بنعمة الله عز وجل على المؤمنين بما يسره لهم من التشريع وتحذير من أهل الكفر ببيان أن قلوبهم مملوءة بالعداوة للمسلمين. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ الآية، بعد أن بين الله عز وجل فضله على المسلمين بالترخيص لهم في قصر الصلاة الرباعية في

السفر شرع في بيان نعمة أخرى وهي ما تفضل عز وجل به على المسلمين فسَهِّل عليهم كيفية الصلاة في حالة الخوف تيسيراً على المسلمين وحرصاً على سلامتهم ، ولذلك كان من المقررات عند علماء أصول الفقه أن المشقة تجلب التيسير، وفي هذا تنبيه أيضاً لمزية الصلاة وفضلها وأنه يجب المحافظة عليها في سائر الأحوال من الصحة والمرض والخوف والأمن وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أُمِتُّمْ فاذكروا الله كما عَلَّمَكُم مالم تكونوا تعلمون . ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ أي وإذا كنت يا محمد حاضراً في أصحابك وشهدت معهم القتال فأردت أن تقيم بهم الصلاة وتؤديها معهم ، وهذا الأسلوب نظير قوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ونظير قوله عز وجل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ وقد فهم منها جميع أصحاب رسول الله ﷺ وجوب أخذ الزكاة من أصحابها بعد رسول الله ﷺ وقاتل أبو بكر رضي الله عنه ومعه أصحاب رسول الله ﷺ من مَنَعَ الزكاة مُدْعِياً أن المأمور بأخذها في الآية هو رسول الله ﷺ وأنه هو الذي يصلي عليهم فإذا مات رسول الله ﷺ انقطع وجوب الزكاة . فبين أبو بكر رضي الله عنه أنهم مخطئون ووافقه على ذلك جميع أصحاب رسول الله ﷺ ولذلك ذهب عامة العلماء إلى أن صلاة الخوف مشروعة إلى يوم القيامة . ولا عبرة بشذوذ من شذَّ وادعى أنها كانت خاصة برسول الله ﷺ . وقوله عز وجل : ﴿ فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾ أي فاجعل الجماعة فرقتين فرقة تصف وراءك وتصلي معك ركعة وهم يحملون أسلحتهم ، وفرقة تقف وراءكم لحماية ظهوركم وتكون في نحر العدو ، فإذا سجدت بهذه الطائفة وأنهيت السجود من الركعة الأولى قمت وثَبَّتَ قائماً ، وقامت الطائفة

التي صلت معك ركعة فأتممت لنفسها الركعة الثانية فإذا سلمت هذه الطائفة قامت في وجه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصفت وراءك وصليت بهم الركعة الثانية بالنسبة لك فإذا أنهيت السجود من ركعتك الثانية ثبتت جالساً، وقام الذين خلفك فصلوا وأتموا لأنفسهم الركعة الثانية وسلمتم جميعاً، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق صالح بن خوات بن جبير الأنصاري عن صلي مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صلت معه وطائفة وجاء العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفا وجاء العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم. وقد بين هذا الحديث المتفق على صحته بعض ما جاء مجملاً في هذه الآية الكريمة، التي تدل دلالة ظاهرة على وجوب صلاة الجماعة، وهذه الرواية تبين إحدى كفيات صلاة الخوف، وقد صحت الروايات عن رسول الله ﷺ التي تبين كيفية أخرى من كفيات صلاة الخوف فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فوازينا العدو، فصاففناهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي بنا، فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاءوا فركع بهم ركعة وسجد سجدتين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين. وقد أورد مسلم رحمه الله في صحيحه كيفية ثالثة من حديث جابر بن عبد الله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ، وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف الآخر في

نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً. وهذا الحديث يفيد أن تغير كيفية صلاة الخوف جاء بحسب موقع العدو من القبلة، وأنه إذا كان جهة القبلة كانت كيفية صلاة الخوف مغايرة لكيفيتها إذا كان العدو لغير جهة القبلة. وهذه الأخبار الصحيحة الثابتة تفيد أن صلاة الخوف ركعتان، أما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة. فقد قال النووي رحمه الله: قوله: وفي الخوف ركعة. المراد ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً، قال: وهذا التأويل لا بد منه للجمع بين الأدلة اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي وليحذروا حذراً شديداً وليحملوا أسلحتهم، وقد ذكر الله عز وجل في الطائفة الأولى الأمر بأخذ الأسلحة فقط وذكر في الطائفة الثانية الأمر بأخذ الحذر والأسلحة للتنبيه على أن العدو قد لا ينتبه للمسلمين في أول الصلاة فإذا ركعوا انتبه العدو لذلك وقد يغتنم الفرصة فيهجم على المسلمين حينئذ فنبه الله المسلمين في هذا الموضع زيادة تنبيه حيث أمرهم بأخذ الحذر والأسلحة، وقوله عز وجل: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ هذا بيان لسبب الأمر بأخذ الحذر والسلاح في الصلاة، أي تمنى الذين كفروا لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها وعن أمتعتكم التي بها

بلاغكم في سفركم فتسهون عنها فيحملون عليكم وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة ويستأصلونكم . وقوله عز وجل : ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم ، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً .﴾ أي ولا حرج عليكم إن كان عليكم مطر يؤذيكم أو كانت بكم جراحة أو مرض يتعبكم بسببه حمل السلاح في الصلاة ألا تحملوا أسلحتكم في الصلاة ، واحترسوا منهم أن يميلوا عليكم أثناء صلاتكم فلا تغفلوا عن تحركاتهم ، وكونوا على أهبة واستعداد لملاقاتهم ، وثقوا بأن الله معكم وقد أعد لأعدائكم الكافرين عذاباً مُذلاً لا يخرجون منه أبداً وهو نار جهنم ، وأنتم على خير ما دمتم مسترشدين بدين الإسلام مستمسكين بتعاليمه .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . ﴾

بعد أن بين الله عز وجل للمسلمين كيفية من كيفيات صلاة الخوف عقب الترخيص لهم بقصر الصلاة في السفر، وقد اشتملت صفة صلاة الخوف على حركات وأعمال لا يؤذن فيها إلا في صلاة الخوف، كما أن صلاة السفر قد نقصت في الرباعية وصارت ركعتين بدل أربع ركعات، نبه الله عز وجل المسلمين إلى ذكره وشكره بعد الفراغ من صلاة السفر وصلاة الخوف، وأن يحرص المسلم على الاشتغال بذكر الله عز وجل في كل أحواله من القيام والقعود وعند الاضطجاع على جنبه، وأن يديم ذكره عز وجل بالتهليل والتكبير والدعاء بنصر الإسلام وإعلاء رايته وإعزاز أهله وخذلان أعدائه، فإن ذكر الله عز وجل من أعظم أسباب النصر كما قال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ﴾ كما أن في الإكثار من ذكر الله عز وجل بعد صلاة السفر المقصورة وصلاة الخوف التي اشتغل المصلي فيها بالكثير من الحركات التي لا تجوز في غير صلاة الخوف نوع جبران لهذا القصر وتلك الحركات . على أن الله عز وجل قد أرشد عباده إلى الإكثار من ذكره بعد قضائهم عباداتهم حيث يقول عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ووصف عباده الصالحين ذوي الألباب بأنهم يذكرون الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ حيث يقول : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ الآية . وقد روى

الترمذي بسند حسن من حديث عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ ، فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله . ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى أورد من ذكر الله عز وجل بعد كل صلاة من الصلوات الخمس فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، كما روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلّم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . كما روى مسلم من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان يقول دبر كلّ صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة والفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال ابن الزبير : وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضلٌ من أموال يحجون ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون ، فقال : ألا أعلمكم شيئاً تدركون من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون وتحمّدون وتكبّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : من سبح الله في

دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر كما روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر . كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : يامعاذ ، والله إني لأحبك ، فقال : أوصيك يامعاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أي أدبتموها وفرغتم منها ، فالقضاء هنا بمعنى الأداء كما قال الشاعر :

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقَ غَرِيمَةٍ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيمَةٍ هـ

وقوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي فإذا أمتم فجوّدوا صلاتكم وأدوها وأقيموها كما أمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها وسجودها وجميع شئونها ، ولا تتخللوهما بالتحركات التي أبيحت لكم في صلاة الخوف ، وعدلوا أركانها وراعوا شروطها ، ولا تخرجوها عن أوقاتها التي بينها لكم رسول الله ﷺ ، ولا تضيعوها ، وقوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ شبيهة بقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلَا أَوْ رَكَبْنَا فَإِذَا أَمْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا . ﴾ قال البخاري في صحيحه : باب مواقيت الصلاة وفضلها ، وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا . ﴾ موقتاً وقته عليهم . حدثنا عبد الله بن مسلمة قال : قرأت على مالك عن ابن

شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير
فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخر الصلاة يوماً وهو بالعراق، فدخل عليه أبو
مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل ﷺ
نزل فصلى صلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى
فصلى رسول الله ﷺ ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله
ﷺ، ثم قال: بهذا أمرت، الحديث. وفي لفظ للبخاري ومسلم من طريق
ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئاً، فقال له عروة: أما إن
جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ، فقال له عمر: اعلم ما تقول
يا عروة، فقال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود
يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل فأمني فصليت معه، ثم
صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب
بأصابه خمس صلوات. كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال:
قال رسول الله ﷺ: وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل
كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ووقت صلاة
المغرب ما لم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط،
ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت
الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني الشيطان. كما روى مسلم
من حديث بريدة قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن وقت الصلاة، فقال
له: صلّ معنا هذين — يعني اليومين — فلما زالت الشمس أمر بلالاً فأذن،
ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم
أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب
الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره
فأبرد بالظهر فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها، وصلى العصر والشمس مرتفعة —

أخَرها فوق الذي كان — وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل، وصل الفجر فأسفر بها، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يارسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم، وقوله في حديث عبد الله بن عمرو «وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر» أي ووقت صلاة الظهر يبدأ من زوال الشمس ويستمر وقتها حتى يصير ظل الرجل مثله. وقوله: «ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط» هذا بيان لوقت الاختيار المستحب في صلاة العشاء الذي يتبدئ من غيوبة الشفق إلى نصف الليل، وأما وقت العشاء في الاضطرار فهو ممتد من نصف الليل إلى طلوع الفجر، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: ليس في النوم تفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى. وهو يفيد امتداد وقت كل صلاة إلى دخول وقت الصلاة الأخرى غير أن الإجماع منعقد على أن صلاة الفجر ينتهي وقتها بطلوع الشمس، ولا يتبدئ وقت الظهر إلا من زوال الشمس، وقد أكد حديث عبد الله بن عمرو ذلك وبيّنه، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. وقد بينت هذه الأحاديث الصحيحة مجمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ المفيد لفرضيتها وتوقيتها. وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.﴾ ترغيب للمؤمنين في الهجوم على أعداء الله ورسوله المحاربين للمسلمين وتشجيع لحزب الله على ملاحقة حزب الشيطان لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، أي ولا تضعفوا في طلب

الكفار لقتالهم وملاحقتهم لاستئصال شأفتهم ، فإن أصابتكم آلام وأوجاع وجراح في محاربتهم فإنهم تصيبهم الجراح والأوجاع والآلام ومع ما يصيبهم من الجراح والأوجاع والآلام فإنهم يقاتلونكم تحت راية الشيطان وأنتم تقاتلونهم تحت راية الإسلام ، وتأملون من الله مولاكم نصره وتأييده ومثوبته لكم بالحسنى والنعيم المقيم ، وأعداؤكم لا مولى لهم إلا الشيطان ، وكيده ضعيف ، فلا تخافوهم واعتصموا بحبل الله ، العليم بمصالح خلقه وبأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة ، الحكيم في تدبيره وقضائه وقدره ، وأمره ونهيه المعز لأوليائه المذل لأعدائه ، وثقوا بوعده إنه عز وجل لا يخلف الميعاد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا . ﴿

بعد أن حرص الله عز وجل المؤمنين على مهاجمة الكفار وملاحقة أعداء الله وقتالهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وبين لهم أنهم على خير سواء كانوا غالبين في المعارك أو مغلوبين ، أعلن تبارك وتعالى هنا أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ لإقامة العدل بين الناس ، وأنه يتحتم عليهم أن يكونوا قوامين بالقسط ولو على أنفسهم ، وأنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يجور عن منهج القرآن ، بل يجب الحكم بهذا الكتاب العظيم ، والسير على منهاجه في معاملة الناس بغض النظر عن عداوتهم أو محبتهم كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ﴿ وأنه يجب العدل في معاملة المنافقين والكافرين كما يجب العدل في معاملة المسلمين وأنه ينبغي للمسلمين أن يتفطنوا فلا يدافعوا عن أحدٍ إلا ببينة ، ولا يغتروا فيجادلوا عن المنافقين الخائنين لله ولرسوله وللمسلمين ، لأن العدل تقوم به السموات والأرض ، ولذلك أثر عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه لما بعثه رسول الله ﷺ خَارِصًا على أهل خيبر من اليهود وعلموا بقدومه أعدوا له رشوة يرشونه بها حتى يخفف عنهم في الخرص فرفض قبول رشوتهم وقال لهم : يا إخوان القردة والخنازير والله ما تركت وجهاً أحب إلي من

وجه رسول الله ﷺ ولا أقبلت على وجه أبغض إليّ من وجوهكم ، ولا يمنعني حبي لرسول الله ﷺ وبغضي لكم أن أقيم العدل فيكم ، فقالوا : بهذا العدل قامت السموات والأرض قال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ الإسفرائيني بها قال : أخبرنا الحسن بن محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب حدثنا عبد الواحد بن غياث حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر — فيما يحسب أبو سلمة — عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الأرض والزرع والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغيّبوا شيئاً فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيّبوا مسكاً فيه مال وحلي لحبي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعمر حُيَيّ : ما فعل مسك حبي الذي جاء به من النضير؟ فقال : أذهبت النفقات والحروب ، فقال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب ، وقد كان حبيّ قبل ذلك دخل خربة ، فقال : قد رأيت حياً يطوف في خربة ههنا ، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب وسبي رسول الله ﷺ نساءهم وذرائعهم وقسم أموالهم بالنكت الذي نكثوا ، وأراد أن يجلّهم منها ، فقالوا يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ ، وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يُضمّنهم الشطر ، فشكوا لرسول الله ﷺ شدة خرصه ، وأرادوا أن يرشوه

فقال : يا أعداء الله تطعموني السحت ، والله لقد جئتم من عند أحب الناس إليّ ، ولأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحيي إياه على ألا أعدل عليكم ، فقالوا بهذا قامت السموات والأرض ، ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي إنا أوحينا إليك هذا القرآن العظيم لتقضي للناس في قضاياهم وتفصل بينهم في منازعاتهم على نور هذا الكتاب الملازم للحق والعدل والصدق بما علمك الله عز وجل وعرفك وأطلعك بما أنزل عليك من الوحي ، ووضع لك من قواعد العدل والإنصاف للولي والعدو ، وأن لا يؤخذ أحد إلا بجريرته ، مع الثبوت في الحكم ، وعدم قبول دعوى أحد على أحد إلا ببرهان ، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنه قد يقضي بين المتخاصمين بما يقدمه كل واحد منهما من حجة ، وقد يكون بعضهم أقوى بحجته من بعض ، فإذا قضى لأحد بسبب حجته القوية التي قد تكون مخالفة للواقع فإنه يقضي له بقطعة من النار فقد روى البخاري في كتاب الحيل من صحيحه : بابٌ حدثنا محمد بن كثير عن سفيان عن هشام عن عروة عن زينب ابنة أم سلمة عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وأقضى له على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار . وقال البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه : باب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه ، فإن قضاء الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل

بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها . ثم ساقه في باب القضاء في كثير المال وقليله من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمع النبي ﷺ جلبة خصام عند بابه ، فخرج عليهم فقال : إنما أنا بشرٌ ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضاً أن يكون أبلغ من بعض ، أقضي له بذلك ، وأحسب أنه صادق ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها . وأخرجه مسلم من طريق أبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار ، ثم ساقه من طريق ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صادق فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليدرها . وقوله عز وجل : ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً .﴾ هذا إرشاد من الله عز وجل لرسوله ﷺ ولجميع المؤمنين ألا يجادلوا ويدافعوا عن الخونة مهما كانوا سواء كانوا من المنافقين أو كانوا من غير المنافقين ، فمن عرفت خيانتة لا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدافع عنه ويحامي له ، وأنه ينبغي للمؤمن أن يحرص على أن يستغفر ربه وأن يتوب إليه عز وجل ويحرص على رضى الله تبارك وتعالى الذي يحب المستغفرين ويتوب عليهم لأنه عز وجل هو الغفور

الرحيم ، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الدفاع والمحاماة عن الخونة وبين تبارك وتعالى أنه لا يجب الخائنين فلا يحل لمسلم أن يدافع عمن لا يحبهم الله عز وجل ، لأن من دافع عن الخونة كان راضياً بالخيانة مقررّاً لها مدافعاً عن مرتكبي المعاصي والأثام ، وهذا لا يليق بمسلم . وإيراد التحذير بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ المعصوم من كل ذنب المبرء من كل عيب صلوات الله وسلامه عليه إنما هو من باب قولهم : إياك أعني واسمعي يا جارة ، على أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه ، وأن الأمر بالاستغفار لا يقتضي أن يكون المستغفر قد ارتكب معصية وذنباً ، غير أن توجيه الخطاب بهذه الوصايا إلى رسول الله ﷺ للفت انتباه المسلمين إلى شدة الحذر من الدفاع عن المنافقين حتى ولو كانوا في محاصرة مع اليهود أو غيرهم والمعلوم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جميعاً كانوا لا يعلمون نفاق بعض المنافقين وكانوا يغترون بما يرونه من ظهورهم بمظاهر المسلمين ، ولذلك جاء في حديث الإفك أن سعد بن عبادَةَ سيد الخزرج رضي الله عنه دافع عن عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين حيث لم يكن عالماً بنفاقه لما كان يظهره عدو الله من الطاعة والتذكير كل يوم جمعة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿الذين يَخْتَنُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يُخَوِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة ، ولا شك أن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب الجميل وأوصلها إلى العقاب الويل ، فكان ذلك منه خيانة لنفسه ، ولذلك يقال لمن ظلم غيره : قد ظلمت نفسك ، والتعبير بقوله ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ للإشعار بأن الإنسان إذا كثرت منه الخيانة والإثم كان حريّاً بغضب الله وسخطه وعدم رضاه عنه . وفي هذا عظيم التهديد والوعيد لمن يكون بهذه المثابة ولمن يدافع ويجادل عنه وقد روى البخاري من حديث خولة بنت عامر الأنصارية وهي امرأة حمزة رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة .

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا. هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.﴾

بعد أن حذر تبارك وتعالى أشد التحذير من الجدل والدفاع والمحاماة عن المنافقين وسائر الخونة، وأنذر الخوَّان الأثيم ببعض الله له، والويل كل الويل لمن أبغضه جبار السموات والأرض العزيز المقتدر، وبَّخ هنا المنافقين بما يدل على سفاهة عقولهم، وشدة غباوتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم ما أتوا من الخيانة، وركبوا من العار والمعصية ﴿من الناس﴾ الذين لا يقدرّون لهم على شيء إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم، وشنيع ما ركبوا من جرمهم إذا اطلعوا عليه، حياء منهم وحذراً من قبيح الأحداث ﴿ولا يستخفون من الله﴾ الذي هو مُطَّلِعٌ عليهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وبيده العقاب والنكال وتعجيل العذاب، وهو أحق أن يستحى منه من غيره، وأولى أن يعظم بألا يراهم حيث يكرهون أن يراهم أحدٌ من خلقه ﴿وهو معهم﴾ يعني: والله شاهدهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ يقول: حين يسوون ليلاً ما لا يرضى من القول، فيغيرونه عن وجهه ويكذبون فيه اهـ وهذا المقام شبيه بما ذكره الله عز وجل عن المنافقين في

الآية الحادية والثمانين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْتَوْنَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .﴾ وقوله عز وجل : ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا .﴾ تأنيب وتوبيخ وتهجين لمن يجادل ويحامي عن المنافقين والخنوة بأنهم إن دافعوا عنهم في الحياة الدنيا ودفعوا عنهم عقوبة جرائمهم التي يستخفون بها من الناس ولا يستخفون من الله فهل يستطيعون المحاماة والدفاع والجدال عنهم عند الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، ويفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه . وماذا يكون صنيع هؤلاء يوم القيامة بين يدي من يعلم السر وأخفى ، وهل يظن أحد من هؤلاء المجادلين عن المنافقين والخنوة أن يقوم وكيلاً عن المنافقين في عرصات القيامة يجادل عنهم ويدفع عنهم عذاب جبار السموات والأرض ؟ ثم بعد هذا الترهيب شرع يسلك معهم مسلك الترغيب ، فدعاهم إلى التوبة والرجوع إلى الله عز وجل والاستغفار من خطاياهم التي اكتسبوها ونحبرهم عن جوده وكرمه وقبوله توبة التائبين مهما كانت ذنوبهم وخطاياهم ، وأنه لا ينبغي لمن يريد الخير لنفسه أن يقنط من رحمة الله ، ولا أن ييأس من عفوه ، فقال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .﴾ وهو يفيد سعة رحمة الله وأنه لا يرد من تاب إليه وأقبل عليه ولو كانت خطاياهم مثل زبد البحر قال ابن جرير: يعني بذلك جل ثناؤه : ومن يعمل ذنباً وهو السوء ، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بإكسابه إياها ما يستحق به عقوبة الله ﴿ثم يستغفر الله﴾ يقول : ثم يتوب إلى الله بإنابته مما عمل من سوء وظلم نفسه ، ومراجعته ما يحبه الله من الأعمال الصالحة التي تمحو ذنبه ، وتذهب جرمه ﴿يجد الله غفورا رحيماً﴾

يقول: يجد ربه ساتراً عليه ذنبه، بصفحه له عن عقوبة جرمه، رحيماً به، إلى أن قال رحمه الله: حدثني محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن عاصم عن أبي وائل: قال: قال عبد الله: كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبد الله: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حدثني يعقوب قال: حدثنا هشيم قال: حدثنا ابن عون عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت، فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: ما لها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكي، فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال: فمسحت دمعها ثم مضت، حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال اهـ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. بعد أن رهب الله عز وجل من معصيته ورغب في التوبة والاستغفار من المعاصي والسيئات ذكر هنا على سبيل التهيب والترغيب أيضاً أن أي ذنب يرتكبه الإنسان فإنه هو وحده الذي يتحمل عقوبته وأن وبال ذلك راجع إليه وحده فلا تزر وازرة وزر

أخرى، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فمرتكب المعصية لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً. ومن يأت ذنباً متعمداً فإنها يكتسب ويجترح وبال ذلك الذنب وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره، ولن يبلغ العبد نفع ربه فينفعه، ولن يبلغ ضره فيضره، كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾. هذا ترهيب عظيم من أن يرتكب الإنسان شيئاً مما يسوء سواء كان متعمداً أو غير متعمد ثم يلصقه بإنسان برىء منه لم يقترفه، وأن من يفعل ذلك فقد تحمل بعمله هذا فرية وكذباً وإثماً عظيماً وجرمًا فظيعاً، والفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد أما الإثم فلا يكون إلا عن

عمد . والبهتان هو الفرية والكذب بأن يقول على الإنسان ما ليس فيه قال في القاموس المحيط : بهته كمنعه بهتًا وبهتًا وبهتانا قال عليه ما لم يفعل والبهتة الباطل الذي يتحير من بطلانه والكذب كالبهت بالضم اهـ والبهتان أقبح من الغيبة والنميمة وقد روى البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يدخل الجنة قتاتٌ . وفي رواية مسلم : نمام ووصف الله عز وجل الغيبة بأقبح الأوصاف التي تجعل العاقل ينفر منها أشد النفور حيث يقول عز وجل : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ، وفي لفظ لمسلم : إذا قلت لأخيك ما فيه فقد اغتبته ، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهته . ولا شك أن كلمة واحدة من غيبة أو نميمة أو بهتان قد تحول بين الإنسان وبين الموت على الإسلام لأنها من سخط الله وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم ، وفي رواية للبخاري ومسلم : يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، وإنما كان البهتان أقبح من الغيبة والنميمة لأن صاحبه يفترى ما يقول . ولذلك قال الشاعر :

لي حيلةٌ فيما ينم وليس في الكذاب حيله من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة
وقد وصف الله عز وجل هنا من يرمي البريء بجريسته هو بأنه قد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، وقال عز وجل في سورة الأحزاب : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مَبِينًا . ﴾

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا . لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . ﴾

بعد أن أوضح الله عز وجل لرسوله ﷺ وللمؤمنين بعض مواقف المنافقين الذين يُبَيِّنُونَ ما لا يَرْضَى من القول وندد بمن يجادل عن المنافقين والخونة ، مما يشعر بشدة ما يحكمه المنافقون من نفاقهم سعياً لإضلال المسلمين ، وبعد ما ساقه عز وجل من الترغيب والترهيب أوضح هنا أنه عصم رسوله محمداً ﷺ بفضلِهِ ورحمته ، فلا يستطيع الغواية من شياطين الإنس والجن أن يضلوه ، ومهما حاولوا من ذلك فلن يضرُوا إلا أنفسهم ، وبين أنه تفضل على هذا النبي العظيم والرسول الكريم فاختره واصطفاه ، وآتاه القرآن والنبوة ، وعلمه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ أي ولولا أن الله تبارك وتعالى تفضل عليك فعصمك وصانك وأيدك بتوفيقه لك وإحسانه إليك وكشف عورات المنافقين وتعريفك بما يبيتونه لك مما لا يرضى الله عز وجل من أقوالهم وأفعالهم وتدابيراتهم السيئة للإسلام والمسلمين ، وتثيتك على طريق الرشاد وسلوك الصراط المستقيم لقصدت فرقة منهم أن يزلوك عن طريق الحق ، ويوقعوك في الحيرة والشك ، ولكن ما عصمك الله عز وجل به وما أعانك من تأييده وتسديده صرفهم عنك وحال بينهم وبين إيقاعك فيما يشتهون ، ووقاك شرهم وحماك من سوء صنيعهم وما أحسن قول الشاعر :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

والله در الشاعر إذ يقول :

إذا كان عون الله للعبد مسعفا تأتي له من كل شيء مراده
وإن لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضى عليه اجتهاده
فقد صان الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ وعصمه ، وجعل تدبير المنافقين
واليهود ضد رسول الله ﷺ تدميراً لهم ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله . وقوله
عز وجل : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِؤُنَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ولن تؤثر
محاولتهم إضلالك عليك بشيء أبداً ، لأن الله عز وجل قد صانك من
الضلال وعصمك من معصيته فلن تستطع شياطين الجن والإنس صرفك
عن صراط الله المستقيم ، ولن يعود وبال ما أَرَادوه من الإضلال إلا على
أنفسهم ، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجل قد عصمه من الشيطان
حتى صار الشيطان المُوَكَّلُ به لا يأمره إلا بخير فقد روى مسلم في
صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ : ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن : قالوا : وإياك
يا رسول الله ؟ قال : وإيائي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا
بخير ، وفي لفظ : وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . كما روى
مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها
ليلاً قالت : فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : مالك ؟ أغرت ؟
فقلت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك فقال رسول الله ﷺ : أقد جاءك
شيطانك ؟ قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل
إنسان ؟ قال : نعم ، قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي
أعانني عليه حتى أسلم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ بيان للنعم الكبرى ، والمنن العظمى التي
تفضل الله بها على أكرم خلقه ، وأفضل رسله ، وسيد ولد آدم محمد بن عبد

الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه ورحمته
 وبركاته عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج
 منهجهم إلى يوم الدين ، ومعنى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أي
 وأوحى الله عز وجل إليك القرآن الحكيم ، المشتمل على تبيان كل شيء
 المهيمن على كل كتاب أنزل ، وفيه هدى ورحمة ، وشفاء لما في الصدور ،
 وآتيناك من بحار الحكمة ما لم نعطه أحداً سواك ، ففهمناك الكتاب ،
 وأرشدناك إلى الصواب ، فوضعت كل أمر في موضعه اللائق به ، وعرفت
 مجمل الكتاب فبينت للناس ما نزل إليهم ، وهديت إلى السداد ، وسلكت
 منهج الرشاد ، وعرفت عباد الله أسباب سعادتهم ، في عاجلتهم وآجلتهم ،
 ولم تترك شيئاً يعود عليهم بالخير في دنياهم أو آخراهم إلا أمرتهم به ،
 وحضضتهم عليه ، ولم تترك سبيلاً يصيبهم منه شر في عاجلتهم أو آجلتهم
 إلا نهيتهم عنه وحذرتهم منه ، فلا تأمرهم إلا بخير ولا تنهاهم إلا عن شر ،
 حتى قال المشركون لبعض أصحاب رسول الله ﷺ : لقد علمكم نبيكم كل
 شيء . فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال :
 قيل له : قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال : فقال : أجل ،
 لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستجي باليمين أو أن
 نستجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستجي برجيع أو بعظم ، وفي لفظ
 لمسلم من حديث سلمان رضي الله عنه قال : قال بعض المشركين وهو
 يستهزئ : إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة ، فقال : أجل ،
 إنه نهانا أن نستجي أحداً بيمينه ، أو يستقبل القبلة ونهى عن الروث
 والعظام وقال : لا يستجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار . قال في القاموس
 المحيط : والحكمة بالكسر العدل ، والعلم ، والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل
 وأحكامه أتقنه فاستحكم ، ومنعه عن الفساد اهـ وقوله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمَكَ

ما لم تكن تَعْلَمُ ﴿١﴾ أي وآتاك علوم الأولين والآخرين ، وأخبار السابقين
 واللاحقين ، وعلوم الدنيا والآخرة ، مما لم تكن تعرفه أنت ولا قومك من قبل
 كما قال تبارك وتعالى : ﴿٢﴾ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها
 أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . ﴿٣﴾ وكما قال عز
 وجل : ﴿٤﴾ ذلك من أنباء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم
 وهم يمكرون . ﴿٥﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٦﴾ كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ من أنباء ما قد
 سَبَقَ ، وقد آتيناك من لَدُنَّا ذِكْرًا . مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا .
 خالدين فيه وساءَ لهم يوم القيامة حِمْلًا . ﴿٧﴾ وكما قال عز وجل ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
 يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ﴿٩﴾ وكما قال عز وجل :
 ﴿١٠﴾ وما كنت بجانب الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من
 الشاهدين . وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وما كنت ثابِتًا في أهل
 مدين تتلو عليهم آياتنا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا
 وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ . ﴿١١﴾ وكما قال عز وجل : ﴿١٢﴾ وكذلك أوحينا إليك رُوحًا مِن أَمْرِنَا ، ما
 كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صراط الله الذي له ما في
 السموات وما في الأرض ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . ﴿١٣﴾ وكما قال عز وجل : ﴿١٤﴾ كما
 أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . ﴿١٥﴾ وكما قال عز وجل : ﴿١٦﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
 وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . ﴿١٧﴾ وكما قال
 تبارك وتعالى : ﴿١٨﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
 وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وآخرين منهم لما يَلْحَقُوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ﴿ ولذلك كله ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله لحبيبه ﷺ ﴾ وكان فضلُ الله عليك عظيماً ﴾ وبعد أن بيّن عز وجل فضله العظيم على محمد سيد المرسلين ﷺ شرع يُبيّن بعض قواعد الخير التي أوحى بها إلى رسوله ﷺ حيث يقول : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . ﴾ أي لا خير فيما يتناجى به الناس ويخوضون فيه من الكلام سواء كان سرّاً أو جهراً إلا ما كان لنفع الناس وإيصال الخير لهم أو دفع الأذى والضرر عنهم مما يثمر سلامة أبدانهم وأرواحهم وصلاح معاشهم ومعادهم كالأمر بالصدقات على المحتاجين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين ، وفي هذا تنديد بالمنحرفين عن منهج رسول الله ﷺ الذين يبيّتون ما لا يرضى من القول ، وثناءً على المؤمنين الذين يحرصون على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فلا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ونفع عباده سواءً كان كلامهم وذكرهم سرّاً أو جهراً وأكثر ما تستعمل النجوى فيما كان سرّاً من الكلام وقد تستعمل في الجهر كذلك قال ابن منظور في لسان العرب : وفي التنزيل العزيز : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ قال أبو إسحاق : معنى النجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة والاثنان ، سرّاً كان أو ظاهراً وقوله أنشده ثعلب : (يَخْرُجْنَ مِنْ نَجِيّهِ لِلشَّاطِئِ) فسرّه فقال : نجيّه هنا صوته ، وإنما يصف حادياً سَوَاقاً مصوّتاً اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قال الفخر الرازي : والمعنى أن هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات وإن كانت في غاية الشرف والجلالة إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مرضاته ، فأما إذا أتى بها للرياء والسمعة انقلبت القضية

فصارت من أعظم المفسد، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفية الداعية عن الالتفات إلى غرض سوى طلب رضوان الله تعالى ونظيره قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: إنما الأعمال بالنيات . اهـ .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۚ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾

بعد أن ندد بالمنحرفين عن منهج النبي المصطفى محمد ﷺ الذين يبيتون ما لا يرضى من القول، وأثنى على المؤمنين الذين يحرسون على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ الذين لا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ونفع عباده، شرع هنا يندد بمن يشاقق الرسول محمداً ﷺ وينحرف عن منهج المؤمنين ويتوعدهم بالخذلان في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۚ﴾ أي ومن يسلك طريقاً مناقضاً لمنهج رسول الله ﷺ ويخالف هدي هذا الرسول الكريم ﷺ فيصبح في شق وجانب معادٍ للشق والجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وشريعته وهديه، من بعد ما ظهر له الحق واتضح، وتبين له أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي به من عند نفسه، وأصل المشاقة والشقاق يرجع إلى معنى الخلاف والعداوة، فمن عادى رسول الله ﷺ فإن الله خاذله لا محالة في الدنيا، ومصلية نار جهنم في الآخرة، وكذلك من خرج على جماعة المسلمين، وسلك طريقاً ومنهجاً غير طريقهم ومنهجهم فإن الله عز وجل خاذله لا محالة في الدنيا ومصلية نار جهنم في الآخرة، ولو قال قائل : هل هناك فرق بين مشاقة الرسول وبين اتباع غير سبيل المؤمنين قلنا : من عادى نصوص الكتاب والسنة كان مشاقاً لرسول الله ﷺ ومتبعاً لغير سبيل المؤمنين لأن أصل سبيل المؤمنين هو متابعة نصوص الكتاب والسنة . وقد

يَجِدُ لِلْمُؤْمِنِينَ قَضَايَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يَكُونُ مَنْصُوصاً عَلَى حُكْمِهَا فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ وَيَجْمَعُ فَقَهَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حُكْمِهَا فَإِنَّ هَذَا الْإِجْمَاعَ يَكُونُ حُجَّةً مُسْتَقْلَةً لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَخَالَفَهُ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا حَيْثُ عَصَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْجَمْعِ عَلَى الْبَاطِلِ ، فَمَنْ خَالَفَ إِجْمَاعَ فَقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَتْبَاعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ الْفَارُوقِ وَعُثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ وَعَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَسَائِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ فَقَدْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتَحَقَّ هَذَا الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ مِنْ خِذْلَانِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابُ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَذَا مُلَازِمٌ لِلصِّفَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمَخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمَحْمُودِيَّةُ فِيْمَا عِلْمُ اتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقاً ، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ ، تَشْرِيفاً لَهُمْ ، وَتَعْظِيماً لِنَبِيِّهِمْ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ قَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا طَرَفاً صَالِحاً فِي كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأُصُولِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ ادَّعَى تَوَاتُرَ مَعْنَاهَا ، وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْإِحْتِجَاجِ عَلَى كَوْنِ الْإِجْمَاعِ حُجَّةً تَحْرِمُ مَخَالَفَتَهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، بَعْدَ التَّرْوِي وَالْفَكْرِ الطَّوِيلِ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِنْبَاطَاتِ وَأَقْوَاهَا هَدْمُ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى ﴾ أَيَّ نَكَلِهِ إِلَى مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَنَخَذَلَهُ . وَلَا نَسُدُّهُ ، بَلْ نَجْعَلُهُ وَالِيّاً لِمَا تَوَلَّاهُ مِنَ الضَّلَالِ وَنَخْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَوَاهُ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ وَكَلَ إِلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهُ تَاهَ فِي بِيْدَاءِ الضَّلَالَةِ ، وَضَاعَ فِي صَحْرَاءِ الْغَوَايَةِ وَالسَّعِيدِ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَاعَتِهِ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ ، فَأَنَابَ إِلَى رَبِّهِ ، وَأَسْلَمَ وَجْهَهُ إِلَى بَارِئِهِ وَخَالَقِهِ وَتَضَرَّعَ إِلَى مَوْلَاهُ وَقَالَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ : رَحِمْتُكَ أُنْغِثْ فَأُصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكُنْ لِي إِلَى نَفْسِي أَوْ إِلَى

أحد من خلقك طرفة عين ، فإنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجز وضعف وفاقه . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَنُصِّلَ لَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ ﴾ أي ونجعل له صلاء نار جهنم يعني : ندخله فيها ونحرقه بها ، وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيراً ومسكناً ومأوى . وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ ﴾ هذا ترهيبٌ من الاستمرار على مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين ، وترغيبٌ في الرجوع إلى الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ واتباع سبيل المؤمنين ، وتقدم تفسيرها عند الحديث على قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ۝ ﴾ وبينت هناك سبب تذييل كل آية من الآيتين بما ذُكِرَتْ به ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ ۝ ﴾ هذا بيان للضلال البعيد الذي تاه فيه المشركون بسبب انحرافهم وبعدهم عن منهج رسول الله ﷺ واتباعهم غير سبيل المؤمنين الذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به شيئاً ، فقد انحصرت عبادة هؤلاء المشركين في تناقضات دعاهم إليها إبليس وجنوده من مردة الشياطين ، فعبدوا الملائكة وجعلوهم إناثاً وقالوا : هم بنات الله ، واتخذوا الأصنام وأطلقوا عليها أسماء الإناث كالعُزَّى ومناة ونائلة ، مع أنهم كانوا يكرهون البنات ، وإذا ولدت امرأة أحدهم أنثى اسود وجهه . وقد يهجر بيتها من أجل بنتها التي ولدتها كما قالت إحداهن :

مَا لَأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ بِالْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا غَضَبَانُ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَ
وَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا يَعْبُدُونَ وَاهْمُونَ مُتَنَاقِضُونَ مُتَرَدِّدُونَ ، لَا يَجْتَمِعُونَ إِلَّا فِي قَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ انْقِيَادُهُمْ لِلشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ، الَّذِي أَوْقَعَهُمْ فِي الضَّلَالِ الْبَعِيدِ ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا يُجْعَلُونَ بَعْضُهَا لَجَلْبِ الْخَيْرِ

وبعضها لدفع الضر وبعضها للانتقام ، وبعضها لغير ذلك ، وكانوا إذا مروا
بواحدة منها سجدوا لها وتضرعوا إليها وبكوا عندها ، فإذا مروا بأخرى
خجلوا أن يبكوا عندها لبكائهم عند الأولى كأنهما جارتان متباغضتان رضا
إحدهما في سخط الأخرى كما قال الشاعر :

وكيف تَرى ليلي بعين ترى بها سواها وما طَهَرَتْهَا بالمدامع
فقد روى البخاري ومسلم من طريق عروة عن عائشة رضى الله عنها
قال : قلت : أ رأيت قول الله تعالى : ﴿ إِن الصفا والمروة من شعائر الله فمن
حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قلت : فوالله ما على
أحد جناح ألا يطوف بهما ، فقالت عائشة : بشئ ما قلت يابن أختي ، إنها
لو كانت على ما أولتها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطَوِّفَ بهما .
ولكنها إنما أنزلت في الأنصار : كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي
كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء
والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن
نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إِن الصفا والمروة من
شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوِّفَ بهما . ﴾
الحديث . وإنما كانوا يتحرجون أن يطَوِّفُوا بالصفاء والمروة من أجل إساف
ونائلة المنصوبتين على الصفا والمروة فقد روى النسائي بسند قوي عن زيد بن
حارثة قال : كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما : إساف
ونائلة وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وروى الفاكهي وإسماعيل
القاضي في الأحكام بإسناد صحيح عن الشعبي قال : كان صنم بالصفاء
يُدعى إساف ووثن بالمروة يُدعى نائلة اهـ وقد وبخ الله تبارك وتعالى المشركين
الذين يرضون بعبادتهم للإناث وهم يكرهون الإناث حيث قال عز وجل :
﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى

ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ،
 أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . للذين لا
 يؤمنون بالآخرة مثُلُ السَّوْءِ والله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم . ولو يؤاخذ
 الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا
 جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . ويجعلون لله ما يكرهون . ﴿
 وكما قال عز وجل : ﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ . وإذا بُشِّرَ
 أحدهم بما ضَرَبَ للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي
 الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ
 إِنَاثًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ . ﴿ وكما قال عز وجل :
 ﴿ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم
 شاهدون . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهُمْ ليقولون . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى
 الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . ﴿ وكما قال عز
 وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ
 الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذَا قُسِمَتْ ضِيزَى . إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
 مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى . أم للإنسان ما تمنى . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى . وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
 السَّمَوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى .
 إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى . وما لهم به من
 علم إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . ﴿ وقوله تبارك
 وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لعنه الله ﴾ أي وما يعبد هؤلاء
 المشركون في الحقيقة إلا شيطاناً متمرداً قد أخزاه الله وطرده من رحمته وأبعده
 عن كل خير ، وقَدَّرَ عَلَى مَنْ تَوَلَّاهُ أَنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ كَمَا قَالَ عَزَّ
 وَجَلَّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ .

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ. ﴿٤٣٤﴾ وإن تعجب
فعجب أن يلعب الشيطان بعقول بعض من ينتسب إلى الإسلام حيث
وجدت في بلادهم بنايات من قبابٍ وأضرحة يزعمون أن تحتها وليًّا يستغيثون
به وينذرون له ويدعونه كما يدعو المؤمنون الواحدَ القهار، والكثير من هذه
الأبنية لا شيء تحتها وإنما هي حبائل الشيطان قد نصبها أولياؤه، وحتى لو
كان تحتها عبدٌ صالح ما جاز لمسلم أن يتخذهُ شريكاً لله، تعالى الله عما
يشركون.

قال تعالى : ﴿وَقَالَ لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا . وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ
وَلَا مُنِيبَهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . أُولَئِكَ مَا أَوْاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا .﴾

بعد أن بيّن تبارك وتعالى أن المشركين في ضلال بعيد ، وأنهم تاهوا عن
منهج الرشد بسبب انقيادهم للشيطان الذي جعلهم يعبدون مَنْ جعلوه إناثاً
مع كرههم لولادة الإناث وأنهم في الحقيقة لا يعبدون إلا الشيطان المريد الذي
لعنه الله وأخزاه وطرده من رحمته وأبعده عن طرق الخير شرع يبين للناس
خطوات الشيطان ليحذر من يريد الخير لنفسه أن يتبع هذه الخطوات
الشيطانية التي تلقي بمن يسلكها في بيداء الغواية والحيرة والضلالة فقال عز
وجل : ﴿وَقَالَ لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا . وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مُنِيبَهُمْ
وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ ومعنى : ﴿وَقَالَ
لَا تَخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا .﴾ أي وقال الشيطان مؤكداً كلامه
بالقسم : لأستولين على فريق مقدر من عبادك بوسوستي ، ولأجعلنهم
ينقادون لي ، وينضون تحت لوائي ورايتي ، ويصيرون من حزبي ، ويأتمرون
بأمرى ، وأجرهم إلى مرادي كما يجزُّ الإنسان دابته التي احتنكها فوضع الرّسن
في فمها وقادها حيث يشاء ، وإن كنت لا أتسلط على المخلصين من عبادك
الذين أخلصتهم لنفسك فأخلصوا الدين لك . وقد أعلن إبليس هذا
الإعلان عندما لعنه الله وطرده من رحمته ، ويُس من عفو الله ومغفرته ،
وطلب المهلة والإنظار إلى يوم الدين ، وإلى ذلك يشير الله تبارك وتعالى في

مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرني إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لا يبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءومًا مدحورًا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .﴾ وقال في سورة الحجر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لم وعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .﴾ وقال عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا . قال أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمّن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ، وما

يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا . ﴿ وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ﴾ أَيِ وِوَاللهِ لَا وُقْعَنَهُمْ فِي الْحِيرَةِ وَالشَّكِّ
وَالضَّلَالَةِ وَالبَعْدِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا زَلْزَلِنَ قُلُوبَهُمْ بِالْوَسْوَسةِ وَلَا صَرْفَنَهُمْ
عَنِ أَسْبَابِ الْفُوزِ بِجَنَاتِ النِّعَمِ ، وَلَا حَمْلَنَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا يَوْقَعُهُمْ فِي
دُرَكَاتِ الْجَحِيمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾ أَيِ وِوَاللهِ لَا زِيْغَنَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى
وَلَا مَلَأْنَهَا بِالْغُرُورِ وَلَا خَدَعْنَهُمْ بِالْأَمَانِي الْكَاذِبَةِ ، وَلَا عُلِقَنَ نَفُوسُهُمْ بِمَا يَلْهِيهِمْ
عَنِ أَسْبَابِ سَعَادَتِهِمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ مَنَايَاهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكُوا أَمَانِيَهُمْ ، بَلْ قَدْ
تَكُونُ مَنِيْتُهُمْ فِي أَمْنِيَتِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا مَرَرْنَهُمْ فَلْيَسْكُنَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أَيِ
وِوَاللهِ لَا مَرْنَهُمْ بِتَشْقِيْقِ أَذَانِ الْأَنْعَامِ لَجْعَلِهَا بِحِيرَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا لِلْأَصْنَامِ
فَلْيَشَقِّقْنَهَا ، وَقَدْ نَدَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ : ﴿مَا جَعَلَ
اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ
الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . ﴿ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَا مَرَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ
اللهِ﴾ أَيِ وِوَاللهِ لَا مَرْنَهُمْ بِتَغْيِيرِ خَلْقِ اللهِ وَتَبْدِيلِ فِطْرَةِ اللهِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ
عَلَيْهَا فَلْيَغْيِرَنَّ ذَلِكَ اسْتِجَابَةً لِلْوَسْوَسةِ الَّتِي أَمَلَأَ بِهَا صُدُورَهُمْ . وَلَمَّا كَانَ
التَّغْيِيرُ لَفْظًا مَجْمَلًا بَيَّنْتَ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ مَا يَكُونُ مِنَ التَّغْيِيرِ مَشْرُوعًا وَمَا يَكُونُ
مَنْعُوعًا ، فَمِنَ التَّغْيِيرِ الْمَشْرُوعِ الْخِتَانُ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ
الْأَظْفَرِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَصَبْغُ شَعْرِ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ بِالْوَرَسِ وَالزَّعْفَرَانِ أَوْ بِالْحِنَاءِ
أَوْ بِالْحِنَاءِ وَالكَتَمِ ، وَمِنَ التَّغْيِيرِ الْمَنْعُوعِ الْمَعْتَبَرُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ حَلْقُ بَعْضِ
رَأْسِ الصَّبِيِّ وَتَرْكُ بَعْضِهِ ، الْمَعْرُوفُ بِالْقَزْعِ وَالْوَاصِلَةُ وَالْمُسْتَوْصِلَةُ وَالْوَاشِمَةُ
وَالْمُسْتَوْشِمَةُ وَالْمَتَنَمِصَّاتُ وَالْمَتَفَلِّجَاتُ لِلْحَسَنِ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : الْفِطْرَةُ خَمْسٌ : الْخِتَانُ
وَالِاسْتِحْدَادُ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَرِ ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ ، كَمَا رَوَى
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :

خالفوا المشركين ، أوفروا اللحى وأحفوا الشوارب . وفي رواية : أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحى . كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : وقَّت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم . كما روى البخاري ومسلم من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القزع قيل لنافع : ما القزع؟ قال : يخلق بعض رأس الصبي ويترك البعض . كما روى مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى صبياً قد حلق بعض رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال : احلقوا كله أو اتركوا كله . كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة . كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لعن الله الواشئات والمستوشئات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، فجاءته امرأة فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، ومن هو في كتاب الله؟ فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته . أما قرأت : ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه . كما روى أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن أحسن ما غير به الشيب الحناء والكتم . كما روى أبو داود بإسناد جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ قد خضب بالحناء فقال : ما أحسن هذا : قال : فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم فقال : هذا أحسن

من هذا، ثم مر آخر قد خضب بالصفرة فقال : هذا أحسن من هذا كله .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ أَيُّ وَمَنْ يَنْقُدْ لِلشَّيْطَانِ وَيَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ فَقَدْ أَفْسَدَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ ۝ ﴾
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ ﴾ أي
يلقي الشيطان في نفوس أوليائه الوعود الكاذبة والأمانى الباطلة حتى إذا
حصحص الحق تبرأ منهم واندحر الشيطان وأوليأؤه كما قال عز وجل :
﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي
وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۝ وَلِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا : ﴿ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ۝ ﴾ أي وما يلقي الشيطان في نفوس أعداء الله من وعوده الكاذبة
وأمانيه الباطلة إلا الغرور والخداع الذي لا يحصلون من ورائه إلا على النكد
والنصب ، وصاروا كالذي يطلب السراب كما قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ
عِنْدَهُ فُوفَاهُ حَسَابَهُ ۝ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝ ﴾ أي هؤلاء المنقادون للشيطان
مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ولا يستطيعون أن يجدوا مهرباً منها ، وليس لهم
عنها مفر ولا خلاص ولا مناص ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا ۝ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝ ﴾ هذا ترغيب في طاعة الرحمن بعد
الترهيب من طاعة الشيطان ، أي والذين صدقوا الله ورسوله فأقروا الله
بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدوا ما فرض الله عليهم ، سيسكنهم الله عز
وجل يوم القيامة فسيح الجنان التي تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم باقين
فيها أبدا لا يريمون عنها ولا يتحولون منها ، وهذا هو الوعد الحق واليقين

الصادق ؛ لأنه وعدّ من العزيز الكريم المقتدر ولا أحد أصدق وعدًا منه ،
وحديثه أصدق الحديث ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : إن
أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا . وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا .﴾

بعد أن بيّن تبارك وتعالى أن من أهم خطوات الشيطان إلقاء الأمانى الكاذبة في قلوب الناس شرع هنا يقرر القاعدة المانعة الجامعة التي تنير الطريق الحق أمام السالكين وتكشف لهم الفرق بين أمانى المغرورين وبين ما يتمناه المؤمنون ، حتى يُعرف الفرق بين الأمانى الشيطانية وبين الوعود الرحمانية ، فمن بنى مشتهياته على الأمانى الكاذبة والوعود الزائفة التي يلقيها الشيطان في نفسه ويغره بها فهو كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ومن أمثلة ذلك ما توهمه المشركون من أن أصنامهم تنفعهم وتنفع لهم عند الله فإذا جاءوا يوم القيامة تبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وكذلك ما ألقاه الشيطان وأعوانه في نفوس أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيتهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .﴾ ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يتمناه بعض من ينتسب إلى الإسلام من رضا الله وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي حقوق الله ولا حقوق عباده ويظن أن مجرد انتسابه إلى الإسلام يكفيهِ دون أن يعمل بعمل أهل الإسلام ، ولذلك لم يكن الإيمان بالتمنى ولكن بما قر في القلب

وصدقه العمل ، وقد روى الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ عن شداد بن أوس
 عن النبي ﷺ قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من
 أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى هنا :
 ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ نَقِيرًا .﴾ أي ليس الدين والجزاء
 بشهوات الناس وتمنياتهم وأهوائهم المنحرفة عن دين الله ورسوله ﷺ ، ولو
 اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل الدين الحق
 هو ما أنزله الله تبارك وتعالى في كتابه ، وجاء به رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ ،
 وحساب الخلائق وثوابهم وجزاءهم عند الله إنما يكون بما يضعه الله عز وجل
 من موازين القسط يوم القيامة فمن يشرك بالله عز وجل ويرتكب السوء فإن
 الله تبارك وتعالى يجزيه بذلك ولا يستطيع أحدٌ كائنا من كان أن يدفع عنه من
 عذاب الله شيئاً مهما كانت صلته به في الحياة الدنيا فلا يجد قريباً أو حبيباً له
 أو نصيراً ينصره من عقاب ربه ، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وعمل بطاعة الله
 ووطاعة رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ سواء كان هذا المؤمن ذكراً أو كان أنثى
 فهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات يدخلهم الله عز وجل في
 رحمته ، ويسكنهم فسيح جنانه ، ولا يضيع من أعمالهم الصالحة مقدار نقير أو
 وزن نقير وهي النقرة التي في ظهر النواة ، بل كل من جاء بالحسنة فله عشر
 أمثالها إلى أضعاف كثيرة ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ولا يظلم
 ربك أحداً ، وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما
 نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال
 رسول الله ﷺ : قاربوا وسدّدوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى
 النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها ، ثم بين تبارك وتعالى الدين الحق الذي لا

يقبل من أحد ديناً سواه ، وهو الحنيفية السمحة دين الإسلام ملة إبراهيم إمام
الحنفاء و خليل الرحمن ، الذي بعث الله به سيد خلقه ، وأفضل رسله ، محمداً
ﷺ وأكمل له الدين ، وأتم به النعمة ، وأتاه الشريعة الوافية الشافية الكافية
الباقية إلى يوم القيامة فقال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . ﴾ هذا بيان
للدين الحق المورث لجنت النعيم ورضوان رب العالمين ، المشتمل على إظهار
كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى الموافق لما بعث الله تعالى به رسله
وأُنزل به كتبه وأوحاه إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أشار الله تبارك
وتعالى هنا إلى الشرطين اللذين لا يقبل من عامل عملاً إلا بهما ، فالشرط
الأول أن يكون العمل خالصاً لوجه الله الكريم خالياً من شوائب الشرك ،
والشرط الثاني أن يكون هذا العمل صواباً موافقاً لما شرعه الله عز وجل وبعث
به رسوله ﷺ وبهذين الشرطين يكون الاعتقاد حسناً والعمل حسناً ، وقد أشار
الله تبارك وتعالى إلى أن صحة الدين وحسنه لا يتأتى إلا بتحقيق هذين
الشرطين في غير موضع من كتابه الكريم كما ذكر هنا وكما في قوله عز وجل :
﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَإِلَى
اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور . ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . ﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن
انقاد وأخلص العمل لربه عز وجل ولم يشرك بالله شيئاً حالة كونه محسناً فيما
يعمل فلا يتقدم بين يدي الله ورسوله ولا يعمل إلا بما شرعه الله عز وجل بما
أنزله في كتابه أو بعث به رسوله ﷺ ، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام
الذي كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . كما قال تبارك وتعالى :
﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ﴾
والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً على بصيرة من ربه المقبل على الحق

بِكُلِّيَّتِهِ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صَادٌّ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. هَذَا بَيَانٌ لِمَنْزِلَةِ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخُلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ وَالْإِصْطِفَاءِ وَأَعْلَى دَرَجَاتِهَا، قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: إِنْ مَعَاذًا لِمَا قَدَّمَ الْيَمَنُ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَقَدْ قَرِئْتُ عَيْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اتَّخَذَ مُحَمَّدًا ﷺ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا، وَفِي لَفْظٍ لَهُ: لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلٌ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ أَبِي الْعَزْزِ فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الطُّحَاوِيَّةِ عِنْدَ قَوْلِ الطُّحَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ): ثَبَتَ لَهُ ﷺ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَحَبَّةِ وَهِيَ الْخُلَّةُ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ اللَّهُ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا: وَقَالَ: وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَالْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ، وَهُمَا يَبْطُلَانِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ أَهْـ وَقد أشار رسول الله ﷺ إلى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَضَّلَهُ عَلَى أَبِيهِ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرَ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنْ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا وَدَخَلَ آخَرَ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ،

فحسّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً، وكأنها أنظر إلى الله عز وجل فرقاً، فقال لي: يا أبا أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هونّ على أمتي، فرد إليّ الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتي فرد إليّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردةٍ رددتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم عليه السلام. كما أشار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن خلته ﷺ أعلى من خلّة إبراهيم عليه السلام، وأن خلّة إبراهيم كانت من وراء وراء ففي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبا ناس استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وكان الله بكل شيء محيطاً. ﴿قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ لطاعته ربه، وإخلاصه العبادة له، والمسارة إلى رضاه ومحبه لا من حاجة به إليه وإلى خلته، وكيف يحتاج إليه وإلى خلته وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير ملكاً، والمالك الذي إليه حاجة ملكه دون حاجته إليه؟ يقول: فكذلك حاجة إبراهيم إليه، لا حاجته إليه فيتخذه من أجل حاجته إليه خليلاً، ولكنه اتخذ خليلاً لمسارعة إلى رضاه ومحبه يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضاي ومحبتني لأتخذكم لي أولياء﴾ وكان الله بكل شيء محيطاً. ﴿ولم يزل الله محصياً

لكل ما هو فاعله عباده من خير وشر عالماً بذلك ، لا يخفى عليه شيء منه ،
ولا يعزب عنه منه مثقال ذرة اهـ . والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه» الآيات الثلاث .	٣
تفسير قوله تعالى : «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا» الآيتين .	٩
تفسير قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» الآيات الأربع .	١٥
تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته» الآيتين ...	٢١
تفسير قوله تعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» الآيتين .	٢٧
تفسير قوله تعالى : «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» الآيات الأربع .	٣٣
تفسير قوله تعالى : «كتم خير أمة أخرجت للناس» الآيات الست .	٣٩
تفسير قوله تعالى : «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا» الآيات الخمس .	٤٥
تفسير قوله تعالى : «وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال» الآيات السبع .	٥١
تفسير قوله تعالى : «ليس لك من الأمر شيء» الآيات الخمس .	٥٧
تفسير قوله تعالى : «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض» الآيات الأربع .	٦٣
تفسير قوله تعالى : «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض»	

٦٩	 الآيات الخمس .
	تفسير قوله تعالى : «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين
٧٥	 جاهدوا منكم» الآيات الثلاث .
	تفسير قوله تعالى : «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله» الآيات
٨١	 الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا
٨٧	 يردوكم على أعقابكم» الآيات الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول
٩٣	 يدعوكم في أخراكم» الآيتين .
	تفسير قوله تعالى : «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان»
٩٩	 الآيات الثلاث .
	تفسير قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم» الآيتين .
١٠٥	
١١١	 تفسير قوله تعالى : «وما كان لنبي أن يغفل» الآيات الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم
١١٧	 أني هذا» الآيات الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا»
١٢٣	 الآيات السبع .
	تفسير قوله تعالى : «ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» الآيات
١٣٠	 الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من
١٣٦	 فضله هو خيراً لهم» الآيات الأربع .
	تفسير قوله تعالى : «فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسل من قبلك جاءوا
١٤٢	 بالبينات» الآيات الثلاث .

تفسير قوله تعالى : «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه» الآيات الأربع .	١٤٨
تفسير قوله تعالى : «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم» الآيات الأربع .	١٥٤
تفسير قوله تعالى : «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» الآيات الخمس .	١٦٠
تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»	١٦٦
تفسير سورة النساء :	١٧٣
تفسير قوله تعالى : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» الآية .	١٧٥
تفسير قوله تعالى : «وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب» الآيتين .	١٨١
تفسير قوله تعالى : «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» الآيتين .	١٨٧
تفسير قوله تعالى : «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح» الآيتين .	١٩٣
تفسير قوله تعالى : «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين» الآيات الأربع .	١٩٩
تفسير قوله تعالى : «ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد» الآيات الثلاث .	٢٠٦
تفسير قوله تعالى : «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم» الآيات الأربع .	٢١٢

٢١٨	تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها» الآية .
٢٢٣	تفسير قوله تعالى : «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج» الآيات الثلاث .
٢٢٩	تفسير قوله تعالى : «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم» الآية .
٢٣٥	تفسير قوله تعالى : «والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم» الآية .
٢٤٠	تفسير قوله تعالى : «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات» الآية .
٢٤٦	تفسير قوله تعالى : «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم» الآيات الخمس .
٢٥٢	تفسير قوله تعالى : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» الآية .
٢٥٨	تفسير قوله تعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» الآية .
٢٦٤	تفسير قوله تعالى : «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون» الآيتين .
٢٧٠	تفسير قوله تعالى : «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» الآيتين .
٢٧٦	تفسير قوله تعالى : «الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله» الآيات الثلاث .
٢٨٢	تفسير قوله تعالى : «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها» الآيات الثلاث .

٢٨٨	تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» الآية .
٢٩٥	تفسير قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة» الآيات الأربع .
٣٠١	تفسير قوله تعالى : «إن الله لا يغفر أن يشرك به» الآيات الثلاث .
٣٠٧	تفسير قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت» الآيات الخمس .
٣١٤	تفسير قوله تعالى : «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا» الآيات الثلاث .
٣٢٠	تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» الآية .
٣٢٦	تفسير قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» الآيات الأربع .
٣٣٢	تفسير قوله تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» الآيتين .
٣٣٨	تفسير قوله تعالى : «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم» الآيات الخمس .
٣٤٤	تفسير قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات» الآيات الأربع .
٣٤٩	تفسير قوله تعالى : «وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء» الآيتين .
٣٥٥	تفسير قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» الآيات الثلاث .

- تفسير قوله تعالى: «من يطع الرسول فقد أطاع الله» الآيات
الأربع . ٣٦١
- تفسير قوله تعالى: «فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك»
الآيتين . ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى: «وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو
ردوها» الآيتين . ٣٧٢
- تفسير قوله تعالى: «فما لكم في المنافقين فئتين» الآيات الثلاث ٣٧٨
- تفسير قوله تعالى: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا
قومهم» الآيات الثلاث . ٣٨٤
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله
فتبينوا» الآيات الثلاث . ٣٩٠
- تفسير قوله تعالى: «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم»
الآيات الأربع . ٣٩٦
- تفسير قوله تعالى: «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن
تقصروا من الصلاة» الآيتين . ٤٠١
- تفسير قوله تعالى: «فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا
وعلى جنوبكم» الآيتين . ٤٠٧
- تفسير قوله تعالى: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين
الناس بما أراك الله» الآيات الثلاث . ٤١٣
- تفسير قوله تعالى: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله
وهو معهم» الآيات الخمس . ٤١٨
- تفسير قوله تعالى: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة

- ٤٢٣ منهم أن يضلوك» الآيتين .
- تفسير قوله تعالى : «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى»
- ٤٢٩ إلى قوله «وإن يدعون إلا شيطانا مريدا* لعنه الله» .
- تفسير قوله تعالى : «وقال لأتخذن من عبادك نصيبا» الآيات
- ٤٣٥ الخمس .
- تفسير قوله تعالى : «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب» الآيات
- ٤٤١ الأربع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَقْنِبُكَ
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يُوزَعُ مَجَانًّا وَلِإِيَابَاعِ